سلفادور جياراتانا



نقلها إلى العربية :
د. علي المنتصر فرفر

رمضان

رواية تاريخية تتناول أحداثا واقعية وقصصية
جرت خلال فترة الاحتلال الايطالي لليبيا



رمضان

رواية تاريخية تتناول أحداثا واقعية وقصصية
جرت خلال فترة الاحتلال الايطالي لليبيا

سلفادور جيارّاتانا

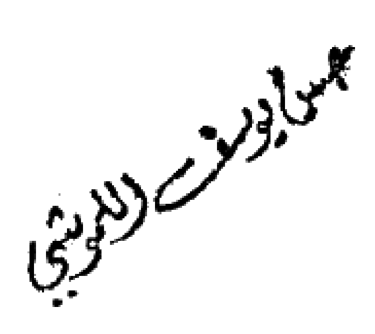
رمضان

رواية تاريخية تتناول أحداثا واقعية وقصصية جرت خلال فترة الاحتلال الايطالي لليبيا

نقلها إلى العربية :

د. علي المنتصر فرفر





د. علي المنتصر فرفر
رمضان

الطبعة الأولى : 2020 م

رقم الإيداع المحلي: 2019/362

رقم الإيداع الدولي: 9789959-921-253

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

كلمات وملاحظات بقلم المؤلف

■ كل الأسماء التي ترد في هذه الرواية هي أسماء غير حقيقية وأي تشابه قد يوجد بينها وبين أسماء شخصيات تاريخية أخرى هو محض مصادفة .

● لنتجاوز بفكرنا كل الحدود ، ولتسموا عقولنا حرة تحطم كل القيود .

● لقد ولدنا سواسية على وجه البسيطة .

● نحن نعي ذلك، مثلما نعي أن أساليب حياتنا هي وحدها التي تميز كلا منا عن الآخر .

■ هذا الكتاب هو أغنية حب :

حب الأم وحب الوطن وحب الحرية

وهذا الحب بعناصره الثلاثة هو الذي يجسد كرامة الإنسان .





عيسى يوسف الحوشي

مقدمة المترجم

عندما التقيت مؤلف هذه الرواية لأول مرة منذ أعوام مضت لم يخطر ببالي أبدا أن أكون من يقوم بترجمتها إلى العربية . حينها دار حديث قصير بيني وبينه عبر المترجم حيث كنت آنذاك لا أعرف شيئا في اللغة الأسبانية، لكن الذي شدني اليه حماسه الكبير لهذه الرواية وحماسه الأكبر لكل ما هو ليبي، وكيف لا يحدث ذلك وهو الإنسان الذي ولد في ايطاليا بتاريخ 1918/09/13، أي سبع سنوات بعد بدء الاحتلال الايطالي لليبيا، وعاش في ليبيا منذ طفولته إلى أن بلغ أثنين وعشرين عاما من العمر شهد خلالها بأم عينيه جزءا من مآسي تلك الفترة المظلمة من تاريخ ليبيا الحديث، وهو ما جعل روايته مشحونة بانفعالات جياشة ضد الاستعمار والطغيان واستعباد الشعوب الأخرى تحت ذرائع واهية وواهمة .

ولربما كانت تلك الانفعالات القوية هي التي جعلته في بعض مواطن سرده لروايته يخرج بوضوح عن التناول المباشر للأحداث لكي يبرز وجهة نظره الشخصية منتقدا لموقف ما أو محتجا على وضع ما أو مسفها لثقافة استبدادية ما، وهو ما يندر وجوده في الأعمال الروائية لأن المؤلف ببساطة يريد أن يقول أنه صاحب موقف وصاحب قضية لا يكفيه أن يبطن آراءه وسط آراء الشخصيات الرئيسية التي توجد بالرواية بل عليه المجاهرة بها علنا ضد كل أصحاب البغي والاستبداد .

وفي إطار مبادئ الحرية والمساواة والانفتاح الفكري التي أكد عليها المؤلف في تقديمه للرواية ظل وفيا لفكرة إدانة الاستعمار كظاهرة معادية للإنسانية لا تكتوي بنارها الشعوب المستعمَرة فحسب بل الشعوب المستعمِرة أيضا حين تدفع بشبابها إلى الموت في قضية ظالمة وخاسرة إرضاء لأوهام المجد الزائفة لحكامها وحكوماتها التي تنقل إلى البلدان المحتلة إضافة إلى عساكر المقاتلين القتلة مستوطنين مدنيين لخدمة أجندتها في السيطرة

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي لا تتورع في التنكيل بأي منهم ممن لا يشاطرها تلك الأجندات أو يبدي معارضة أو نقدا لها .

كما أن شر الاستعمار - مثلما يتضح جليا في هذه الرواية - يمتد إلى أكثر من البلد الذي يقوم بالاستعمار والبلد الذي يُخضع له، لأن قريحة المستعمرين قادرة دوما على توسيع دائرة الشر وتعميم نطاقه . فكثير من الليبيين قُتلوا على يد الارتريين والأحباش الذين جندهم الايطاليون قسرا لكي يحاربوا في ليبيا مثلما جندوا قسرا ليبيين حاربوا في الحبشة وارتريا اللذين كانا بلدا واحدا يرزح هو الآخر تحت الاستعمار الايطالي في تلك الحقبة من التاريخ . وهكذا هو المنطق الاستعماري الذي لا يعرف سوى لغة المصالح الاستعمارية ولا يعترف للشعوب الرازحة تحت نيره بغير الذل والقهر، والخنوع والخضوع.

لكن المؤلف لا يفوته أن يشير إلى حالات من التآلف والتآزر الإنساني التي قد توجد بين ضحايا الاستعمار من المواطنين الليبيين والايطاليين تأكيدا على ان قضية الحرية واحدة رغم اختلاف العرق والدين واللغة والثقافة، فالنضال الذي يخوضه أي شعب ضد مستعمريه هو نضال ضد الاستعمار كظاهرة معادية للبشرية بغض النظر عن جنسه وجنسيته وشعاراته وممارساته ودعاواه وادعاءاته مما يبرهن بجلاء على أن المشكلة الاستعمارية ليست مشكلة بين الشعوب التي لم يقرر أي منها غزو شعب آخر بل مشكلة الحكومات الاستعمارية والحكام الذين يتربعون على رأس السلطة فيها.

بيد أنه من المهم منذ البداية إبراز أن هذا العمل الأدبي الإبداعي لا يمثل بالضرورة شهادة تاريخية بنفس القدر الذي تمثله الوثائق والسير أو المذكرات أو اليوميات الشخصية. إذ أنه رغم وجود قدر من المعلومات التاريخية ضمن هذا الكتاب، إلا أنه يجب أن يُنظر إليه في المقام الأول كعمل إبداعي، كرواية أدبية تستند في بعض جوانبها على التاريخ ولكنها لا تزعم أنها تؤرخ لفترة زمنية أو لشخصيات تاريخية معينة . وفي ضوء هذا البعد الإبداعي الأدبي تعمد هذه الرواية إلى تجاوز الواقع ومزجه أحيانا بالخيال واختراق حدود الزمان والمكان وتخطي المضامين التي توردها الوثائق والشهادات من اجل أن تشاطر القارئ قيما إنسانية عليا ومبادئ سامية للعيش الحر الكريم .

اختار المؤلف اسم رمضان لكي يطلقه على الشخصية الرئيسية أو بطل الرواية، وهو

اسم له أكثر من دلالة ؛ فرمضان هو اسم شهر الصوم وكأن لسان حال المؤلف يقول أن فترة الاستعمار بالنسبة لليبيين كانت صوما تأجلت فيه قيم الحرية والاستقلال والسيادة إلى حين بينما استمر النضال من اجلها كل الأحيان، إضافة إلى أن حالات الفقر والتعاسة التي عاشها الليبيون تحت الاحتلال كانت تمثل صوما اضطراريا يحجبهم عن التمتع بثروات بلدهم ويحرمهم من حقهم الطبيعي فيها . بل ان الحرمان امتد إلى محاولات خنق صوت الشعب الليبي وفي مقابل ذلك إطلاق المجال لدعاوى المستعمرين وأباطيلهم . لكن العزيمة والعزم وروح المقاومة الباسلة التي اتسمت بها ملاحم الجهاد التي خاضها الليبيون ضد الاحتلال هي التي جعلت الحق يصدح من جديد ممزقا حجب الظلام وباطل الكلام مما أجبر المستعمرين على ان تفتح عيونهم وآذانهم وعقولهم وضمائرهم لكي يعوا أنهم لا يمكن أن يستمروا في إخضاع شعب قرر أن يعانق الموت من أجل أن توهب لوطنه الحياة .

انتقل المؤلف عام 1948 للإقامة في فنزويلا، وعند الاتصال بدار نشر هذا الكتاب في بلدة ماراكاي لغرض الحصول على الإذن اللازم من أجل ترجمة كتابه إلى العربية لكي يستطيع الناطقون بالعربية في ليبيا وخارجها الاطلاع المباشر على عمله الروائي أفاد الناشر بأن المؤلف وافته المنية منذ بضع سنين، ولكنه كان سيسعد كثيرا بمثل هذا الخبر لأنه كان يأمل دوما في تقديمه هدية لشعب ليبيا الذي عرفه بشكل مباشر وأحبه مثلما أحب ليبيا ترابا وثقافة وقيما .

أما عن مترجم هذا الكتاب فهو أستاذ جامعي، وصحفي وإذاعي سابق، ومسئول إعلامي سابق، ودبلوماسي سابق، ولكنه ليبي أولا وأخيرا يعلم أن أكبر واجب لليبيين والليبيات في هذه الفترة من تاريخهم يتمثل في تأكيد أن تبقى ليبيا المجاهدة واحدة أبد الدهر، شامخة سائدة، تسمو عاليا فوق كل الانتماءات والولاءات .

ومثلما يمكن استخلاصه بسهولة من هذا الكتاب، فان قضية ليبيا أكبر من أن تُقزم في نزاعات وعداءات مصطنعة بين فرد وآخر أو بين منطقة وأخرى أو بين قبيلة وقبيلة ؛ ذلك أنه حين يداهم الخطر الخارجي بلدا ما فانه لا يفرق بين مثل هذه الحواجز المصطنعة، وحين تدق ساعة العمل الدؤوب من أجل الاستمرار في بناء صروح النهضة والتقدم والمجد، فان كل السواعد الليبية يتوجب عليها أن تنال شرف الإسهام الفاعل في هذا البناء.

بقي أن يشار إلى أن مثل هذا العمل الروائي التاريخي يسد ثغرة كبيرة في توثيق ملاحم النضال الليبي لأن أغلب ما يتوفر في المكتبة الليبية حول جهاد الليبيين ضد الاستعمار يتمثل في أعمال تاريخية وثائقية جافة كان يجب أن تتكامل معها إبداعات روائية وأدبية يمكن تحويلها إلى أعمال مسرحية وإذاعية وسينمائية من أجل استنهاض همم الأجيال الناشئة والاستمرار قدما في مواصلة الكفاح والنضال في سبيل الله والوطن .

كما أنه لابد أن يشار كذلك إلى أنه في مواقع محدودة جدا تم إبراز الترجمة بالشكل الذي ينسجم مع مبادئ العقيدة الدينية والأسس الاجتماعية للمجتمع الليبي لأنها أمور قد لا يكون المؤلف قد استوعبها بشكل راسخ خلال فترة إقامته المحدودة في ليبيا، أو ربما حدثت بشكل طبيعي انسجاما مع خلفيته الثقافية الغربية، فالدعاء مثلا لا يكون لغير الله ولا يكون القسم إلا باسمه العظيم .

■ د. علي المنتصر فرفر

الجزء الأول

الفصل الأول

الوصول

حدث في احدى سني الله ... حسنا، طالما أنني سوف أحاول أن أحكي قصة إنسان عربي فلربما يكون من الأنسب أن أقول : حدث في السنة الهجرية كذا، لكنني لست متأكدا من السنة الهجرية التي تتوافق مع الأحداث التي سوف أسردها . ولكي أقدم فكرة حول الفترة الزمنية التي جرت خلالها الأحداث التي سوف أورد ذكرها فيما بعد دون الحاجة إلى تحديد السنة الهجرية، فانني أقول إن ما حدث كان خلال عشرينات القرن العشرين، وبالتحديد في الأيام الأولى من شهر ابريل في مدينة بنغازي في ليبيا الإيطالية آنذاك .

كان ذلك خلال الساعات الأولى من المساء حيث تأخذ الشمس طريقها نحو الأفول وتهب نسمات خفيفة تحمل معها عبق البحر الذي يقع على مسافة قريبة . كانت السماء صافية خالية تماما من السحب، وكان الجو هادئا لا يعكر صفوه سوى صوت العربات القليلة التي تسير على هذا الطريق بين الفينة والأخرى .

وخلال تلك الفترة كانت شاحنة كبيرة ذات قعقعة وضجيج تعبر الجسر الذي يربط منطقة جليانة بمدينة بنغازي . كانت الشاحنة محملة بسلال وأكياس وبعض الركاب من الرجال والنساء وكثير من الأطفال الذين ترصد عيونهم الصغيرة كل ما تتفاجأ به على طول الطريق .

وعندما اجتازت هذه الشاحنة الجسر بقيت تسير بضعة مئات من الأمتار لكي تصل إلى مدينة بنغازي بشوارعها المتشعبة يمينا وشمالا، وببطء اتجهت الشاحنة إلى أول شارع على يمين الطريق واصطفت بعد بضعة أمتار على جانب الطريق كي لا تعرقل حركة السير لكن محرك الشاحنة بقي يعمل بصوت خافت .

وعلى اثر ذلك أعطى سائق تلك الشاحنة المتهالكة الأمر الفوري المشدد للركاب بالنزول حيث كانوا يتحادثون فيما بينهم بلهجة تخلط بين العربية والأمازيغية حول أمور يبدو أنها صعبة وسيئة، وهكذا تواصلت مغادرة الركاب للشاحنة تزحف بينهم بعض الكلمات أو الإشارات، في حين يقوم بعضهم بمساعدة البعض الآخر على الترجل من على ظهر

الشاحنة وإنزال السلال والأكياس . وبمجرد أن تم إفراغ الشاحنة من حمولتها غادرت المكان في أول طريق تصادف وجوده أمامها، وأصبحت تغيب تدريجيا مثلما يغيب صوت قعقعة حركتها كلما توارت بعيدا عن المكان .

أما الركاب الذين كانوا على ظهر الشاحنة فقد غادروا هم الآخرون بسرعة وهدوء المكان الذي نزلوا به زرافات ووحدانا وفي اتجاهات مختلفة تاركين ذلك المكان هادئا مهجورا مثلما كان قبل أن يحلوا به تلفحه حرارة الجو الفائقة الارتفاع، ولم يبق هناك سوى كومة سوداء تلتصق بالحائط ولربما كان لها علاقة بأمر ما حدث قبل قدوم الشاحنة أو ربما كانت كيسا نساه أحدهم عندما غادر المكان باستعجال، ولربما كانت شيئا من سقط المتاع الذي لم يكلف أصحابه أنفسهم عناء أخذه معهم .

لكن الأقرب إلى الحقيقة هو أنه شيء نساه بعضهم ؛ ذلك أنه بالنسبة لظروف أهل البلاد الذين يعصف بحياتهم الفقر الشديد يعتبر كل شيء مهما بالنسبة لهم . بيد أنه بعد برهة تحرك هذا الشيء المستند على الحائط أو ربما تحرك بفعل هبة ريح أو ماذا ؟ لكن أحد المارة المحب للاستطلاع اكتشف أن حركة ذلك الشيء لم تكن بفعل الريح بل هي حركة ذاتية، وبمجرد أن اقترب هذا الشخص من تلك الكومة وجدها صبيا يحتمي بذلك الحائط وهو يجلس مكبا بوجهه فوق ركبتيه، ويضع على رأسه غطاء قماشيا به بقع كثيرة كان يستعمله لغرض وقايته من الريح التي تحمل معها غبار الصحراء .

وعندما ارتفعت هامة الصبي قليلا فوق ركبتيه بانت ملامح وجهه الأبيض الذي علته بعض القتامة بفعل أشعة الشمس الحارقة، ولكنه ظل وجها جميلا جذابا تعلوه عينان سوداوان جميلتان ولكنهما بدتا منطفئتين مظلمتين لا بريق ولا توهج لهما، ولربما كان ذلك بسبب شعور داخلي جعل نظرتهما إلى العالم الخارجي تشبه من تلقي به الريح في مكان سحيق ينتابه رعب لا يجعله يدرك كيف يستطيع أن يستنقذ نفسه بقواه الذاتية ويتجه نحو أماكن أكثر أمنا . وهكذا بقي الصبي جامدا في جلسته تلك لا حول له ولا قوة .

ما هي المشاغل التي أرهقت العقل الصغير لذلك الصبي وجعلته لا حراك به في هذه الظروف ؟

إن الذي يبدو هو أن فوضى انعدام الأمن جعلت منه مجرد شيء وضيع لا قيمة له ولا حياة . لقد طغى الزمن القاهر الذي لا يفرق بين شخص وآخر على الصبي حتى أصبح وكأنه كومة ملابس . لكنه مع حلول الظلام أصبحت تهب نسمات منعشة تحمل معها أريج

البحر، وهو ما جعل الصبي يخرج عن جموده ويقف بحركة بطيئة تشبه خطى الطفل الذي يبلغ ثماني سنوات من العمر . كان نحيفا له ساقان نحيلتان أنهكهما ماضٍ ملؤه الهموم والآلام .

كان وجهه جميلا رغم الشحوب الذي علاه، وكان شعره أسود به بعض التجاعيد لكنه كان مغبرا وغير ممشوط، وكان الصبي يلبس قميصا أشبه ما يكون بكيس أو قل يلبس كيسا أشبه ما يكون بقميص غابت ألوانه وطغى عليه اللون الأصفر، وقد شُد هذا القميص بحبل غليظ في خاصرة الصبي .

استمر الصبي يمشي بخطى وئيدة غير واثقة يبدو منها أنه لا توجد لديه وجهة محددة يقصدها بل كان لا يعلم إلى أين يجب أن يتجه . وخلال ذلك انطلقت فجأة رخات من الرصاص معلنة نهاية الهدوء الذي كان مخيما على المكان، وهكذا ملأ صوت الرصاص سويعات المساء بصداه وتردداته الحربية مما جعل الصبي يتوقف، وفي الحال تتجلي عنه حالة عدم اليقين وأصبحت أنظاره تكتسي بسرعة فائقة بريقا غير معتاد، وأصبح يقظا منتبها لما يدور حوله يملؤه الحرص والجاهزية إزاء ما يمكن أن يحدث . بقي الصبي على هكذا حال لبضعة ثوان يترقب حوله لكي يعرف أين يكمن مصدر الخطر لكن الوقت مر تدريجيا ثم عاد الهدوء من جديد إلى هذا الجزء من مدينة بنغازي .

وإذا كان الهدوء الذي اتسم به ذاك المساء في أواخر فصل الربيع قد بدا في أول الأمر كبيرا مطبقا، فان الذي حدث بعد ذلك هو تغيير فجائي في مجرى الأمور نحو الشر والعنف وهو ما جعل الصبي يتجه إلى مغادرة المكان بعد سماعه لصوت الرصاص الذي مزق الهدوء ؛ أي أنه انتقل سريعا من حالة الجمود إلى التوتر ثم اليقظة، وهو ما جعل خطواته أكثر ثباتا وثقة وحذرا، وأخيرا أصبح يعرف إلى أين يتجه، وهو ما كان كافيا للتعامل مع ظروف تلك اللحظات بحيث انطلق بدون تردد وبثقة قوية بالنفس نحو مصدر إطلاق النار وكأنه شخص اعتاد ان يعيش مثل هذه الظروف . وبخطى سريعة وحذرة وصل الصبي إلى زاوية الشارع، واتجه يسارا حيث يوجد ميدان محاط بأسلاك شائكة لم ير له بابا وعلى هذه الأسلاك علقت لافتة مكتوب عليها بالخط العريض : « منطقة عسكرية ـ مستودع أسلحة ـ ممنوع الدخول ـ معسكر تدريب « .

رأى الصبي هذا المشهد إلا أنه بسبب عدم معرفته باللغة الايطالية لم يأبه حتى لمجرد رؤية اللافتة، لكنه أدرك على أية حال أن هذا المكان هو مكان خاص لأنه محاط بالأسلاك الشائكة ولأنه رأى مجموعات قليلة من الجنود يتحلقون حول رشاشات تطلق عيارات نارية

لكن الصبي لم يتملكه خوف أو هلع أو شعور بالخطر من صوت إطلاق الرصاص لأنه رأى أن الجنود يطلقون هذه العيارات النارية باتجاه حائط إسمنتي يقع على مسافة منهم .

استمر الصبي ماشيا باتجاه ذلك المكان بشكل فضولي لأنه لم يفهم لماذا يطلق الجنود النار باتجاه الحائط، بيد أنه في قرارة نفسه كان يدرك أيضا أن إطلاق الرصاص معناه الموت والدمار والإبادة والمطاردة . أما الذي لم يفهمه بعد فهو لماذا يجري إطلاق النار باتجاه حائط وهو ما كان شيئا جديدا بالنسبة إليه . وفي كل الأحوال، فإن شعور الصبي بانعدام الخطر جعل حركته أكثر حيوية وثباتا، وبخطى وئيدة اتجه الصبي نحو المكان الذي يتواجد فيه الجنود حيث استمر يشاهدهم حتى أكملوا تمرينهم على الرماية وقاموا بفك الرشاشات وغادروا المكان وهم يتناجون بهدوء . بقي الصبي وحيدا وساد الصمت مرة أخرى ذاك المكان وكأنه يخشى أن تغشاه عاصفة جديدة من العنف، وبالفعل تمزق الصمت من جديد بفعل مكبر الصوت الذي انطلق مجلجلا ليعبر عن شيء سعيد هذه المرة يقطع الريح إلى ذرات صوتية تتناثر حول ذاك المكان .

إنه وقت الطعام ؛ وقت العشاء في ذلك المعسكر حيث أخذ الجنود يتوافدون من مختلف أركان المكان، ومن عمق المعسكر ظهر جنود آخرون يحملون أواني الشوربة وأكياسا من الخبز حيث بدأوا يوزعون الأكل على باقي الجنود الذين بمجرد أن أكملوا التهام طعامهم أخذوا يتفرقون في اتجاهات مختلفة فرادى وجماعات وهم يتجاذبون الأحاديث ويطلقون القهقهات والتساؤلات وتعبيرات الفرح عن كونهم شبابا في مقتبل العمر وبكامل عنفوانهم.

وبينما فضل بعض هؤلاء الجنود الذين قل صبرهم التهام طعامهم وهم سائرون آثر البعض الآخر الانتظار إلى أن ينتقوا مكانا للجلوس ومن ثم تناول طعام العشاء . لقد شعر الصبي ،ذلك المراقب المفاجئ للمشهد، بالغبن وعلت وجهه الصغير علامات الامتعاض عندما شاهد هؤلاء الجنود يأكلون الطعام في حين أطبق عليه الجوع الكافر بقوة وأصبحت أمعاؤه تتلوى ويتردد صدى الألم في كل أعصاب جسمه الصغير، لكنه استمر يراقبهم وجسمه يتحرق ألما وتلهفا للطعام الذي يلتهمونه . كل هؤلاء الأشخاص يأكلون بينما تتلوى معدته الصغيرة من الجوع ترقبا لطعام طال زمان انتظاره .

تقدم الصبي بحذر وامتدت يداه الصغيرتان تقبضان على الأسلاك الشائكة وبقيت عيناه مشدودتين تراقبان هؤلاء الأشخاص الذين لهم وفرة كبيرة من الطعام بينما يتضور هو جوعا واستمرت عيناه ترقبان وتراقبان تلك الوفرة الغذائية الممنوعة عليه والتي لا يستطيع أن يدركها، ثم سالت ببطء دمعتان على خديه، دمعتان تسطران ألما على وجهه

الحزين، دمعتان كانتا أشبه بالأعلام البيضاء الدالة على الخضوع للقدر والاستسلام له ولكل مظاهر الحرمان . لقد كان الصبي يتيما وحيدا وسط مكان غير معروف لا يرى له أمل، وحين رأى الآخرين يلتهمون الطعام انتابه شعور بالرغبة في الصراخ بأعلى صوته معبرا للدنيا كلها عن قلة حيلته وجوعه وهوانه، لكن حنجرته عجزت عن إصدار أي صوت، ولم يكن يقدر على أكثر من إطلاق بعض الأنات المتقطعة التي كانت أشبه بصوت حيوان صغير جريح يتألم . وعلى اثر ذلك سقطت دمعتان حزينتان من الصبي على أديم الأرض التي استقبلتهما بعدم اكتراث لأنها تعودت على مثل هذه المشاهد الفضيعة وأدى طغيان الحزن فيها على مر السنين إلى عدم اكتراثها وفقدانها القدرة على استشعار الآم الصبي لأن تلك الأرض لم تر مرارا وتكرارا بشرا يبكون فقط، بل بشرا يموتون جوعا وبالملايين . لقد بدا وكأن هناك اتفاقا ما بين الأرض والبشر لكي يشعر ويتصرف كل منهما بالطريقة التي تتماشى معه، وبالنسبة للأرض ماذا عساها أن تكون دموع الصبي ؟ لا شيء على الإطلاق ! قال أحد الفلاسفة الكبار مرة بإصرار . وكأنه حقق اكتشافا عظيما . إن دموع الأطفال ليست سوى علامة تجارية سيئة . كلام هذا الفيلسوف يعبر عن الوهم لأنه يبدو أنه أعمى على أقل تقدير !

وفي قمة الإحباط لاحظ الصبي أن أحد الجنود الذين كانوا يتناولون الطعام راق له أن يقوم بالتخلص من نصف رغيف خبز زاد عن حاجته من الطعام من خلال رميه خلف الحائط بدلا من إرجاعه إلى سلة حفظ الخبز، وقد رافقت عينا الصبي قطعة الخبز هذه التي طارت فوق الحائط، وبدون أدنى تفكير جرى نحو المكان الذي وقعت فيه قطعة الخبز هذه حيث يوجد خلف الأسلاك الشائكة حائط صغير ارتفاعه حوالي متر، وخلف الحائط توجد قطعة أرض عرضها حوالي 15 مترا وطولها حوالي 200 متر تصل إلى البحر، وهكذا وصل الصبي إلى حيث ألقيت قطعة الخبز.

وبفعل عمى الجوع واللهفة للأكل جرى الصبي من أجل الظفر بقطعة الخبز، وكان هذا الهدف هو كل همه في تلك اللحظات، ولم يخطر ببال الصبي أن فخا كان جاهزا لاستقبال الضحية التي جلبها القدر إلى ذلك المكان لكي تحط بين فكي وحش مفترس تلتهم حنجرته بنهم شديد كل ما يصلها وتقول هل من مزيد غير آبهة بالحي أو الميت من الأجسام التي تعبر إلى جوفه .

وفي تلك اللحظات الصامتة فإن الوحش كان عبارة عن بركة ماء آسن مليئة بأعشاب البحر ورغوة غريبة، وبمجرد أن وطأت قدما الصبي النحيفتان هذه البركة ذات المظهر

الخادع انجذب جسده إلى الداخل محدثا صوت إنبلاع، وانجرف الصبي مع فضلات القمامة الأخرى إلى جوف يلتهم ولا يقذف، ويقبل ولا يطرد، وهو دائما جائع ولا يشبع .

وخلال لحظات ساد الصمت مرة أخرى ذاك المكان المريع دونما إدراك لبؤسه وخداعه وكونه ميدانا للموت الجبان مثل الموت الذي يتسبب من خلال طعنة في الظهر من قبل صديق قريب دون سبب أو باعث، وهكذا لم يعد السكون سيد المكان بل الموت .



الفَصْلُ الثَّانِي

تحالف غير معلن

لقد اتسم ذلك المكان اللعين بالبؤس والصمت والوحدة والموت، وفي تلك الأثناء حجبت سحابة نور الشمس عن المكان مما زاد من حزنه، وجاء ظل هذه السحابة وكأنه يريد أن يخفي عن الأنظار معالم العمل الشرير الذي تعرض له الصبي، بل ان غياب نور الشمس توافق زمنيا خلال بضعة ثوان مع الجرم الذي لحق به . لكن صوت تفجر المياه فجائيا إلى أعلى حطم الصمت الذي ساد ذلك المكان التعيس، وبرز ذلك الحدث وكأن حنجرة ذلك الوحش الضخمة تريد أن تتخلص من بلغم نتج عن نزلة برد، وهو ما أدى إلى أن يقذف الصبي خارج البركة وكأنه جسم غريب أراد الوحش إزالته من حنجرته لكي يتمكن أن يتنفس بشكل طبيعي ويستعيد وضعه التقليدي الذي يتسم بالبراءة الجبانة الخادعة .

بقي الصبي شاحب الوجه جاثما في المكان الذي سقط فيه جسمه وكأنه جثة هامدة، ومع اندفاع جسم الصبي إلى الخارج انجرفت أحجار وكميات من الوحل كانت على جانبي البركة إلى وسطها حيث تسبب سقوط هذه الأحجار والأوحال إلى وسط البركة في انطفاء حراك مياهها بشكل نهائي وعودة الهدوء والسكون اليها . وهكذا عاد الهدوء الحذر يحوم حول الصبي وقريبا منه، وهبت نسمات الريح المنعشة وكأن ذلك كله جاء من أجل بث روح الأمل لدى الصبي والتضامن معه، ثم حل ظلام الليل الذي ما لبث أن غطى بردائه الأسود كل شيء وأسهم مع الريح المنعش والهدوء في إظهار ما يشبه التحالف الثلاثي مع الصبي كي لا يشعر بأن كل ما يوجد بهذا المكان يمثل عدوا قاهرا له .

وبذا أصبح مصير الصبي مرتبطا بهذا التحالف الثلاثي غير المعلن بين الهدوء والريح والليل، وفي حمى هذه العناصر الثلاثة برز للصبي بصيص أمل في خضم المستقبل المظلم . لقد حان وقت الأمل، هكذا ظن الصبي . لكن جهود العناصر الثلاثة الطيبة ذهبت سدى إزاء حالة ذلك الصبي اليافع الذي تعصف به لطمات سوء الحظ، ولذا مكث ساكنا وكأنه جثمان صغير وبدا وجهه شاحبا رغم بعض البريق الذي اكتساه بفعل ضوء القمر الذي باشر بالطلوع . أما نسيم البحر المنعش فقد توقف طالبا من منافسه المتمثل في ريح الصحراء الباردة مساعدة هذا الكائن الصغير الذي ظل ساكنا يقطر جسمه بللا خائفا

وكأنه جسد بلا روح، وقد أسهمت جهود ريح الصحراء الباردة في مساعدة هذا الصبي وكأنها صديق قديم له عزيز عليه لم يلتقه منذ أمد طويل، وسرعان ما شعر الصبي بحالة من الغثيان انتحى على اثرها جانبا وتقيأ كل الماء الذي ابتلعه أثناء سقوطه في فخ تلك البركة الآسنة، وزاغت عينا الصبي وأصبح لا يكاد يشعر بما يدور حوله ينتابه التعب والخوف ثم عاد إلى سكونه يلتقط أنفاسه وكأنه يعاني آثار مس أو لعنة قدر . مرت الساعات الطوال وكأنها طابور من الأوقات الصامتة لا أول لها ولا آخر ولا نهاية لها ولا اتجاه لكن الذي يميزها هو تزامنها معا، إذ أنها توجد مجتمعة وتغيب فرادى، وترابطها الجماعي هو الذي يعطي للوجود معنى ؛ فالزمن هو الذي يحدد معنى الأمور الأبدية وسبب وجودها، والأمور الأبدية هي التي تحدد الزمن وتسبغ عليه معنى ؛ إذ لا يمكن فصل أي من طرفي المعادلة عن الآخر، فلا وجود للأمور الأبدية إذا لم يوجد الزمن، ولا يمكن أن يوجد الزمن اذا لم توجد الأمور الأبدية ؛ ذلك هو الترابط الذي يصنع الأمور الكلية أو يكاد، ولولا غياب نفحة الفكر عنها لكانت أساس الوجود الذي يحدد ويدرك ويبرهن على عظمة الارتباط الأكيد بين عنصري الزمن والوجود الأبدي .

ومع بروز الشفق في الأفق شرقا وكأنه جناح وردي باشر الظلام في الانقشاع كلما ازداد اتساع مدى الشفق، وانزوى الليل يجر ذيله بين قدميه وكأنه كلب يعوي أنهكه الضرب المبرح وجعله ينظر حوله خوفا وهلعا، وسرعان ما انبجست حزمة من ضوء الشمس قادمة من الشرق وكأنها إصبع اتهام موجه ضد كل ما جرى تحت جنح الظلام معبرا عن اكتشافه للجريمة الفضيعة التي تم ارتكابها في غيابه، وحين رأى النور ذلك الصبي الصغير ملقى وكأنه قمامة كثف انتشاره حول الصبي عله يجد مرتكب هذه الجريمة، وقد أسهمت أشعة الشمس في إضفاء الدفء على الصبي وإعادة الحياة إلى ذلك المخلوق الصغير الملقي في هذا المكان المهجور وكأنه جثة هامدة ؛ ذلك الدفء الحنون الذي جلبته أشعة الشمس جاء لإيقاظ الصبي المسكين ومد يد العون اليه . وفي ذلك الحين انطلق من المعسكر القريب مكبر الصوت وكأنه جاء معلنا الاحتفاء بحادثة نجاة الصبي من مخالب الموت .

نظر الصبي الصغير حوله مشدوها وإذا بقطعة خبز تعبر الهواء وتسقط قريبا منه مثلما حدث بالنسبة لقطعة الخبز السابقة . لقد عضه الجوع بأنيابه، ولذا نهض متعثرا ومشى بضع خطوات ليتناول قطعة الخبز ثم قام بمضغها والتهامها خلال ثوان قليلة، ثم ما لبثت أن سقطت كسرة خبز أخرى بعد أن عبرت الهواء ووقعت قريبا منه . وفي نفس الوقت تقريبا سقطت قطعة خبز أخرى وتوالت تباعا وكأنها مطر من الخبز هطل على

تلك البقعة من الأرض وهكذا كان وقع مطر الخبز بالنسبة للصبي تعبيرا عن الإرادة في الحياة وكأن واقع الحال يقول له : « تشجع يا رمضان، نحن هنا لمساعدتك إذا ما تخلى عنك الآخرون . نحن نشاطرك وحدتك وسنكون جزءا منك وأداة نفع لك، نريد أن نشعر بالاعتزاز لأننا نشبع حاجتك، نحن الطعام الطيب لا يمكن أن نكون مثل باقي الأشياء غير النافعة، نحن جئنا اليك من السماء من أجل أن تعيش بنا وتعطينا أنت بذلك الحياة ".

وفي تلك الأثناء توقف هبوب ريح الصحراء الباردة وكأنه ارتأى أن دوره قد أداه بفاعلية نحو الصبي، وهبت نسمات البحر بديلا عنه تعبيرا عن سعادتها بالإسهام في استعادة الصبي لعافيته، وهكذا أحاطت النسمات المنعشة الصبي بعنايتها، وكونت هالة مقدسة تلتف حوله لإشعاره بالدعم وحسن المآل . ولقد استشعرت روح الصبي الصغيرة كل هذا الفيض من النعم حيث جرت دمعة فرح على خده، أو ربما كانت دمعة خوف سقطت على وجه الأرض مما جعلها تفتح إحدى عينيها عند شعورها بسقوط تلك الدمعة، ولربما تضايقت الأرض من جراء ذلك ثم هزت كتفيها وأغمضت عينيها من جديد وكأنها تقول للصبي : " ما المشكلة ؟!" ثم استعادت هدوءها وخلدت مجددا إلى النوم .

أما موجات البحر الهادئة فقد استمرت تطلق صوتها الخافت الخالد وكأنها ترغب أن تهمس بلطف في أذن الصبي من أجل عدم إزعاجه حيث كانت سمة الهدوء غالبة على كل عناصر البيئة المحيطة بالصبي وكأنها تريد أن تواسيه وتشعره برغبتها في مساعدته إزاء الظروف السيئة التي واجهته في ذلك المكان . وهكذا شعر الصبي اليافع أن الهمس الهادئ الآتي من كل تلك العناصر البيئية يدل على أنه لم يعد وحيدا . أما الطعام الذي التهمه فقد أعطاه قوة، ونسمات الريح التي تربت على جسده الصغير والصوت الخافت لأمواج البحر بدت تشعر وكأنها تريد أن تهمس اليه بكلام ما . إنه حدس ما يفسر للصبي ما يدور حوله وهو الإنسي الوحيد رفقة عناصر الطبيعة التي شكلت هالة مقدسة كان لسان حالها يقول له : " لقد أصبح لك رفاق ولم تعد وحدك، وكلنا نبتسم لك ونغمرك بالبهجة مثل الملائكة الكرام، ونحن نقول لك بهدوء لقد وصلت إلى حمانا، ابق معنا ولا تغادرنا، سوف نعطيك كل ما عندنا من اجل أن تكون رفيقا لنا، وسنكون سعداء عندما نراك سعيدا . " وبذا أسهمت كل عناصر الطبيعة في إسعاد الصبي وكأنها تتصرف وفقا لاتفاق غير معلن بينها . كان الريح وموج البحر على الأخص يبدوان وكأنهما يريدان بهدوء وانفراد ترك رسالة تضامن سرية للصبي . لقد أدى كل واحد من هذه العناصر أفضل ما لديه، وتكامل بذلك التحالف غير المعلن بينها، وعلى الأخص كان الهدوء عامل توحيد

لهذه العناصر حيث ربطها معا بشكل وثيق متماسك استطاع أن يملأ المكان الذي حل به الصبي مما دفعه إلى الالتفاف في لحاف رأسه وكأنه ملاك يملأ خفقان جناحيه جو المكان صدى صامتا .

أكل الصبي كثيرا، وكيف لا والجوع أطبق عليه بشدة، وقد كان يمكن له أن يستمر في الأكل لولا أنه تعود على حياة الفقر والتقشف وعدم اليقين بشأن ما يحمله الغد من مفاجآت، وهو ما جعله يبقى على بضع قطع من الخبز تحسبا لاحتمال عدم حصوله عليها في المستقبل غير المضمون، ولأجل ذلك أحكم رباط الوسط لقميصه واختزن في جوف هذا القميص قطعا من الخبز بكل الحب الذي يحمله المرء الجائع للطعام .

اقترب الصبي من حائط المعسكر، واتجه صوب صخرة كبيرة بدت وكأنها تدعوه للاستراحة فوقها بعد تلك المائدة الدسمة وذلك من أجل غفوة كتلك التي يقضيها أولو النعمة، وعند اقترابه من تلك الصخرة تعرض الصبي للبلل جراء ماء مندفع من أنبوب قديم اعترته الأكسدة حيث يمتد هذا الأنبوب على سطح الأرض ثم يثبت في حائط صغير ارتفاعه حوالي متر واحد لكي يصل بعدها إلى المعسكر لتغطية الاحتياجات المائية للجنود . وهكذا تمكن الصبي من إرواء عطشه من خلال هذا المصدر المائي المفاجئ خاصة بعد وجبة الطعام المجزية التي أدركها وذلك على الرغم من أنه باعتباره ابن الصحراء تعود على تحمل العطش بشكل لا يقدر عليه آخرون .

شرب الصبي بهدوء وأروى ظمأه بكل متعة وبرضا تام قبل دعوة تلك الصخرة الكبيرة التي كانت في انتظاره بشوق، وعندما جلس فوق الصخرة نظر حوله لكي يستطلع البيئة المجاورة فأحس وكأنه في جنة عدن خاصة بعد جلسة الطعام والشراب الهادئة الناعمة . رأى الصبي قطعة أرض مليئة بالمستنقعات تمتد على مساحة تقدر بحوالي 15×200 مترا تمتد بين البحر والمعسكر حيث يقع المعسكر على يمين ويسار الحائط الصغير الذي يوجد بالمكان الذي قدم منه الصبي . كان هذا المكان معزولا بشكل كامل عن محيطه الخارجي وذلك بسبب كونه منطقة عسكرية خطيرة.

وحيث أن الصبي لم ير أحدا في تلك الأثناء فقد بدا لعقله الصغير أنه أصبح يشعر بشكل ما أنه صاحب هذا المكان . استراح الصبي وقتا طويلا فوق الصخرة حيث استرخى جسده وعقله معا ؛ ذلك أنه بفعل ما تعرض له من آلام فإن نفسية ذلك الصبي المسكين كانت بحاجة هي الأخرى للراحة والهدوء والوحدة والسكينة، ولقد أسهمت بيئة ذلك المكان المنعزل الهادئ ونسيم البحر العليل في استرخاء أعصاب الصبي، وبفعل الشعور

بالطمأنينة والراحة والطعام المجزي الذي التهمه خلد الصبي إلى النوم مستلقيا وكأنه حيوان صغير مطارد استطاع إيجاد المكان الذي يختبئ فيه لكي ينام بعد انقضاء فترة طويلة من شعوره بالخوف والضعف وقلة الحيلة .

وتلافيا للمفاجآت غير السارة وللمخاطر المحدقة فقد عمد الصبي بحكم المنطق والسليقة إلى إخفاء نفسه وسط البيئة المحيطة عله يجد مكانا يتلائم مع احتياجاته، وحين امتد ببصره يسرة لم يجد سوى كومة من الأخشاب وصناديق كبيرة وأبوابا خشبية منزوعة وكثيرا من قطع القمامة التي تم تكويمها بإسنادها إلى الحائط التابع للمعسكر . توقف الصبي ثم اتجه حيث توجد الأشياء القديمة التي استغنى عنها أصحابها فأودعوها ذلك المكان، وحاول الاختباء عن طريق الاستلقاء في فجوة لا تكاد تسع جسمه الصغير، وهكذا وجد نفسه في مكان محدود ومظلم ومغلق بشكل تام يقع بين حائط المعسكر والكميات الهائلة من تلك الأشياء القديمة الملقاة في ذلك المكان حيث شكل هذا الوضع حيزا مغلقا ليس به سوى تلك الفجوة التي تتسع لجسمه الصغير .

نظر بشكل فضولي إلى كل هذه المعطيات المكانية وهو ابن الصحراء الذي تعود ناظراه على الرؤية الليلية في الظلام، وأدرك أن غرفته التي اصطنعها لنفسه - إن صح أن نسميها غرفة - ضيقة جدا حيث لا يزيد عرضها على متر ونصف ولا يزيد طولها عن مترين ونصف، ولكنها جافة تماما ومظللة بشكل كاف يمنع عنها الحر الذي يسود خارجها . أدرك الصبي أنه بجوار الحائط توجد علبة كبيرة من حيث أبعادها تكاد تكون مملوءة بقش جاف، وقد أسعده أن يرى أنه أصبح لديه مأوى يلجأ اليه، مأوى خاص به وحده يذكره بشكل أو بآخر بالمرقد الذي كان يأوى اليه في خيمته التي قضى بها طفولته البريئة، بل فوق ذلك كله فقد بدا له هذا المأوى أفضل من الخيمة وأكثر ثباتا وأمنا واحتماءً منها، وهنا أدرك أن ذاك المكان المظلم الذي تعود على العيش في أمثاله جيد بالنسبة اليه وقدر في نفسه أنه ربما لا يوجد أمامه مكان أفضل ثم انحنى الصبي نحو قطعة خشب ملقاة فالتقطها واستعملها بابا لغرفته مما زاد قليلا من إظلام المكان لكن كان بإمكانه الرؤية ولو بشكل أقل وضوحا من ذي قبل ثم اقترب من العلبة الكبيرة المملوءة بالقش باعتبارها أبرز قطع الأثاث التي جلبها الحظ إلى تلك الضيعة وبدون أدنى تفكير ألقى بنفسه وسط هذه العلبة وهو يشعر بخليط من الاسترخاء والعزاء والحسرة .

اتسعت العلبة لجسمه الذي انزلق بلطف داخلها، وقد أدى صوت القش وهو يتلبد حول جسمه إلى تهدئة أعصابه وشعر بالارتياح بشكل لم يعهده من قبل خلال حياته

المليئة بالبؤس . لقد تعود أن ينام على حصيرة تصنع من ألياف النباتات التي تنمو في ليبيا وهي تمثل السرير الذي ينام على مثله كل الفقراء في الصحراء، ومقارنة بذلك كانت العلبة المليئة بالقش بالنسبة اليه أحد أبرز معالم الراحة شعر بعدها الصبي الشقي بنعمة لم يعهد مثلها منذ زمن طويل . شعر قلبه الصغير أنه أصبح لديه بيت آمن وفي منأى عن المخاطر . شعر ببعض الأمل بعد انقضاء وقت طويل من البؤس، وازدادت نسبيا ثقته في المستقبل المجهول وغير المضمون . وعندما أدرك أنه في إحدى زوايا تلك العلبة توجد قطعة خبز ملقاة بداخلها زاد شعوره بأنه لا توجد لديه راحة المأوى فقط بل راحة الاطمئنان إلى وجود غذاء يكفيه لبضعة أيام . لقد أصبح لديه دون أن يدري شيء جديد غير مدرك من قبل : إنه سرير يحتوي على مخزن للطعام وهو شيء غير معهود لم يأبه له الصبي في البداية لأنه كان يتصرف بشكل طبيعي عندما جلب لنفسه الطعام القريب الوافر الذي كان يحلم به منذ وقت طويل مليء بالمفاجآت السيئة وأودعه علبة القش . وبالإجمال فلقد أدت كل تلك الأمور مجتمعة إلى تهدئة بال الصبي الذي فاجأه النوم دون مقدمات وقد كان ذلك مرضيا لهذا الكائن الصغير الذي تلاحقه الشرور الكثيرة حيث كان جسمه في حاجة ماسة للنوم .

مضت ساعات تلو ساعات هادئة بطيئة وكأنها تمددت لكي تطول إلى الوقت الكافي الذي يحتاجه ذلك الكائن الصغير الوحيد لكي يبعد عن نفسه الهموم الكبرى التي تفوق في كل الأحوال طاقة صبي يافع لا يزال في عمر الزهور . ولقد هيأت ظروف المكان الذي وجد الصبي فيه نفسه دون أن يدري الفرصة لتجاوز المخاطر من خلال عناية السماء حيث كان الهدوء والراحة المطلقة قد أسهما في استرخاء عضلات جسم الصبي العربي الصغير الذي هجرته الدنيا، بل إنه بدت على وجهه ابتسامة خفيفة بعد فترة العناء والألم والخوف، وكيف لا يحدث ذلك وهو الذي رأى في المنام أنه يجلس إلى جوار أمه وهو ما زاد من عذوبة الابتسامة لديه .

وفي المنام استعادت ذاكرته تدريجيا المأساة التي ألقت به في أتون الإبعاد عن أهله وذويه . رأى في المنام أنه لا يزال يعيش في تلك الواحة الصغيرة وسط الصحراء، وسمع أمه تناديه قائلة له رمضان، هيا إلى الطعام، أسرع . ركض رمضان نحو أمه تاركا خلفه رفاق اللعب الذين كان يتقاسم معهم الألعاب، وبكل سعادة جرى نحو أمه التي كانت دائما تداعبه بعبارات الحب الجميلة أو بتربيت على جسمه الصغير أو بكليهما معا . لقد كانت تحب ابنها رمضان بكل قوة لأنه كان عزاءها الوحيد بعد أن فقدت زوجها منذ بضع سنوات خلال مواجهة له مع عدد من الجنود الأرتريين الذين كانوا يعملون ضمن الجيش

الايطالي . لقد كان رمضان يحب أمه إلى ما يشبه درجة العبادة لأنها كانت عنده أغلى من كل شيء وأحب اليه من نفسه وكانت تمثل كل شيء في هذه الدنيا بالنسبة اليه .

وعندما وصل إلى الخيمة لم يعد يتذكر المكان الذي جلس فيه وكان الظلام قد أوشك أن يحل، بيد أنه بمجرد أن اعتادت عيناه على الظلام رأى أمه نائمة في إحدى زوايا الخيمة، ولكي لا يزعج نومها اتجه في سكون نحو مرقدها، وبعد زمن لم يعد يتذكر مدى طوله حدث أن انهالت على المكان إطلاقات كثيفة وقوية للرصاص جعلته يغوص في بحر من الرعب، ثم انهالت إطلاقات نار مباشرة على الخيمة مما أدى إلى سقوطها، واستعادت ذاكرته أثناء نومه سوء المآل الذي حل بالخيمة والأسرة، ورأى أنه عند سقوط الخيمة سقط هو الآخر على بطنه ثم ما لبث أن وقعت ركيزة الخيمة مباشرة على رأسه مما أفقده الوعي . وعندما استفاق من آثار الضربة بعد لأي وجد نفسه على متن شاحنة تسير ليلا وسط الصحراء . رأى حوله كثيرا من الأشخاص لا يعرفهم، لكن ألما شديدا كان يعصف برأسه ولم يستطع لأجل ذلك أن يفكر جيدا في الأمر . مر وقت طويل وهو ساكن في مكانه بالشاحنة يتأمل حوله عله يستطيع فهم إلى أين كانت تتجه تلك الشاحنة ومن هم هؤلاء الأشخاص الغرباء الذين كانوا معه، لكنه لم يستطع أن يفهم شيئا من ذلك .

لقد تعذب الصبي الصغير بفعل هذا التشتت الفكري، أما آلام الرأس التي ظلت تلازمه فقد زادت من تشتت أفكاره، ومضت الساعات تلو الساعات وكأنها طابور طويل وبطيء وصامت يريد أن يخفي عنه حجم المآسي التي تعرض لها . ومع مرور الزمن لم يستطع رمضان أن يصبر أكثر من ذلك فسأل النسوة اللائي كن يجلسن قريبا منه عما إذا كانت إحداهن قد رأت أمه، لكن أيا منهن لم تسعفه برد على سؤاله ليس لأنهن لا يعرفن الإجابة، بل لأنهن لم يكن يردن أن يضفن إلى مأساة الصبي أحزانا أخرى . وعلى إثر ذلك لم يستطع رمضان أن يتمالك نفسه فانفجر باكيا طالبا من مرافقيه في الشاحنة ان يبلغوه إذا ما كان أحد منهم قد رأى أمه التي تدعى مريم، وأوضح لهم أنها أم طيبة وأنه يحبها كثيرا، واستمر في بكائه ورجائه للأشخاص الذين معه واحدا تلو الآخر أن يبلغوه أي معلومات عن أمه لكن دون طائل.

تأثرت واحدة من النسوة اللاتي كن معه في الشاحنة بنحيب الصبي ومعاناته فحاولت مواساته قائلة له : عندما وصلنا إلى حيث كنتم تسكنون كنت أنت في حالة إغماء، ولم نر غيرك شخصا آخر، وقد أدرك الجنود أنك ما زلت على قيد الحياة فقاموا بحملك إلى هذه الشاحنة . هذا كل ما نعلمه عن أمرك، وليست لدينا أية معلومات أخرى بشأنك .

تشجع يا بني وثق بأن رحمة الله واسعة، وأنه وسع كل شيء علماً .

واستمر حلم الصبي حيث رأى نفسه جاثيا في إحدى زوايا الشاحنة ولكنه هذه المرة لم يعد يبكي، عيناه مفتوحتان جافتان لا تنظران إلى شيء، وقد تملكه شعور بالانقطاع عن العالم حوله، وأن فراغا هائلا يحيط به من كل جانب يكاد يلغي وجوده، وأن عقله مشتت وأنه يألم وكأنه مشدود في أطراف جسمه بكلاليب قوية . شعر أنه أصبح أقل شأنا من بعرة البعير تائها في الصحراء يعصره الألم ويحيط به سوء الطالع وكأنه وسط متاهة لا متناهية تخنق روحه الصغيرة البريئة . وحين حل الظلام لم يستطع معرفة الاتجاه الذي كانت تسير فيه الشاحنة حيث لم يكن هناك نور على جانبي الطريق، وبذا انتصر الظلام الذي غطى بمعطفه الأسود جميع ملامح الأشياء .

رأى في المنام أنه بعد ذلك أخذ يتنقل من مخيم إلى آخر مثل الكلب الضال يقتات على فضلات القمامة حين يجدها، وكأنه حيوان صغير تخلى عنه صاحبه، محتقر مطارد ذليل مبعد ومنسي من الجميع . وفي المنام أيضاً رأى نفسه من جديد عندما وصل إلى مدينة بنغازي التي تنتشر بها منازل كبيرة وكثيرة لم يعهد رؤيتها في حياته، ثم رأى أن أنوارا تهبط من السماء إلى الأرض وكأن يدا عظمى تنثرها من بين الأصابع النورانية، وحين تصل تلك الأنوار إلى سطح الأرض تتحول إلى طعام وافر . وعندما كان يسير في الطريق شعر بانبعاث صوت ما أصبح يرتفع شيئا فشيئا مما أدى إلى أن يستيقظ رمضان من سباته العميق واكتشف أن الصوت المرتفع هو صوت يبشر بشيء مفرح وجميل وكأنه جاء ليساعد الشمس على نشر نورها فوق الأرض مبشرا بيوم جديد يحل في هذا المكان وفي غيره من الأرجاء . ومثلما تمتد أجنحة الفراشة انفتح جفن الفتى مع بزوغ نور الشمس متناسيا المكان الذي كان يتواجد فيه، ورأت عينا الصبي المتثاقلتان بفعل النوم النور الذي استطاع أن يهزم الظلام، والهدوء الذي كان سيد المكان الذي بدا وكأنه عالم جديد معزول عن كل ما عداه .

عاد الصمت إلى فرض سيادته وكأنه مخلوق حي ينظربعين واحدة إلى ما يوجد في ذلك المكان ويتنقل بين أرجاء المكان على أطراف قدميه راغبا في تواضع أن تبقى الأمور هادئة، ولكنه بكل تعنت وإصرار يرفض أن تلحق به الهزيمة، وسرعان ما حقق مبتغاه وعاد الهدوء إلى بسط نفوذه وكله رضى عن قدرته على تجاوز ما عداه وإشباع حاجة الناس اليه، وانبعثت نحو المكان شبه المظلم الذي كان به الصبي شعلة من نور ذهبي عبر فتحة بين أكوام القمامة مما أضفى متعة وجمالا على مكان تواجده.

وسرعان ما أفاق رمضان الذي كان لا يزال يقبع داخل علبة القش الكبيرة ونظر حوله مندهشا لأنه وجد أن كل ما حوله من أشياء لا يمثل مخاطر أو تهديدا لوجوده وأنه نام نوما عميقا وسط تلك العلبة وهو ما لم يعهده من قبل في سني عمره القليلة المليئة بالتعاسة والشقاء .

لكن انطلاق مكبر الصوت من جديد جاء ليعلن بصخب وهياج أنه استطاع أن يمسك الهدوء من شعره بشكل مفاجئ ويرمي به إلى خارج الحلبة معلنا أن زمنه الضروري والقصير قد ولى . وهكذا أنهى رمضان فترة استراحته وقذف بجسمه خارج علبة القش وأزاح قطعة الخشب التي استخدمها بابا لغرفته واندفع إلى خارج تلك الفجوة فوجد أن اليوم الجديد قد بسط نوره وأن شعاع الشمس الدافئ أصبح يداعب الكون ومن عليه . لقد نام رمضان 24 ساعة متواصلة كان عزاؤه الوحيد هو الحلم الطويل الذي داعب خياله لأنه من الناحية الواقعية وصل إلى نهاية قدرته على المقاومة .

بيد أن صوت وقوع شيء ما وسط الماء أثار قلقه، لكنه سرعان ما اكتشف أن قطعا من الخبز تتساقط حوله بنفس الطريقة التي حدثت معه خلال المرة السابقة وقد راق له صوت وقوعها الموسيقي وهو الإنسان الفقير الذي ترك يواجه مصيره وحيدا . وبسرعة البرق جمع لنفسه قطعا من الخبز وشرع حالا في تناول إفطاره الدسم لأن وفرة كبيرة من الخبز بالشكل الذي يراه أمر لم يعهده إطلاقا من قبل، بل إن هذه الوفرة جعلته يعمد إلى التقاط قطع الخبز الكبيرة تاركا الفتات منها . أصبح رمضان يتناول إفطاره بهدوء وليس على عجل كما كان خلال المرة السابقة ثم اتجه إلى الجانب المقابل للجهة التي كان متواجدا بها من أجل استكشاف المكان الذي جلبه اليه الحظ، ونظر حوله وكأنه المالك لهذا المكان المنعزل، وشرع يتمشى بحذر بين المستنقعات كي لا ينبلع جسمه فيها مثلما حدث له في المرة السابقة، وهكذا زادته التجربة حنكة .

كانت تلك المستنقعات مليئة بأسماك صغيرة تأتي مع أمواج البحر عند عملية المد وتبقى هذه الأسماك تتغذى على فتات الطعام الذي يقذف به الجنود خلف المعسكر، وعند عملية الجزر تعود هذه الأسماك مرة أخرى إلى البحر لكن بعض تلك الأسماك تبقى في المستنقعات لأن قنوات العودة المائية تجف مما يجعل هذه الأسماك تبقى تنتظر حركة المد البحري مرة أخرى لكي تعود مع الجزر إلى مياه البحر، وفي نفس الوقت تأتي مع حركة المد الجديدة أسماك أخرى تبقى في المستنقعات لكي تتغذى على الفتات الذي يرمي به الجنود، وهكذا تتكامل دورة الحياة بالنسبة لهذه الأسماك الصغيرة .

لم يكن رمضان يعرف السمك ولكنه سمع أحاديث حوله، ولذا فإن رؤيته له كانت بالنسبة اليه أمرا غير مألوف . رأى أن تلك السمكات جميلة جدا ولها حركة رشيقة رائعة، كما أن لونها الفضي اللامع كان عظيم الجمال، ولذا حاول مرات عدة أن يمسك بإحداها وبعد بضع محاولات استطاع فعلا أن يمسك بسمكة صغيرة ويجعلها تلامس يديه الصغيرتين اللتين قوسهما حول السمكة كي لا تهرب بسرعة إلى الماء، ثم أخذ يفتح بين يديه قليلا لكي يراها جيدا ولكنها بقفزة سريعة انسابت بين أصابعه واتخذت طريقها نحو الماء مودعة إياه لكي تستطيع تناول ما تلقاه من طعام . مكث وقتا طويلا يعاين تلك السمكات مندهشا من هذه المخلوقات رائعة الجمال، وكان هذا الأمر بالنسبة لرمضان مشهدا جذابا من مشاهد البيئة الطبيعية الجميلة، وبذا كانت تلك الأسماك لعبا حية موجودة هناك من أجل الترفيه عنه على الرغم من أنه لم يعرف في حياته كلمة لعبة ولم يمسك بأي لعبة بين يديه من قبل . استمر رمضان في استكشافه بشكل هادئ راضيا عن المشهد الذي يراه وعن الطعام الذي دخل جوفه، بل انه حمل معه أيضا رغيف خبز شبه كامل قام باختياره من بين قطع الخبز التي تلقاها من قبل .

كان قيامه بإشباع رغبته في الطعام هذه المرة والمرة السابقة، إضافة إلى ما يحويه مخزن الطعام في علبة القش التي اتخذها سريرا له قد أدى إلى شعوره بأنه أصبح إنسانا ميسورا أي غنيا بشكل عام، وذلك يرجع إلى أن بؤس حياته فيما مضى جعله راضيا بما آل اليه أمره .

لقد أمضى أوقاتا كانت أسوأ بكثير من كل تصور، عصف خلالها به الجوع والحرمان، وها هو ذا فجأة أمام وفرة كبيرة من الطعام لم يشهد لها مثيلا من قبل . استمر رمضان في تجواله بهدوء ومعدته مليئة بالطعام الوافر، وقد أدهشه أن وجد بعد فترة وجيزة من تجواله مجرى مائيا طويلا من مياه الصرف يتدفق من أنبوب ضخم خارج من الحائط، ووجد على جانب ذلك المجرى نباتات الطماطم وثمارها تتدلى منها وهي في مختلف مراحل النضج ؛ نباتات بعضها لا يزال في بداية طور النمو وأخرى كبيرة بها ثمرات ناضجة . كانت هذه النباتات غير مزروعة بل نبتت لحالها من خلال بذور ثمر الطماطم المستعملة من قبل طباخي المعسكر . وبطبيعة الحال فإن رمضان لم يكن يعرف كل هذه التفاصيل، ولكنه كان يعرف الطماطم الذي كانت أمه تستعمله في الطبخ أحيانا . ورغم أنه لم ير نباتات الطماطم من قبل إلا أن رائحته كانت معروفة لديه ؛ إنها نفس رائحة الطماطم الذي عرفه من قبل ولا يوجد أي شك في ذلك .

لقد أسعده وجود مصدر جديد للغذاء أصبح فجأة متاحا أمامه، ثم قطف بعض ثمار الطماطم وباشر في أكلها كما هي وبكل شهية . لم يقطف كل الثمار بل قطف ما يحتاجه ليقتات منه تاركا الباقي - مثلما يفعل أهل الزراعة - لكي يأكل منها حين الحاجة القادمة ؛ ذلك أن رمي بقايا الطعام في القمامة أو الإسراف في استخدام الماء يعتبران خطيئة كبرى عند أهل الصحراء، كل ذلك يدل على أن تضافر عوامل الطبيعة جعل الصبي الصغير قليل الحيلة والمنسي وحيدا قادرا بقدر على تجاوز محنته خاصة وأن هذه العوامل موجودة دائما جاهزة لكي تحوط ذلك الكائن البريء برعايتها .

وهكذا عاش الصبي في ذلك المكان المنعزل والآمن - مؤقتا على الأقل ! - لقد كانت حالة الأمان النسبي التي وجد نفسه فيها واحدة من الأشياء التي كان يطمح إليها منذ ذلك اليوم المشئوم الذي أصبح فيه وحيدا بعد مصاب فقدانه لأمه التي تركها رغما عنه وكأنه ورقة تعصف بها الرياح، لكنه الآن أصبح لديه سرير من نوع ما، وهو أمر رائع في ذلك المكان الصغير، إضافة إلى أنه أصبح - كما يبدو - محميا آمنا ولديه معجزة الحصول على وفرة من قطع الخبز وماء الشرب حسب الطلب، ولكي يكتمل المشهد أصبحت لديه ثمرات الطماطم الزكية التي تكاملت بها الوجبة التي لم تكن كاملة ولكنها أكثر تنوعا، فما هو المزيد الذي يمكن له أن يطلبه وهو الذي عاش وقتا طويلا لم يكن باستطاعته فيه أن يملأ معدته ؟! ذلك المخلوق سيء الحظ الذي كان يعيش أياما طوالا دون أن تمتد يده بأي طعام إلى فمه حيث كان يقضي وقته بين أكوام القمامة وكأنه كلب قد عضه الجوع . ما الذي يمكن لهذا الكائن المسكين أن يطلبه وهو الذي كان يقضي ليله منزويا في إحدى الزوايا لأنه ليس لديه ما يأكله، وليس لديه ما يلبسه سوى قميص احتياطي وحيد ؟ أما الآن فقد انتهى زمن التعاسة لأنه أصبح لديه مأوى خاص به وحده، ولديه ما يشبه السرير . انه بالنسبة اليه منزل فخم وهو المالك الوحيد له دون منازع .

وبعد أن تفحص مقر اقامته الصغير العجيب جلس رمضان على صعيد من الأرض كان جافا بسبب ارتفاعه النسبي، ونظر باتجاه البحر الذي يمتد عبر الأفق وتتدفق أمواجه في ألوان مختلفة وفي حراك دائم . هل كان رمضان سعيدا ؟ لا لم يكن كذلك، ولم يكن ليستطيع أن يكون سعيدا وهو يدرك ذلك جيدا، لكنه أدرك أنه يتوجب عليه كل يوم أخذ قدر من الحيطة إزاء ما يمكن أن يحدث خلال اليوم التالي، وكان هذا واجبا عسيرا بالنسبة إليه . ذلك الطفل المسكين لم يكن يقدر أن يكون سعيدا لأنه كان يشعر بأنه صغير ووحيد ولا حول له ولا قوة . كان أكبر شيء افتقده هو حنان أمه أو يد صديق تنقذه مما

هو فيه أو أي شخص يعينه بسبب ضعف قدرته . شعر أيضا أنه بحاجة ماسة إلى قبلات ومداعبات أهله . لم يكن ليستطيع أن يكون سعيدا في عزلته ووحدته التي وجد نفسه مغمورا في أتونها، لم يوجه سخطه نحو أحد لأنه لم يعرف علام يجب أن يسخط وضد من . توجه بناظريه إلى السماء ليس من أجل الصلاة لأنه لم يتعلم كيف يصلي، بل نظر فقط إلى أعلى فوجد نفسه مأخوذا باتساع الأفق وهذا الكون المترامي الاطراف، واستخلص العبرة من السماء الزرقاء مما جعله أكثر هدوءا وطمأنينة وكأنه استقبل إلهاما من السلام جعل فؤاده يطمئن رغم مرارة الظروف التي مر بها وأشبعته علقما . ما الذي يمكن لهذا الكائن الصغير الذي يجلس على رابية أن يأمل حدوثه ؟ لا شيء، وهو ما كان يتوقعه، وهذا هو مربط الفرس .

ومنذ أن استفاق من حالة الإغماء وهو على ظهر الشاحنة التي كانت تشق الصحراء كانت الوحدة رفيقه الملازم له، وكأنها نبتة شيطانية علقت به ولم يستطع منها إنفكاكا . كان الجوع عدوه الدائم الذي استطاع أخيرا أن يتخلص من شروره، كما كان الألم والأسى والخوف الذي يملأ وجدانه رفاقه الدائمين الذين استطاع أخيرا أن يتجاوزهم . لم تقده تلك الظروف إلى حالة الكره لأنه في طهارة الطفولة لا يعرف معنى البغض وكيف يمكن لإنسان ما أن يبغض آخرين . لم تتلوث نفسية ذلك الصبي بالمشاعر الدنيئة، بل كانت تكبر وتكبر سعيا وراء الحب الذي لم تجده . كانت لديه رغبة التواصل والاجتماع مع الآخرين لكنه أُرغم على الانعزال . كان يشعر بالحاجة إلى العاطفة الدافئة ؛ إلى حرارة الأخوة الإنسانية، لكنه بدلا من ذلك واجه المهانة . يا لها من مشاعر كانت تدور في خلج ذلك الصبي ! كيف يمكن يا ترى أن يفكر ذلك الطفل ذي الثمانية ربيعا في أترابه عندما يرونه مهانا مطرودا ملاحقا وذليلا ؟ نعم فكر في أترابه، ولكن تفكيره بهم جعله يؤثر أن يكون وحيدا لأنه فقد الثقة بالجميع عندما فشل في الحصول على أية معونة من أي كان، بل على العكس من ذلك أصابه الكثير من الإحباط . بقي الصبي جالسا على تلك الربوة وعيناه زائغتا البصر، وبدا له أن وجوده هناك يماثل اللاوجود، ومع حالة السكون ارتفعت معنويات الصبي قليلا وامتزجت روحه بالبيئة التي كان متواجدا بها . أصبح متوحدا مع عناصر البيئة وكأنه واحد منها، وكون معها كلا متناغما يملأ ذلك المكان الصغير الذي أصبح جاذبا ومضيافا .

لقد تولد لديه شعور داخلي بأنه وصل إلى المكان الملائم له في كل الأحوال حيث يمكنه أن يعيش دون أن يعتمد على الآخرين ؛ فلديه الغذاء اليومي ولديه المأوى والوحدة

والسكينة وهي أربعة أشياء ضرورية لمواجهة كل الشرور التي ألمت به ولم يستطع بسهولة نسيانها .

أما عناصر البيئة الأخرى حوله فيبدو أنها تتجه إلى منحه الهدوء والراحة وكأنها تقول له بكل سخاء وحب : " أنت في رعايتنا هنا ولن يستطيع أحد ايذاءك أو توبيخك أو ضربك بالعصا . أنت هنا رغم كونك وحيدا فنحن رفاقك . أنت سيد هذا المكان الذي ستجد فيه كل مساعدة منا . لن تمر بك أيام أخرى عطشا تترقب شربة ماء . لن تكون هناك أيام أخرى تتضور فيها جوعا أو تعيش مهددا بشكل مبطن تخاف أن يتم ايذاؤك . لست وحيدا هنا لأن كثيرا من الأصدقاء يحيطون بك وهم سوف يعطونك كل ما تريد دون أن تطلبه، وسوف يمدون يد العون إليك في كل ما يستطيعون فعله وهم راضون سعداء بما يفعلونه تجاهك .

لقد انسابت كل هذه المشاعر بشكل عفوي إلى عقل الصبي رمضان، وهو ما ولد لديه الرغبة الأكيدة في عدم مغادرة جنته الصغيرة إلا إذا استجدت ظروف قاهرة تدفعه إلى ذلك . أراد أن يبعد عن نفسه كل الخوف الذي أثقل كاهله وكأنه معطف من الآلام . أراد أن يجدد نفسه وأن يطهر نفسه من كل المخاطر وأن ينهض من جديد . أراد أن يبعد عن نفسه بسرعة كل المرارة وسوء الطالع سواء في ماضي الزمان أو حاضره أو مستقبله وأن ينتصر لنفسه بشكل كامل وفعلي .



الفصل الثالث

التجديد

هكذا بدأ رمضان حياته الجديدة : هدوء وسكينة وراحة وهي كلها أمور يحتاجها بكل معنى الكلمة . مر اليوم الأول بهدوء تام باستثناء صوت القطار الذي كان يسير غير بعيد عن ذلك المكان .

كان القطار أمرا غير مألوف بالنسبة للصبي مما جعله يتابع حركة تنقله لفترة وجيزة باستجمام، لكن أفضل أنواع الاستجمام بالنسبة إليه تمثل في تلك السمكات الصغيرة التي تغدو وتروح مع حركة المد والجزر البحرية . وقبل أن ينتصف النهار بقليل هطلت أمطار خفيفة من الخبز الذي يعتبر الوجبة المفضلة لذلك الصبي المعدم، وهي الوجبة التي لم تغب عنه أبدا لحسن الحظ طيلة المدة التي مكثها في ذلك المكان.

وعلى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا جلجل دوي المدفع في مكان بعيد عن الصبي ولكنه أزعجه، وبالنظر إلى أن هذا الصوت القوي لم يتكرر ثانية اطمأن الصبي الذي لم يدرك أنه في مدينة بنغازي يتم الإعلان عن وقت منتصف النهار من خلال صوت إطلاق المدفع، لكن تكرر صوت المدفع يوميا في نفس الزمان جعل الصبي أكثر اطمئنانا، وقد مضى وقت طويل قبل أن يدرك رمضان السبب الحقيقي وراء انطلاق المدفع . ومع حلول الليل وعقب سماعه لمكبر الصوت في المعسكر لاحظ بسعادة أن قطعا أخرى من الخبز هبطت اليه من السماء حيث كانت كل هذه الخيرات مدعاة لانبعاث شعور عميق لديه بالأمان حيال مستقبله المجهول . وفي سرير القش الذي اصطنعه لنفسه تكونت لديه كمية من قطع الخبز لكنه آثر أن يبدأ بأكل تلك التي حصل عليها مؤخرا لأنها طازجة أكثر من سابقاتها .

أخذ معه قطعتين كبيرتين من الخبز واتجه نحو حديقته من أجل جمع بعض حبات الطماطم الطازج ذي الرائحة الزكية وباشر بأكلها بكل شهية . لقد أدرك الصبي جنته ؛ فهي حقا جنة عدن في تقديره . أما بالنسبة لماء الشرب فقد التزم نظاما سهلا وذا فاعلية ؛ حيث التقط من المخلفات علبة صفيح فارغة قام بغسلها جيدا في مياه البحر ووضعها تحت خرم الأنبوب الذي يزود المعسكر بماء الشرب والذي سبق له أن شرب منه

وقام بغلقها بعد امتلائها بقطعة من الورق المقوى قام بتنظيفها جيدا، وهكذا أصبح لديه دوما ماء للشرب يحفظه بعيدا عن حرارة الشمس، ولكي يتجنب نقل هذه العلبة من الماء من مكان الأنبوب إلى حيث يقيم قام بإحضار علبة أخرى أقل حجما من سابقاتها يغترف فيها ما يحتاجه من ماء الشرب .

وهكذا كان رمضان من الذكاء بحيث جعل إقامته في ذلك المكان أكثر راحة، ومع غروب الشمس وبداية حلول الظلام يعود رمضان إلى غرفة نومه حاملا معه بسرور قطع الخبز لكي يكومها في زاوية من سريره مع باقي قطع الخبز التي أصبحت صلبة نوعا ما، ولكنها بالنسبة اليه ممتازة جدا، ومع نهاية يوم سعيد يمدد رمضان أطراف جسمه المتعب في سرير القش الذي يحتضنه بدفء، ويحل الصمت في المكان ويصبح الهدوء سيد الموقف، وتتضافر عناصر الطبيعة جميعا لكي تكرم وفادته دون منٍ لأن الهم الوحيد لهذه العناصر هو توفير الحماية لهذا المخلوق البريء وأن تفعل ما تستطيع لمساعدته، فهي التي أظلته بجناحها واحتضنته كي لا يشعر بالضيق وكي لا تؤذيه أية شرور، وأسرعت تفتح له آفاق أحلامه الطفولية الصغيرة لكي تبعد عنه الحزن وتجعله سعيدا .

لقد داعبت أحلامه الصغيرة مخيلته وكأنها على وشك أن تتحقق بفعل ملاك خاص، وقادته أحلامه تلك فوق أجنحة الخيال إلى أماكن كونية بها نور ساطع وحب لا نهائي يتعاظم تدريجيا إلى أن يملأ الدنيا كلها، ويحتضنه هذا الحب وكأنه أمه وهي التي يشتاق اليها كثيرا وتمثل حبه الأعظم، وهكذا وجد نفسه منغمسا وسط النور الساطع وأصوات ما تتناهى إلى سمعه، واستيقظ رمضان لكي يجد نفسه فعلا يستمع إلى مكبر الصوت الخاص بالمعسكر القريب معلنا عن بداية اليوم الجديد . ومقارنة باليوم السابق فقد كان رمضان أكثر وعيا بنفسه، فهو يعرف مكان وجوده والظروف التي قادته اليه، وأصبح قادرا على أن يتوقع ما يمكن أن يؤول اليه أمره . لم يكن يشعر بالسعادة، لكنه لم يكن متذمرا حيث أصبح لديه ما يكفيه ليقتات عليه ليعيش .

مرت الأيام هادئة بالنسبة لرمضان، وقد كانت السكينة والسلام من أبرز العوامل التي ساعدت على صفاء سريرته وارتياح أعصابه، تلك الأعصاب التي أنهكت من قبل بشكل خطير . ان الهدوء شبه المطبق الذي ساد ذلك المكان، والذي قد لا يروق للآخرين كان أمرا ضروريا بالنسبة للصبي . أما الحياة التي عاشها رمضان خلال الأيام الأولى من وجوده في ذلك المكان فقد كانت روتينية بشكل كامل الأمر الذي ساعده على استنقاذ نفسه من الهموم التي كابدها في السابق .

ففي الصباح كان يصحو على مكبر صوت المعسكر، وبعد ذلك بقليل يهطل أشبوب الخبز الذي يمثل مصدر الحياة بالنسبة اليه، كما تهطل شآبيب أخرى من الخبز خلال أوقات أخرى من نفس اليوم إلى درجة أنه لم يستطع أن يستهلكها كلها، بعد ذلك يتجه الصبي نحو حديقته مرورا بالمستنقعات المليئة بالأسماك الصغيرة، فيلتقط عددا من حبات الطماطم الطازجة ذات الرائحة الزكية ويتناول إفطاره بشهية عقب ساعات من الجوع يلي ذلك قضاء حوالي ساعة مع نباتات الطماطم حيث يتولى تشذيبها وإسنادها إلى أعمدة خشبية متى كان ذلك ضروريا، وهكذا يستجم بعض الوقت من خلال عنايته بحديقته الطبيعية وهي العناية التي لم تكن ضرورية، ولكنها كانت مهمة بالنسبة اليه لكي يستجم ويضمن الإنتاج الأفضل لنباتات الطماطم .

وبالنسبة لهذا الصبي الصغير الذي تعود على حياة الفاقة لم يكن سيئا الوضع الذي أصبح يعيشه في هذا المكان بحكم الضرورة، ولهذا كان مقر إقامته الجديد حلما مقارنة بالأوقات السابقة التي عاشها وقد كان يخشى دوما أن يتبدد هذا الحلم يوما ما . وهكذا مرت الأيام سعيدة بالنسبة للصبي لأنها لم تعكر صفوها أية مفاجآت سيئة ؛ إذ يبدو أن الأيام نفسها كانت تبحث عن واحة من السلام وقد وجدت ضالتها في هذا المكان، وقد واصلت الأيام باعتبارها بنات الدهر الطيبة دورتها سعيدة متناسقة تسير نحو اللامنتهى بخطى تعبر عن الخلود . وبعد أسبوعين من هذه الحياة الروتينية الصحية أبصر رمضان عقب تناوله الإفطار قاربا صغيرا على متنه رجلان يقترب من مقر إقامته بشكل مثير للقلق . اختبأ رمضان بسرعة داخل الفجوة التي يوجد بها سرير القش كي لا يراه الآخرون، ومن خلال فجوة صغيرة في مخبئه باشر يتابع حركة الرجلين سرا . لقد كان رمضان في وضع لا يجعله يشعر بالثقة تجاه الغرباء، وكانت ردة فعله التلقائية خلال موقف كهذا هي الاختباء حيث أن تجربة الحياة الماضية علمته بألا يثق بأحد، وكانت هذه هي الطريقة التي ارتأى من خلالها دفع الشرور عن نفسه . اقترب الرجلان بقاربهما حتى وصلا إلى ما يبعد حوالي أربعين مترا عن مكان اختبائه، وقذفوا في البحر بقطعة حديد ضخمة مربوطة بحبل يتصل بمقدمة القارب كي لا ينجرف هذا القارب خارج المكان الذي وصلاه، ثم هبط الرجلان من القارب حيث عمق مياه البحر يصل إلى ما فوق الركبة بقليل، وباشر الرجلان بالانحناء نحو البحر وهما - كما يبدو - يبحثان عن شيء ما، وبعد قليل نهضا وأيديهما مليئة بشيء ما قاما بإيداعه كيسا كانا يحملانه لهذا الغرض .

لاحظ الصبي كل ما يجري بسرية تامة من خلال الفجوة التي كان يختبئ داخلها ولكنه

لم يستطع أن يفسر ما هو الشيء الغريب الذي كانا يلتقطانه حين يجداه، لكنه لعدم ثقته تجاه الغرباء لم يتجرأ على الخروج من مخبئه مؤثرا الوحدة على مرافقة الأخطار . وبعد حوالي ساعتين من قدومهما سحب الرجلان قطعة الحديد أي المرساة التي ألقياها في البحر، وخلال دقائق قليلة غادر الرجلان مودعيّن هذا المكان، لكنهما استمرا يأتيان في نفس التوقيت تقريبا خلال الأيام اللاحقة والى ذات المكان حيث يقومان بنفس العمل الذي قاما به أول مرة . وبعد مرور عدة أيام أدرك رمضان أن هاذين الرجلين همهما الوحيد هو العمل الذي يقومان به وليس لديهما أي اهتمام بأي شيء آخر، ولذا تغلب في أحد الأيام على خوفه وعدم ثقته في الآخرين واقترب لكي يعرف عن كثب طبيعة العمل الذي يقومان به والذي لم يستطع له تفسيرا . وعندما بلغ حوالي اثني عشر مترا من مكان تواجد الرجلين لاحظ عن قرب أنهما يدخلان أيديهما في رمل البحر ويستخرجان الحجارة البيضاء ويودعانها الكيس .

لاحظ رمضان أن الرجلين يتوقفان أحيانا عن البحث عن هذه الأحجار ويقومان بالضغط عليها بأصابعهما فإذا بها تنقسم إلى جزئين ثم يأكل كل منهما بشهية واضحة ما يوجد بداخلها . لقد كانت تلك الأشياء التي تشبه الأحجار صدف البحر الذي تعود أهل ذلك المكان على صيده وهو من أفضل الأنـواع . قام رمضان بتقليد ما يقوم به الرجلان واستطاعت يداه الصغيرتان التقاط عدد من فواكه البحر هذه التي لم يكن يعرف عنها شيئا، ولكنه رغم ذلك قرر أن يجرب أكلها بالطريقة التي رآها فأخذها معه إلى مقر إقامته ووجد آلة حديدية ملائمة كانت في وضع جيد ومن خلالها استطاع أن يفتح إحدى الصدفات والتهم ما بداخلها بنوع من التردد في بداية الأمر، ولما وجدها طيبة المذاق قام بأكل الكثير منها . وهكذا كان حب الاستطلاع بالنسبة لرمضان نافذة استطاع من خلالها الحصول على مصدر جديد للطعام من أجل تنويع غذائه، ومنذ ذلك الحين لم تغب صدفات البحر عن مائدة رمضان لأنه أحب هذا النوع من الغذاء كثيرا، وابتكر أسلوبه الخاص في الحصول عليه حيث رجع إلى حيث يوجد مقر إقامته واختار من جبل المخلفات علبة صفيح فارغة وخلال فترة وجيزة استطاع ملأها بفواكه البحر اللذيذة، ثم خطر له أن يقوم بتخزين الفائض منها عن حاجته في أكبر مستنقع مجاور والذي يمر من خلاله أولا المد البحري، وهكذا ظن أنه حل لنفسه مشكلة تخزين الفائض من فواكه البحر، لكنه حين عاد إلى نفس المكان الذي أودع به هذه الفواكه البحرية بالمستنقع فوجئ بأنه لم يجد أيا منها ولم يستطع أن يفسر لنفسه لماذا اختفت كل الصدفات البحرية .

عندها قرر الرجوع إلى المكان الذي استجلب منه فواكه البحر وقام بملء صفيحة معدنية كبيرة منها، لكنه في هذه المرة لم يضعها في رمال المستنقع مثلما فعل بالأمس بل استجلب وعاءً به ثقوب وغرس الوعاء في الرمال بحيث يرتفع عشرين سنتيمترا عن قاع المستنقع وعندما يأتي المد البحري يجلب معه مياها متجددة من البحر باتجاه فواكه البحر التي تملأ هذا الوعاء الذي ملأه بالرمال حتى مستوى المياه، وبهذه الطريقة تبقى فواكه البحر في مكانها دون أن تتجرف بفعل حركة المياه مثلما حدث في المرة السابقة .

كل ذلك يدل على أن رمضان كانت لديه القدرة على الابتكار، وفي ضوء صغر سنه وقلة خبرته يتضح مستوى ذكائه العالي الذي مكنه من أن يتعامل مع الظروف التي واجهها، أم ان الحاجة أم الاختراع ؟ ومنذ اكتشافه لصدف البحر وابتكاره لطريقة حفظه طازجا أضاف لنفسه عنصرا غذائيا جديدا أسهم في تحقيق التنوع الغذائي لديه وأمد جسمه الصغير بما يحتاجه من الفيتامينات .

أما فيما يخص عنصر اللعب والترفيه لدى رمضان فقد توفر لديه شيء جديد يغالب به الساعات الطويلة التي يقضيها في العزلة منفردا ؛ فإلى جانب السمكات الصغيرة لاحظ رمضان من خلال فتحة في سور المعسكر أنه عند قيام الجنود بالرماية أثناء التدريب على السلاح يتركون خلفهم في ميدان الرماية كميات من الظرف الفارغ للرصاص أو الخرطوش، حيث يتسلل من خلال فتحة صغيرة في السور عندما يغادر الجنود المكان ويجمع لنفسه كميات من الخرطوش يعود بها إلى مقر إقامته لكي يتلهى بها، فهي مصنوعة من النحاس اللامع الذي لفت انتباه الصبي الصغير منذ الوهلة الأولى، وبهذه الطريقة استطاع أن يتغلب على الملل خلال الساعات الطويلة التي يقضيها منفردا . وبذا كانت ألعاب الصبي رمضان تتمثل في السمكات الصغيرة والخرطوش وبها استطاع أن يملأ فراغ أيامه في العزلة محاولا من خلالها أن يبعد عن ذهنه التفكير في الظروف الحزينة التي أوصلته إلى ما هو فيه .

بعد شهر من إقامته في هذا المكان لاحظ الصبي أن الرجلين اللذين كانا يأتيان في القارب لالتقاط صدف البحر لم يعودا يأتيان، وفي كل الأحوال فلقد عرف رمضان مكان جمع فواكه البحر ولم يهتم بموضوع الرجلين بل انه على العكس من ذلك أفرحه عدم عودتهما على الرغم من أن وجودهما كان بالنسبة اليه تعويضا بطريقة ما عن الرفقة التي كان بحاجة اليها لكنه آثر الوحدة لأن خبرته الشخصية علمته مدى الشر الذي يمكن أن تصل اليه النفس البشرية وهو ما جعله يفضل البقاء منفردا .

وهكذا مرت الأيام تلو الأيام في شريط زمني يعبر عن مستوى غير متناهٍ في طرفيه خالدا متناسقا لا يُعرف أين بدأ ولا أين ينتهي . وفي صباح أحد الأيام كان رمضان يلعب بالكومة الهائلة من الخرطوش التي تكونت لديه من خلال جمعه لها خلال الفترة الطويلة الماضية عندما تولدت لديه رغبة جامحة في أن يتحدث مع أيٍ كان . نظر حوله عله يجد انسانا ما ولكنه سمع أصواتا خافتة ولكنها رغم ذلك تسمع بوضوح وهو ما جعله يتحسس حوله مستغربا وخائفا في نفس الوقت لأنه لم يعرف من أين تأتي تلك الأصوات . بيد أنه بسبب الصمت الذي يخيم على المكان استطاع بعد برهة أن يعرف الاتجاه الذي تأتي منه تلك الأصوات . اقترب من سور المعسكر من خلال فتحة صغيرة لم يكتشفها من قبل حيث لاحظ وجود عدد من الجنود يجتمعون داخل قاعة حيث أدرك حينها أنهم كانوا مصدر الأصوات التي سمعها من بعيد . وعندما دقق الرؤية من خلال تلك الفتحة الصغيرة رأى جنودا إيطاليين وليبيين يجلسون على مقاعد مصفوفة بشكل دقيق وهم يتحادثون ويتناقشون فيما بينهم في جو من الارتياح، وكان إدراك الصبي لهذه الرفقة المفاجئة أمرا يشبه الحلم بالنسبة لفتى عصرته الوحدة .

وعندما كان الصبي يلاحظ هؤلاء الجنود . حيث كان ذلك نوعا آخر من الأساليب الجديدة لتمضية الوقت بالنسبة اليه . رأى أن جميع العساكر وقفوا فجأة في وضع استعداد وذلك لأن ضابطا إيطاليا يصحبه نائب ضابط ليبي دخلا إلى القاعة . وبعد قليل جلس العساكر من جديد حيث بدأ الضابط في توجيه كلمة للحاضرين لم يستطع رمضان أن يفهم منها الكثير لأنه لا يعرف سوى بعض الكلمات في اللغة الإيطالية، ولكن لحسن حظ الصبي مجرد أن أنهى الضابط الإيطالي كلمته بدأ نائب الضابط الليبي في الحديث باللغة العربية وهو ما جعل الصبي الذي تابع الكلام بكل انتباه يدرك الغرض من ذلك اللقاء الذي لم يكن سوى دروس في اللغتين الإيطالية والعربية حيث أن هذه الدروس بالشكل الذي شرحه نائب الضابط الليبي تتم بالتناوب بين فترتي الصباح والمساء بالنسبة للغتين معا، وأن مجال المشاركة في هذه الدروس متاح لجميع الجنود الراغبين في ذلك . لم يصدق رمضان ما رأى وسمع عندما اكتشف أنه بإمكانه المشاركة في هذه الدروس دون أن يكون مع العساكر . كان رمضان قد عرف أشياء بسيطة في القراءة والكتابة والرياضيات من خلال ما علمته إياه أمه العزيزة، ولم يكن يتوقع لنفسه أبدا أن يتاح له مجال تعلم المزيد من الأشياء خاصة وأن هذه الدروس إضافة إلى قيمتها التعليمية فهي تمثل نوعا من أنواع الإمتاع بالنسبة له والهروب من واقع الظلم والفقر الذي عاشه .

وعلى الرغم من أنه بدأ حضور هذه الدروس التعليمية من نقطة الصفر إلا أن تعلم لغة أجنبية بالنسبة للصبي كان أمرا جليلا يستطيع من خلاله توسيع معارفه وتطوير معلوماته القليلة حول اللغة الايطالية .

ومن خلال هذه الدروس استطاع رمضان أن يجمع لنفسه الرفقة والوحدة والاستفادة معا، ورغم التناقض الظاهري بين الرفقة والوحدة إلا أنه كان حقيقيا بالنسبة اليه الجمع بينهما . ومنذ ذلك اليوم انجذب رمضان نحو هذه الدروس التي شكلت متعة له خلال ست ساعات يوميا حيث استغرق وقت كل درس ساعتين يُقدم درسان في الفترة الصباحية ودرس واحد في الفترة المسائية وقد اختير توقيت الدروس على هذا النحو من أجل إتاحة الفرصة لجميع الجنود للمشاركة فيها أخذا في الاعتبار مواعيد مناوبة الحراسة بالنسبة لهم . لم يغب رمضان عن أي درس، وعلى الرغم من أنه لم يستطع فهم الكثير خلال الدرسين الأول والثاني إلا أنه منذ بداية الدرس الثالث استطاع بشكل أكيد استيعاب المعلومات التي تقدم .

كان رمضان يستيقظ صباحا كل يوم على مكبر الصوت الخاص بالمعسكر ثم يخرج من منتجعه ويغسل أطرافه على عجل مما يساعده على أن يصحو جيدا ثم يتناول طعام إفطاره الفاخر الذي يتكون من الخبز اليابس الذي يلتقطه من فوق الأرض وحبات الطماطم التي يجمعها من حديقته الطبيعية على ضفاف المستنقعات، واذا ما اشتهت نفسه فهو يتناول أيضا صدف البحر الطازج من النوع الفاخر، وبعد ذلك مباشرة يبدأ الدرس الأول الذي يستغرق ساعتين ثم يستأنف الدرس الثاني بكل حرص على ألا تضيع منه أية كلمة في أي درس مهما طال وقته وتلك كانت كلها قراراته هو يتخذها بنفسه ولنفسه، وعندما ينتهي الدرس الثاني يستريح قليلا مستلقيا في سرير علبة القش ومخزن المؤن الذي كان مكانا تعيسا مهما أطلق عليه من أسماء طيبة . لم يكن رمضان حقيقة متعبا بعد الدرس إلا أن المكان الضيق الذي كان يقبع فيه حين يستمع إلى الدرس كان يتطلب منه أن يمدد أطراف جسمه قليلا لكي تستريح أعصابه .

وعندما يعلن مكبر الصوت الخاص بالمعسكر موعد الغداء يخرج رمضان من سريره لكي يلتقط بعض قطع الخبز التي كانت تتساقط وقت الحاجة إليها، وبكل الارتياح يجلس على الصخرة المضيافة ويتناول طعام الغداء لكي يستطيع أن يعيش، وعندما تنتهي هذه المأدبة والتي تختتم عادة بصدف البحر وثمار الطماطم يشرب رمضان الماء الذي كان متوفرا له بشكل كافٍ، ثم يستلقي كما يفعل أولو النعمة، وعلى تمام الساعة الثانية من

بعد الظهر يبدأ الدرس الثالث والأخير لهذا اليوم أو ذاك حيث يتابعه رمضان وهو جالس على الأرض وبكل انتباه حتى نهاية الدرس . وعند انتهاء الدرس يذهب رمضان مثلما يفعل المجدون إلى المستنقع لكي يجمع بعض صدف البحر ثم يودعها في مخزن غذائه . وعقب ذلك يقوم أحيانا بجمع كميات من الخرطوش لكي يتلهى بها عند الحاجة . وعندما يحل الليل كان رمضان يتناول طعام العشاء دائما وهو راضٍ كل الرضا عن يومه التعليمي الذي قضاه، ومثلما يفعل كل الأطفال الأبرياء يخلد إلى النوم في سريره الذي يعتبره فاخرا .

وبعد مرور ستة أشهر على هذه الحياة الناعمة في هذا المكان الجديد وجد رمضان نفسه بفعل الدروس التي حضرها قادرا على الحديث باللغتين الايطالية والعربية بشكل شبه متعادل . لقد اصطنع لنفسه سبورة في مقر اقامته من خلال إحدى قطع الخشب الرفيع التي وجدها ضمن المخلفات، واستخدم قطعا من الجبس للكتابة على هذه السبورة مدونا فوقها بعناية الدروس التي حضرها وكأنه يكتب درسا في الإملاء . وهكذا انساب الوقت هادئا وكأنه مياه من نبع أبدي لا ينضب، لكنه ربما لا يكون كذلك لمن لديه معايير واحتياجات أخرى مثل رمضان الذي مرت عليه سنة كاملة وهو يقيم في ذلك المكان، فلا حرارة الشمس ولا عصف الرياح ولا برودة الشتاء ولا الأمطار جعلته يفكر في ترك مكان اقامته، إلا أنه في ليلة ليلاء هبت عاصفة قوية مصحوبة ببرق ورعد مزمجر قوي جعلته يشعر وكأن الدنيا قد أوشكت على نهايتها، وأصيب رمضان بهلع شديد حيث طوى جسمه الصغير وسط علبة القش، وأغمض عينيه بإحدى ذراعيه كي لا يرى وميض البرق الساطع الذي انبعث بشكل متوالٍ ولكن ذلك لم يخفف عنه شعوره بالخوف مما جعله خلال اللحظات الأكثر ذعرا يتوجه بالنداء إلى أمه العزيزة وكله أسى لأن والدته الحنونة في مثل هذه الظروف تحتضنه وتغمره بحبها ومثل كل الأطفال فقد دفع رمضان ضريبة الخوف من غضب الطبيعة، لكنه لحسن الحظ لم تستمر تلك العاصفة طويلا وبمجرد انقضائها استغرق في نوم عميق لم يعكر صفوه شيء حتى صباح اليوم التالي حين استيقظ كالعادة على مكبر الصوت الخاص بالمعسكر وعلى نور الشمس الذي انطلق ساطعا قويا يدمر بقايا الخوف الذي صاحب الليلة الماضية، وقد كانت تلك هي المرة الوحيدة التي شعر فيها بالخوف طوال إقامته في ذلك المكان لأن السنة الماضية كلها - فيما عدا تلك الليلة - مضت وهو في رغد من العيش على المستويين المادي والمعنوي وهو ما جعل وزنه يزداد بعد أن غادره الجوع وسوء التغذية حين حل بهذا المكان . كما أن مظاهر التوتر التي جلبها اليه الخوف والقلق قد اختفت هي الأخرى، إضافة إلى أن طول قامته قد زاد نسبيا، وهو

الأمر الذي كانت له بعض النتائج السلبية لأن قميصه الذي يحمله على ظهره أصبح لا يكاد يصل إلى ركبتيه، وهو ما جعله غير مرتاح لارتداء هذا القميص لا لمجرد أن القميص أصبح أصغر حجما بالنسبة لجسمه ولكن أيضا بسبب تمزق أجزاء من هذا القميص التي تهتكت أنسجتها بفعل التآكل مع مرور الزمن، بيد أنه في كل الأحوال فإن هذا القميص هو الوحيد الذي يملكه ولا يوجد لديه بدل له .

وفي إحدى الليالي رأى في المنام أمه وهي في حالة هدوء غريب وكأنها حية ترزق، رآها وهي تجلس بجواره وعيناه تحدقان بها وولد ذلك لديه شعورا بالغبطة مثلما يحدث عادة في الأحلام سمعها وهي تناديه بصوت حنون وهي تشير إلى شيء ما لم يستطع أن يراه جيدا في البداية ولكنه سرعان ما اكتشف أن هذا الشيء هو قميص جميل أكبر وأطول من القميص الذي يرتديه، ونسيج قماشه أكثر سمكا بشكل يقيه لفح الرياح الباردة . رأى في المنام أنه جرى لكي يعانقها، وعندما أدركها ونظر في وجهها رآها تبتسم له ابتسامة كلها حب وهي تقول : انظر، إن أمك تذكرك دائما وهي قد أحضرت لك هذا القميص الكبير والجميل والدافئ من أجل ألا يشعر إبنها الصغير رمضان أبدا بالبرد . وفي الحال خلع رمضان القميص القديم المهلهل والمتسخ والمشبع عرقا ولبس القميص الجديد حيث شعر بالدفء الذي أصبح يتسرب إلى كامل جسمه مشفوعا بهالة مقدسة من الحنان والحب كانت تملأ جسمه وتمنحه روح التفاؤل والقوة، وبشكل ما رأى شعاعا من النور يلج إلى جسمه يقشع عنه كل مظاهر التشاؤم والخوف ويمنحه السلام والأمن ويرفعه إلى مواطن المجد . عندها استيقظ رمضان ولكنه بقي مستلقيا لبضع دقائق وهو يتمتع بحلاوة الحلم ثم نهض بثقة وكأنه اكتسب قوة جديدة عاقدا العزم على جعل هدية أمه التي حلم بها في المنام حقيقة واقعة . من ذا الذي منحه هذه الثقة والقوة وذلك اليقين ؟ هل هو الحلم أم الحاجة أم الاثنان معا ؟ ليس من السهل معرفة ما كان يدور في ذهن ذلك الصبي الصغير مما دفعه إلى اتخاذ قرار سريع وحاسم .

وفي صباح ذلك اليوم تناول طعامَ إفطاره كالعادة، ولكنه هذه المرة كان يمتلئ عزما جديدا وكأن شيئا ما يدفعه بقوة إلى القيام بفعل سريع لا يحتمل التأجيل ثم نظر إلى المكان الذي كان يقيم فيه عاما طويلا في رغد من العيش وهناء ترعاه العناية المقدسة ثم عاد إلى نفسه لكي يدرك أن الشعور الذي تملكه ذلك الصباح كان شعورا مختلفا لأنه لم يكن موجها ضد شيء يتهدده بل كان أمرا غريبا في نفسه لم يستطع تحديد ماهيته، ولكنه في كل الأحوال يدفعه دفعا إلى القيام بفعل ما وبشكل عاجل . لقد كانت السنة

الماضية بالنسبة لرمضان فترة إعداد له لكي يستطيع مواجهة الأخطار التي كثيرا ما كانت تعترض طريقه . لقد قضى أكثر من عام في عزلة عن العالم الخارجي كانت فيه الوحدة والسكينة رفيقيه الدائمين اللذين ساعداه على استعادة توازنه الذي اختل بشكل مخيف بفعل النائبات التي أحلت به، بيد أنه الآن يجد نفسه أكثر يقينا وأكثر استعدادا لمواجهة العالم الخارجي من جديد .

لقد تعلم أشياء كثيرة خلال الفترة الماضية من خلال الدراسة المستمرة وعلى الأخص فإنه تعلم لغة جديدة أسهمت بشكل كبير في منحه شعورا بالثقة لأن تلك اللغة هي اللغة المتداولة رسميا في بلده . لقد شعر رمضان بأنه أُشبع وحدة وأصبح يرغب في العودة من جديد إلى ذلك العالم الذي كان يرفضه، ووسط هذا الشعور تبسم رمضان.



الفصل الرابع
اللقاء

بعد مرور عام على إقامته في ذاك المكان قرر رمضان عودا على بدء أن يرجع من نفس الطريق الذي أتى منه، حيث قفز فوق السور الصغير الذي لا يزيد ارتفاعه عن متر ووجد نفسه في ذات المكان الذي جرى فيه يوما وراء قطعة الخبز التي رآها تطير فوق السور في الهواء . كان صباح ذلك اليوم صباحا جميلا ليوم الأحد الذي كان عطلة لا تقدم فيه أية دروس، لكنه على أية حال تعلم الكثير خلال عشرة أشهر من الدراسة، كما أن استماعه المتكرر لأحاديث كبار السن جعل عقله أكثر نضجا وطور من أساليبه في التفكير حيث كانت أكثر عملية وأكثر يقينا على الرغم من أنه بحكم طبيعة سنه ظل يحمل بين جنباته روح الشباب .

وفي ذلك اليوم من أيام أواخر فصل الربيع حيث كانت درجة الحرارة معتدلة مصحوبة بريح خفيفة منعشة تحمل معها عبق البحر قرر رمضان مواجهة العالم الخارجي، حيث كان يرى أمامه الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر التي رآها من قبل ورأى اللافتة الكبيرة المعلقة التي أصبح بمقدوره الآن أن يقرأ ما هو مكتوب عليها، وأدرك الآن الأسباب التي جعلت الآخرين لا يجرؤون على دخول ذلك المكان، ثم انطلق بخطى سريعة واثقة في الاتجاه الذي قدم منه حيث وصل إلى النقطة التى انطلق منها، لكنه الآن لم يعد يحمل عقلية الأطفال، ولا يعيش الشهور الطويلة من الجوع والحرمان التي لازمته قبل قدومه إلى بنغازي، بل أصبح أكثر ما يشبه الإنسان البالغ حين قرر العودة إلى المكان الذي عاش فيه طفولته لكي يكتشف أن جميع الأشياء قد تغيرت في معالمها ومظاهرها، لكنه بالنسبة لرمضان الذي لا يعرف المدينة من قبل ولا يستطيع بالتالي إجراء مثل هذه المقارنة فكل الذي تغير هو مقدار طول قامته .

وعندما اتجه رمضان نحو الشارع الرئيسي بالمدينة جرى أول لقاء له بالعالم الخارجي الذي كان منعزلا عنه . التقى بطريق الصدفة رجلا يبدو في الأربعينات من عمره، كانت تبدو عليه علامات الثراء واستنتج رمضان أنه ربما يكون أحد سكان الدارات الفاخرة

التي تصطف على ضفتي الشارع الرئيسي . نظر ذلك الرجل إلى رمضان في البداية بنوع من الريبة والتوجس، لكنه استدرك وقام بنبذ الأحكام المسبقة ورأى أنه من غير اللائق أن ينظر شزرا إلى وجه ذلك الصبي الصغير في السن الذي لابد أن يكون مظهره البائس راجعا إلى ظروف حياة مأساوية جعلته يرتدي ذلك القميص المتسخ والمهلهل الذي بقي يلبسه على مدى عام كامل .

توقف الرجل خاصة عندما تحول ببصره من رؤية قميص الصبي إلى رؤية وجهه وعينيه السوداوين اللتين تشعان براءة وطهارة، واللتين تكادان تحكيان الكثير من الأشياء بأفضل ما يكون الحديث . رأى الرجل وجها شاحبا لا بفعل رذيلة ارتكبها الصبي بل بفعل الفاقة . كان جسم الصبي إجمالا يعبر أفضل ما يكون التعبيرعن العوز والحاجة التي بدت بشكل طبيعي كله براءة وليست بالشكل المبالغ فيه أو المصطنع الذي يعمد اليه الشحاذون من أجل استدرار عطف الآخرين عليهم . كان واضحا أن هيئة الصبي تدعو الآخرين إلى الاهتمام بشأنه لأنها تلك الهيئة التي تقبل الفقر بتعفف ولا يسمح لها الكبرياء أن تنحني أو تخضع لأحد . لقد كان الفقر بالنسبة لرمضان شيئا آخر غير الفقر، كان فقرا جميلا صابرا يعانق البراءة . لم يكن رمضان يعرف شيئا اسمه الفقر، ولم يدر بخلده التفكير في هذا الأمر لأنه كان ينعم بالبراءة ولم يدر ما هي الأشياء الأخرى التي تنقصه، بل على العكس من ذلك رأى نفسه حرا ومعتمدا على نفسه . عالم رمضان يبدأ به وينتهي به، ولم يكن هناك مجال لكي يقارن نفسه بآخرين، ولم يكن يعلم أن عددا قليلا من الناس يشاطرونه نفس تلك الأفكار والمشاعر . لم يكن رمضان ينتمي إلى أية طبقة اجتماعية . كان حرا في جميع مشاعره لأنه يشكلها بنفسه ولا يشكلها له الآخرون وليس لهم أي تأثير في تكوينها . لقد كانت رؤية رمضان للأمور في مجملها تتكون من شخصه هو مقابل العالم الخارجي، وهو ما استشعره ذلك الرجل عندما التقت عيناه بعيني رمضان . كان ذلك الرجل يحمل قلبا طيبا ومشاعر فياضة، وبالتالي لم يكن محتاجا إلى تفسير شعوره بالانجذاب نحو الصبي رمضان . لم يكن محتاجا لمعرفة أسباب ذلك الانجذاب وهو يرى بأم عينيه براءة الطفولة ونقاءها وطهارتها في أسمى معانيها .

مد الرجل يده نحو الصبي وربت بها على رأسه مداعبا شعره المجعد، وبابتسامة لطيفة سأل الصبي إن كان يتكلم الايطالية، وحين أومأ الصبي بالإيجاب أُسعد الرجل كثيرا لأنه لم يكن يتكلم العربية وبالتالي لم يكن ليستطيع التواصل مع الصبي الذي شد كامل انتباهه معرفته الجيدة باللغة الايطالية . سأل الرجل : ما إسمك ؟ وأجاب الصبي

: إسمي رمضان . ثم سأل الرجل الصبي عن والديه فأجابه بحسرة وألم إنه أصبح يتيما بعد وفاة والديه .

حينها أدرك الرجل الأسباب التي جعلت الصبي يبدو على الوضع الذي هو عليه، ولذا بادر الصبي بالقول : تعال معي إلى بيتي لكي أعطيك شيئا ما، ثم أضاف بصوت خافت يستذكر بقايا الماضي الحزين : أتدري أنه كان لي ولد مثلك ؟ لقد كان صوت ذلك الرجل بمثابة إعصار من الآلام التي لم تمت أبدا ولم تنته وكأنها جرح غائر لم يلتئم أبدا لأنه قابل للنزف من جديد مع أي خدش مهما كان طفيفا . كان ألم الرجل لا يعكس شيئا حديث العهد بل شيئا سابقا في ماضي الزمان، ولكنه لا يزال كامنا حيا يلازمه سواء تحدث أم صمت .

« نعم، كان لي ولد مثلك تماما وقد توفي منذ وقت طويل، لكن أمه وأنا نذكره دائما لأننا أصبحنا بعده نعاني الوحدة . إننا مثلك تماما لا نملك غير أنفسنا، وهو أمر محزن لنا جميعا . تعال معي إلى بيتي لكي أعطيك شيئا ما .» قال الرجل ذلك بصوت تعصره ذكريات الماضي الحزين وشعور بالضياع لم يتمكن من التغلب عليه . مشى الرجل يتبعه رمضان إلى أن وصلا إلى ثالث منزل في يمين الشارع الذي ينطلق من الجسر . دفع الرجل بيده الباب الخارجي للمدخل حيث توجد حديقة صغيرة بشكل يماثل باقي المنازل المجاورة . كان رمضان يسير خلف الرجل وكأنه صديق قديم له، وهو شعور ليس مدفوعا بالحالة المزرية التي كان عليها رمضان بل بشعور داخلي يربطه بهذا الرجل الصريح ذي النظرة المشبعة بالدفء الإنساني .

نادى الرجل زوجته قائلا : ماريا، ماريا وهو الاسم المشترك بين الايطالية والعربية، أي بين ماريا ومريم، وقد اندهش رمضان كثيرا لأنه لم يسمع اسم أمه مريم منذ أمد طويل !

وبعد برهة قصيرة فُتح باب المنزل وفي فتحة الباب بانت امرأة تبدو في الخامسة والثلاثين من عمرها، لها قوام أنيق ونحيف، وشعر كستنائي قصير يتدلى حول عنقها ووجهها البيضاوي ذي الملامح الرقيقة الرائعة، ولها عينان شديدتا الزرقة تشعان نورا وجمالا روحانيا نادرا . كانت ملابسها غاية في البساطة، ولكنها لا تخلو من أناقة، وينبعث من هيئتها شعور بالطمأنينة ورقة المشاعر والحب بأسمى معانيه الإنسانية . لقد شعر رمضان بالألفة والمحبة العميقة تجاه هذه المرأة ذات الروح الإنسانية التي تأسر كل من يراها .

تفاجأ رمضان بسماع اسم المرأة وبرؤيتها ومكث مشدوها لأنه رآها تجسد كل الروحانية والمحبة لكن اسم أمه يذكره أيضا بالألم الشديد الذي يعتصره في ماضي الزمان وحاضره ويجعله مرتبكا منعقد اللسان . نظرت اليه المرأة فاغرورقت عيناه بالدموع ؛ دموع من نار وألم دفين ينبعث من جرح غائر لم يندمل . نظر رمضان إلى هذه المرأة وأخذ يجفف دموع عينيه الحزينتين في سكون . لم يجهش رمضان بالبكاء مثلما يحدث عندما تلم بالمرء حادثة مفاجئة، لكنه بقي يبكي في صمت بفعل مشاعر الألم التي تعصف بماضٍ وحاضر حزينين . لقد كانت تلك المرأة لاعتبارات عدة تشبه أمه، وقد أثارت رؤيته المفاجئة لها مشاعر عنيفة وعميقة لديه جعلته يبكي روح أمه التي بدت وكأنها بقدرة قادر تقف حية جميلة أمامه . هكذا كان مشهد ثلاثة آدميين وكأن القدر قذف بهم شتاتا على وجه البسيطة ثم جمعتهم الأقدار لكي يعيشوا لحظات على مسرح الزمن ينظر كل منهم إلى الآخر دونما حراك وكأن كل واحد منهم يعيش وسط فراغ يلتف حوله ويجعله قطعة من العدم .

كانت المرأة أول من استطاع الخروج من حالة الجمود هذه، ومن خلال قدرتها على التقمص الوجداني استطاعت أن تدرك أن ذاك الألم والتوتر اللذين شعر بهما الصبي لابد أن تكون لهما أسباب وبواعث إنسانية عميقة ومؤلمة .

انطلقت المرأة نحو الصبي بخطى سريعة رغم مظهره البائس الذي يكاد يكون مثيرا للاشمئزاز وربتت على جسمه بكل حنان وبرقة مطلقة وكأنها كانت تخشى له أن يتأذى، وكان ذراع الحنان الدافئ الذي امتد إلى رمضان هبة من المحبة تخفف عنه الآلام التي كابدها، وهو ما كان يحتاجه رمضان فعلا من أجل أن يستمر تماسك عزيمته القوية . تولد لدى المرأة وهي تربت بيدها على جسم رمضان شعور غريب وكأن هالة مقدسة تحيط بالصبي وتتلاشى تدريجيا حين الابتعاد عنه . كانت لحظة غير متناهية من هذا الشعور الغريب داخل وجدان المرأة وخارجه . نظرت المرأة إلى الطفل عندما شعرت بأن جسمه يرتعش، وطفقت تربت على جسمه بقوة، وأدار الصبي وجهه إلى أعلى نحوها، وكانت نظراته اليها أشبه ما تكون بقصيدة شعر، بل أشبه ما تكون بمن خرج لتوه من محرقة الموت الجماعي مستسلما للأقدار لأنه لم تبق لديه أية قوة أو مقاومة، وأسلم نفسه كلية للمحبة التي رأى المرأة تغدقها عليه . لقد استشعرت المرأة خلال لحظات حجم المأساة التي أحاطت بهذا الصبي الصغير ذي النظرة المشعة الجميلة والبريئة، وتعاطفت معه بعد أن تحولت شكوكها حول المصائب التي تعرض لها الصبي إلى حقائق أكيدة .

وإذا كانت تلك المرأة تذكر الصبي بأمه فإن الصبي ابن الصحراء يذكرها بابنها الذي فقدته . لقد كانت تلك المصادفة الغريبة مبعثا لتقاربهما أقوى من أية روابط أخرى . وعندما تطلع الصبي بنظراته إلى المرأة تذكرت ابنها المسكين عندما كان يجري مندفعا نحوها وعيناه مبللتان بالدموع إثر أدنى مشكلة تواجهه طالبا مساعدتها وتهدئتها له .

مد رمضان ذراعيه نحو المرأة التي احتضنته بقوة وهي ترى فيه شبه إبنها المفقود، ولقد كانت لحظة عاطفية قوية جعلت المرأة تجهش بالبكاء، بكاء مدفوع بالمحبة والتخليد العاطفي لأبنها والألم لفقدانه، وامتزجت دموعها على وجه الصبي بدموعه هو، وكان التوحد العاطفي بين المرأة والصبي توحدا مدفوعا بإرادة سامية ؛ إنها إرادة الله .

بقي الصبي وكذلك المرأة للحظات ساكنين دون أن يبادر أي منهما بالحركة أو الحديث . بقيا هكذا وكأن مسار الزمن قد توقف للحظات أو كأن إرادة السماء رغبت في تجميد هذه اللقطة الممتعة التي شكلها الصبي والمرأة وإسباغ صفة الخلود عليها . شكل الصبي والزوجان جزيرة منعزلة لا مجال فيها للإزعاج صوتا أو ضوءا لأنهم كانوا أرواحا شعرت أنها اهتزت فرحا وكأن كلا منها كانت دوما تبحث عن الأخرى، وأنها أخيرا وجدت لنفسها لحظة تجلٍ نحو الخلود . نظر الزوجان كل منهما إلى الآخر وكانت نظراتهما أبلغ من أي كلام بل وكأن نهرا من الكلمات الصامتة يتدفق بينهما حيث كانت كلمات أكثر تعبيرا من أي حديث معلن لأنها كانت تنبع من الوجدان ولم تكن مجرد حديث عابر متبادل . ما جرى كان يمثل تمازجا روحيا تفجر نورا وحبا من أعماق قلوبهم مثلما يتفجر النبع، وأمسك الزوجان الصبي من يديه وكأنهما اتفقا مسبقا على القيام بذلك وقاداه نحو مدخل المنزل الذي بقي بابه مفتوحا خلال تلك اللحظات ثم جلس الأصدقاء الثلاثة حول منضدة صغيرة توجد بالصالة حيث أحاطت المرأة عنق الصبي بذراعها من أجل إشعاره بقربها منه وبقي جميعهم يتبادلون النظرات باندهاش مبعثه تلك الحالة النادرة التي وحدت بينهم بمحض الصدفة وبهذه الكيفية الغريبة .

وبعد أن جلس ثلاثتهم التفت الرجل إلى زوجته قائلا لها : « اسمه رمضان، ويتكلم الايطالية بشكل جيد جدا . « فأجابت المرأة قائلة : « ذلك أمر رائع لأننا لسوء الحظ لا نعرف أي كلمة باللغة العربية وبالتالي سيكون صعبا علينا التفاهم مع رمضان بهذه اللغة . « وسرعان ما سأل الزوج رمضان : « أين تعلمت لغتنا أيها الصبي الصغير ؟ « لكن رمضان لم يستمع إلى السؤال لأنه كان لا يزال يتعافى من الصدمة العاطفية التي ألمت به عند لقائه بتلك السيدة الفاضلة التي أدركت حال الصبي الذي أصبح فجأة محور اهتمام ومحبة فأعادت

طرح السؤال عليه مع تربيتة خفيفة على جسده . حينها استعاد رمضان توازنه العاطفي قليلا بفعل النظرات الحنونة لتلك السيدة ذات القلب الرحيم، وأعانه الدفء الإنساني الذي شعر به بقربها منه وتربيتها عليه على أن يسرد بسهولة وعلى مراحل كل المأساة التي تعرض لها أمام الزوجين الطيبين اللذين يمتلئ قلباهما محبة تجاهه .

استمع الزوجان إلى الصبي وكأنهما يعيشان حلما ؛ إذ لم يخطر ببالهما أن صبيا ما يمكن أن يعيش مثل تلك الظروف الحزينة وبدا لهما وكأنهما يستمعان إلى قصة من قصص الخيال وليس إلى حكاية حقيقية مليئة بالغرابة والقسوة على طفل صغير . كان الزوجان يستمعان إلى الصبي وهو يحكي قصة حياته المليئة بالقسوة، وكانا يسترقان النظرات بينهما دون أن يشعر بذلك الصبي، وعندما يأتي الصبي على ذكر حادثة أكثر إيلاما من سابقاتها كانت الدموع في عيونهما تعكس إشعاع نور المنزل مما حدا بالزوج إلى إعطاء إشارة إلى زوجته سرا بضرورة أن يتماسكا في عواطفهما من أجل عدم إلحاق المزيد من الألم بالصبي الصغير الذي عانى ما كفاه من المآسي . وعندما انتهى الصبي من سرد حكايته استجمع الزوج قواه العاطفية من أجل وضع حد للأحاديث المأساوية وقال بشكل مرح : « دعونا نخرج من هذه المسائل الأليمة، كفانا استماعا للشئون الحزينة ولنبدأ منذ اللحظة حياتنا بطريقة مختلفة . « هكذا كان المخرج الذي اختاره ذلك الزوج ذو القلب الحنون ثم استطرد قائلا : « إذا كان القدر قد جمع بيننا فإنه من واجبنا نحن أن نعرف كيف نرتفع بأنفسنا إلى مستوى المسئولية من أجل أن نعيش حياة أفضل يشعر بمتعتها كل واحد منا . « ثم التفت إلى الصبي ومن أجل طمأنته قال : « أنا اسمي ماتيا ديستتسي وزوجتي اسمها ماريا سارا، وبامكانك أن تنادينا بالطريقة التي تريدها وتراها أنسب بالنسبة اليك . « ثم التفت الرجل إلى زوجته وقال : « لماذا لا تأخذين رمضان إلى الحمام من أجل أن يغتسل ثم احضري له ملابس من تلك التي توجد لدينا منذ زمن طويل ؟ « ثم أضاف :»إنه الوقت الأمثل للقيام بذلك .» وعلى إثر سماع الزوجة لهذا الحديث أجابت بأنها ستقوم بذلك بكل رحابة صدر ثم أخذت الصبي من يده وسارت به في اتجاه الحمام حيث ملأت الحوض بالماء الساخن وأخبرته كيف يتصرف بشأن استعمال الحمام لأنها قدرت أن الصبي لم يسبق له أن رأى حماما من قبل، وقد كان تقديرها صحيحا بالكامل، ثم غادرت إلى غرفة أخرى لكي تحضر له ملابس يرتديها بعد الغسل، وبعد إحضارها لهذه الملابس عادت إلى الصبي الذي استمتع بلحظات جميلة من النظافة الكاملة باستعمال الاسفنجة ثم مالت نحو الصبي ولفت جسمه الذي كان يقطر ماءً

بمنشفة وربتت على جسمه بلطف ثم قادته إلى غرفته حيث كانت قد أعدت له كل الملابس التي يحتاجها ووضعتها فوق السرير من أجل أن يرتديها .

كانت المرأة تتعامل مع رمضان بشكل طبيعي لأنها كانت ترى في هذا الصبي الذي عضه الدهر بنابه ابنها الفقيد، كما أن الصبي كان يتعامل معها بكل عفوية لأنه رأى فيها أمه . لقد دهشت المرأة إزاء المعجزة التي رأتها وهي أن الصبي أعطاها كامل ثقته، وكانت دهشتها كبيرة لدرجة أنها لم تستطع أن تعبر عنها بلغة الكلام، وكأن لسان حالها قد انعقد وأصبحت حنجرتها غير قادرة على إصدار أي صوت .

وعندما لبس رمضان ثيابه الجديدة وجد أنها كانت على مقاس جسمه تقريبا، وكانت تتكون من قميص وسروال وحذاء، وبدا رمضان بهذه الملابس وكأنه شخص آخر غير الشخص الذي دخل إلى المنزل قبل قليل . نظرت ماريا إلى رمضان ثم أمعنت فيه النظر فامتلأت عيناها حرقة ودموعا حاولت بكل جهدها كتمانها كي لا تعيد حالة الحزن إلى الصبي، وهكذا خرج رمضان من طور حياته السابق وهو طور البؤس والتعاسة وبدا صبيا رائعا لا تبدو عليه أية ملامح بائسة لأن نظراته كانت صادقة ثاقبة رغم أن الحزن كان لا يزال يلفها قليلا ولكن بدرجة تكاد تكون غير ملحوظة خاصة وأن ابتسامة خفيفة جملت شفتيه اللتين لم تعرفا الابتسامة منذ زمن طويل .

وعندما انتهت المرأة من إلباس الصبي أمسكت بيده ومضت به إلى حيث يوجد زوجها لكي تريه رمضان بهيئته الجديدة . فتحت الباب ثم انحنت قليلا بشكل مسرحي قائلة لزوجها : « أقدم لك السيد رمضان - الطبعة الجديدة ! »ولقد أُذهل الزوج إزاء ما رأى وتملكته مشاعر قوية كادت تكتم أنفاسه . حاول قدر ما استطاع كتمان هذه المشاعر، لكن وقع المشهد على نفسه كان عظيما لأن ارتداء رمضان للابس ولده الراحل جعل الشبه كبيرا جدا بينه وبين رمضان، وذكره بالأيام الخوالي حينما كانت زوجته تلبس إبنه الفقيد وتأتي به إلى أبيه استعدادا للتنزه في المدينة عند المساء . حاول الزوج أن يغالب مشاعره وآلامه كي لا يبدو في موقع الضعيف، وأدركت الزوجة متأخرا الوقع المؤلم للمشهد على زوجها فاعتذرت من زوجها والدموع تملأ عينيها ثم قالت : « كان يجب علي ألا أقوم بما قمت به وهي تعني الأسلوب الذي قدمت به رمضان إلى زوجها . حاول السيد ديستنسي ألا يترك الفرصة لمشاعره الحزينة أن تسيطر عليه فتقدم نحو الصبي والحسرة لا تزال تغمره ووضع يديه في ابطي رمضان ورفعه إلى أعلى في مستوى رأسه وكأنه يريد أن يراه جيدا عن قرب ثم قال بصوت عالٍ حاول من خلاله إخفاء مشاعر الحزن لديه : « يا رباه

! يبدو أنك أصبحت رجلا يا رمضان ! كم أنت جميل ! » ثم قام بانزال الصبي إلى الأرض وأضاف : « هيا بنا إلى غرفة الأكل فلاشك أن السيدة ماريا ستقوم بإعداد إفطار شهي لنا ... ماذا تقولين يا ماريا سارا ؟ لابد أنك توافقين على ذلك ! » وأجابت الزوجة : « بكل تأكيد، سأقوم بإعداد الشيكولاته الساخنة مع البسكويت والزبدة والمربى . سترى كم هو رائع سيكون إفطارنا . » ثم بدأت تجهز منضدة الأكل بكل المستلزمات الضرورية للإفطار وخلال دقائق كان كل شيء جاهزا .

أما رمضان فقد أدرك عند رؤيته لمنضدة الأكل أن الملاعق والشوك والسكاكين التي توجد فوقها لا معرفة له بطريقة استعمالها ثم أبلغ المرأة بذلك صراحة وبكل براءة وارتباك حيث قامت بالتربيت على ظهره وطمأنته قائلة له أنه لا يوجد أمامه شيء صعب في تعلمه لأنه يكفي أن يباشر الأكل بهدوء، وأن يلاحظ الطريقة التي يأكل بها الآخرون من أجل أن يحذو حذوهم وهي طريقة يمكن له استخدامها دوما عندما يجد نفسه في لقاءات مشابهة وتتمثل في أن يلاحظ الآخرين وأن يحذو حذوهم، وهكذا يبعد عن نفسه مشكلة الوقوع في الخطأ . بيد أنه بالنسبة للصبي لم يكن الأمر بتلك السهولة خاصة وأنها المرة الأولى التي يجد نفسه في مثل هذا الموقف لأنه لم يتعود أبدا أن يجلس على كرسي ليأكل ناهيك عن استخدام الشوك والسكاكين والملاعق، وفي كل الأحوال فقد كان الذكاء الحاد الذي يتمتع به الصبي أداته لكي يتعلم في لحظات أشياء يحتاج غيره إلى زمن طويل لتعلمها، كما أنه كان يتمتع بالنظرة الحنونة لتلك السيدة التي كانت توضح له الأشياء بالإشارة وبابتسامة عريضة على محياها، وقد كان ذلك مرشدا كافيا له ليتعلم .

كان طعام الإفطار بالنسبة للصبي شيئا جديدا لم يطعم مثله أبدا من قبل، ولكنه وجده طيبا حلو المذاق . وعند الانتهاء من طعام الإفطار سُمع صوت طرق على باب المنزل . لم يكن الطرق بالأسلوب الذي عهده الزوجان بالنسبة للفقراء طالبي الحاجة، لم يكن طرقا اعتياديا مثلما يحدث عند قدوم ضيف، أو الطرق الهادئ الذي يحدثه الأصدقاء عند قدومهم للزيارة، بل كان طرقا عنيفا ينم عن الشر والاستعجال وينذر بالعنف وسوء العاقبة، وباختصار كان نوعا من الطرق ممن لا يتمنى أحد سماعه على باب بيته .

نهضت السيدة ماريا سارا من مكانها مشيرة إلى زوجها أنها تطلب الاذن في أن تقوم بفتح الباب دون أن تسأل عن هوية الطارق الذي كان أسلوب طرقه للباب ينم عن حالة استعجال وعندما فتحت الباب دخل ثلاثة رجال إلى المنزل بشكل اعتيادي وكأنهم أصحابه، قام أحدهم - الذي يبدو أنه رئيس المجموعة - بتوجيه السؤال إلى السيد ديستنسي الذي

بقي جالسا بجوار رمضان : « هل أنت ماتياس ديستنسي، وهل هذه زوجتك ماريا سارا ديستنسي ؟ « قام بطرح السؤال من باب الروتين الإداري وليس من باب التأكد من هوية الزوجين . كانت الزوجة تتبع الرجال الثلاثة وكلها حيرة وتفاجؤ واستغراب بشأن تدخلهم في شئون المنزل بطريقة تكاد تمثل انتهاكا لحرمة البيت . وعندما تلقى رئيس المجموعة إشارة بالإيجاب بشأن السؤال الذي طرحه، استطرد قائلا بصوت واضح وأجش : « أبلغكما بأنكما رهن التوقيف بسبب تآمركما ضد الحزب ومصالح الأمة . لدي أوامر محددة بتسفيركما إلى روما وسوف نأخذكما معنا على متن الباخرة التي تغادر إلى هناك هذه الليلة . أنصحكما بألا تصدر عنكما أية مقاومة ضد أمر القبض لأنه إذا حدث ذلك فإن وضعكما سيزداد سوءا، سواء بالنسبة للزوج أم الزوجة . «

مكث الزوج جامدا في مكانه بضع لحظات بفعل هول المفاجأة ثم نهض من مكانه تراقبه عيون رجال الشرطة السياسية، واقترب من زوجته مربتا على ظهرها في محاولة لمواساتها بعد أن رأى الدموع تسيل على خديها وهي في حالة صمت حزين ثم قال لها : « لا تحزني يا ماريا سارا، سترين أنه لن يحدث لنا شيء لأن ضمائرنا نظيفة وليس لدينا ما يسألوننا عنه، سينتهي الأمر وكأنه زوبعة في فنجان وأنا متأكد من ذلك . « اتجه الزوج بعد ذلك إلى الشخص صاحب الصوت الأجش الذي كان يبدو أنه قائد المجموعة وقال له : « أود أن أحصل على تفسير لهذا التوقيف الذي يأتي دون سابق إنذار وبشكل يمثل سوء استخدام للسلطة . « لكن هذا الشخص لم يكن يبدو أنه كان يعرف أسباب توقيف الزوجين في مثل هذه الظروف، ولكي يخفي جهله بالأسباب لجأ إلى العناد ورد بأسلوب جاف قائلا : « لدينا أوامر عليا بذلك ونحن سننفذها مهما كلفنا ذلك من جهد، وهذا هو كل ما هو مسموح لي أن أقوله لك حول الموضوع .» ثم استطرد في الحال بعد أن شعر أنه أصبح أكثر ثقة بنفسه قائلا : « يمنع عليكما لمس أي شيء من محتويات المنزل . عليكما أن تأتيا معنا بالشكل الذي أنتما عليه الآن، وكل المحتويات ستبقى تحت الحراسة، وعندما نخرج من المنزل سيتم تشميع الباب بعد إغلاقه . « وعلى إثر ذلك قام الرجال الثلاثة بتفتيش سريع للزوج، وكان التنازل الوحيد الذي قدمه هؤلاء الرجال هو قبولهم بأقوال الزوجين بأن الزوجة لا تحمل أي سلاح أو أي شيء آخر قد يعرض أمن الرجال للخطر . وبهذا كان عدم تعرض الزوجين للإهانة الشيء الايجابي الوحيد الذي بدا من هؤلاء الرجال المتنفذين أولي السلطة .

وبعد قليل قام رئيس المجموعة وكأنه يلاحظ لأول مرة وجود الصبي رمضان بطرح

سؤال عمن يكون هذا الصبي وما الذي يفعله بالبيت، لكن السيدة ماريا سارا التي كانت في تلك اللحظة تقف بجوار الصبي وكأنها تريد أن تحميه من الخطر الذي يمثله رجال الشرطة السياسية أجابت بشكل واضح وهي تمسح بذراع الصبي بطريقة بدت وكأنها تريد أن يوافقها الصبي فيما سوف تقوله عنه قائلة : « إنه إبن إحدى جاراتنا، فكما تعلمون نحن ليس لدينا أبناء ولذلك يتيح جيراننا الفرصة من حين لآخر لأبنائهم لزيارتنا لقضاء بعض الوقت معنا، وعلى أية حال فقد كان على وشك المغادرة عندما جئتم . »

أما رمضان فقد توجس خيفة من هؤلاء الرجال منذ قدومهم، وتوقع حضور الشر معهم، ولم يكن مخطئا في ذلك ؛ فقد كان الصبي يمتلك حاسة سادسة اكتسبها خلال الزمن الطويل من التعاسة بحيث أصبح يستشعر قرب حدوث المخاطر، الأمر الذي جعله شاحبا منزعجا إزاء هذا الأمر الأليم الذي جلبه هؤلاء الرجال الأشرار معهم بشكل مفاجئ ودون سابق إنذار . وفي الحال نظر رئيس المجموعة صاحب القلب الأسود شزرا إلى رمضان وأمره بالخروج والعودة من حيث أتى، لكن الصبي بقي حائرا لا يدري ما يتوجب عليه فعله مما حدا بالسيد ماتيا إلى التدخل وإخراجه من حيرته حيث أمسك به من يده وتوجه به إلى باب الخروج وتبعه رمضان مترددا ثم التفت بسرعة إلى السيدة ماريا سارا فوجدها شاحبة اللون وعيناها مبللتان بالدموع وبحركة مفاجئة وغير متوقعة فك يده من يد زوجها وجرى نحوها وعانقها بحرارة حيث ضمته إلى صدرها بقوة وبصبر على المصائب وبحسرة على ما جرى . بكى الاثنان بلوعة يجسدها حزن مزدوج : حزنها لفقدانها ابنها وحزنه لفقدانه أمه . وقف جميع الحاضرين مشدوهين لبضع لحظات إزاء رد الفعل المفاجئ للصبي لكن المرأة لاحظت فيما بعد أن رئيس المجموعة أصدر إشارة تنم على نفاذ صبره إزاء ما يحدث فربتت على ظهر رمضان بيديها وقالت له بصوت هادئ وخافت :

« اذهب يا صغيري، كان الله في عونك . كان جميلا أن نلتقيك، لكن القدر أراد أن يفرق بيننا، لا يجب علينا أن ندع ألم الفراق يسيطر علينا، بل يتوجب علينا أن نشكر لله اللحظات الجميلة التي جمعتنا، وهذه اللحظات هي التي يجب علينا أن نذكرها وليس أي شيء آخر غيرها . » قالت المرأة ذلك ثم ابتعدت عن الصبي الذي أصبح أكثر يقينا وشجاعة ولكنه أقل استعدادا للانفصال عنها لأنه قدر أنه سوف لن يراها بعد ذلك أبدا .

حينها بادر السيد ماتيا مرة أخرى بأخذ الصبي من يده وصاحبه إلى باب الخروج قائلا له بصوت منخفض : « يا بني، إننا سنغادر إلى مكان بعيد، ولكن من يدري ربما

يجمعنا القدر مرة أخرى يوما ما . تذكرنا دائما مثلما أننا سوف نتذكرك أبدا . « وبابتسامة حنونة ودعه إلى خارج المنزل . لقد كانت تلك الابتسامة ابتسامة حزن ومرارة وألم تخفي تحتها مشاعر البكاء إزاء سخرية القدر التي عبرت عن شر البلية بابتسامة باهتة . خرج رمضان من البيت وقلبه يكاد ينفطر ألما، ويدق بصوت عالٍ كأنه صوت طبل . لم يلتفت إلى الخلف لأنه لا يريد أن يرى الزوجين يبكيان . سار قدما إلى الأمام كي لا تتعثر خطواته، وعندما وصل إلى مفترق الطرق استند بجسمه إلى الحائط راغبا في أن يرى ماذا حل بصديقيه اللذين فقدهما للتو حيث لاحظ أن رجال الشرطة أو المباحث أو الشياطين يخرجون مصحوبين بالزوجين الطيبين، ويودعونهما في سيارة كانت واقفة قريبا من باب المنزل، وخلال لحظات قليلة أقلعت السيارة ومحركها يدوي بأعلى صوته، وبدا لرمضان أن الزمان قد توقف وكذلك الصوت والضوء والحركة . بدا كل شيء ساكنا لدرجة أنه لم يعد يعرف كم من الوقت قضاه لدى هذه الأسرة . لم يعد يسمع أو يرى لأنه لم يعد يشعر بما يجري حوله، بل أصبح يشعر مجددا بأنه لا شيء ؛ بأنه ذاب وسط اللامنتهى، بأن لا شيء يوجد أمامه سوى اللاوجود، سوى الفراغ والعدم والنهاية . لم يعد يشعر بأي ألم، وبقي على هذه الحال إلى أن جلجل صوت المدفع معلنا منتصف النهار . انزعج رمضان من صوت المدفع، ولكنه لم يعد بعد إلى رشده، لكن بحكم السليقة سارت قدماه تلقائيا إلى المخبأ الذي كان يقيم فيه، وألقى بجسمه منبطحا في سرير علبة القش ليس له رفيق سوى النحيب الذي كان عزاؤه الوحيد وسط المرارة والشعور باللاوجود .

لقد سادت الفوضى العقل الصغير وقادته أكثر من أي وقت مضى إلى الشعور بالفراغ والى الأوضاع التي كان يخشى دوما أن يجد نفسه فيها . كانت عيناه مفتوحتين ولكنه لا يرى ما يدور حوله من أشياء . كان اختلال توازنه الوجداني عميقا لدرجة إلغاء عمل كل حواس جسمه . لم يعد عقله قادرا على التفكير، بل قل لم يعد له عقل على الإطلاق . كان أشبه ما يكون بنقطة معلقة في اللاشيء ولكنها موجودة .

وشيئا فشيئا أقبل الليل ممسكا العتمة من يدها وكأنه يخشى لها أن تتوه، ويتقدمان سويا في مسار الزمن نحو اللانهاية حيث تلقي العتمة تدريجيا بمعطفها الأسود على الأشياء تتخلله بعض بؤر النور التي تبدو تارة وتخفر وكأنها أعين ترمش أو كأنها أنوار خادعة تتاح لها فرصة الإضاءة خلسة إلى أن يحين لها أن تكتشفها العتمة في اللحظة المناسبة لكي تصطادها وتلحقها بأجرام الكون التي تشع بعض الوقت وتختفي وكأنها عذارى تزهو بجمالها حينا وتختفي .

وحين يرخي الليل سدوله تتوحد عناصر السكينة والأحلام على عجل موعزة إلى الجميع بضرورة التزام الراحة . تسود السكينة ولكن الحلم يفرض وجوده على الجميع ويلج إلى أعماق الأعماق إلى أن يدرك المسائل المفقودة في اللاشعور ويقوم بجلبها معه، ويتقدم فرحا على بساط من العشب الأخضر تتناثر فوقه الجواهر والأنوار المختلفة الأنواع . يتقدم الحلم وسط أزهار يبدو تاجها وكأنه وجوه مبتسمة، ومن بين تلك الوجوه لاح وجه أم رمضان الحقيقية وأمه الثانية التي فقدها للتو حيث كانت كل واحدة منهما تمد اليه ذراعيها، وهو ما أروأ ضمأه إلى الحب وحنان الأمومة .



الفصل الخامس
العودة

استيقظ رمضان مرة أخرى على الصوت الشهير لمكبر الصوت الخاص بالمعسكر، ولقد طبعت مفاجئة سماعه لهذا الصوت ابتسامة على شفتيه اختفت من قبل بفعل قسوة الحياة في عالم الواقع ولم تبق سوى تلك الانطباعات التي تتركها الأحلام الجميلة وذكريات الماضي القريب التي خففت من آلامه ومنحته عزاءً كبيرا جعله يشعر أنه لم يعد منبوذا وحيدا . شعر رمضان أنه تحرسه عناية اثنتين من الأمهات ومحبتهما وتسبغ عليه يقينا لم يتوفر له مثله من قبل منذ أن جثمت الأحزان على صدره وكأنها وحش كاسر .

نهض ببطء من الفجوة التي كان بها وكانت شمس الصباح قد بدأ نورها يشع ويزداد حرارة . اتجه إلى حيث كان يحفظ الماء وقام بغسل أطرافه بشكل جيد مثلما أكدت عليه أمه التي فقدها مؤخرا بضرورة قيامه بذلك كل صباح مثلما يفعل الآخرون حرصا على النظافة الجسمية وألا يكتفي برش قليل من الماء على وجهه من أجل أن يصحو ويذهب النعاس عن نفسه كما كان يفعل في السابق . وقد استفاد كثيرا من المعلومات حول التربية الصحية التي كانت ضمن الدروس التي كان يحضرها خلسة مع الجنود في المعسكر، لكن أفضل تلك الدروس هو ما تعلمه بشكل عملي وراسخ من خلال السيدة ماريا سارا، وقد شعر بسعادة كبيرة لأنه أصبح ينتهج لنفسه أسلوبا جديدا في العناية بالصحة والنظافة . قام رمضان بعد ذلك بتناول طعام الإفطار الذي كان يتكون من خبز وطماطم أصبح بعده جاهزا لمواجهة جديدة وحاسمة مع العالم الخارجي، وكما يعبر عنه بحق فإن الإنسان حيوان اجتماعي وهو ما يعني أن حياة الإنسان أكثر ثراءً لأنها تجمع الجانبين الحيواني والإنساني، ولكنه يعني أيضا أن حياة الإنسان الاجتماعية بها كثير من الإشكالات .

وبخطى هادئة وواثقة غادر رمضان المكان الذي كان يوجد به وعبر باتجاه الشارع الرئيسي متجها إلى وسط المدينة، وبعد أن مشى بضع مئات من الأمتار وصل إلى شارع فسيح تقام على أحد جانبيه مشروعات بناء لعمارات ضخمة تتكون من عدة طوابق وتشغل كل مساحة هذا الجانب من الطريق حتى نقطة تقاطعه مع شارع آخر . أما على الجانب الآخر فقد كان يوجد حائط مرتفع وفي منتصف المساحة المقام عليها الحائط الذي يمتد

أيضا حتى نقطة التقاطع مع شارع آخر توجد ساحة محاطة بأسلاك معدنية، وقد كان هذا الحائط هو حائط المدرسة الخاصة بهذه المنطقة من مدينة بنغازي، وأن الساحة المحاطة بالأسلاك المعدنية هي ميدان للألعاب الرياضية .

وبينما كان رمضان يمتع ناظريه بهذا المنظر الجديد وغير المألوف بالنسبة اليه بدأ الأطفال يتدفقون إلى هذا المكان قادمين من مختلف الاتجاهات، حيث كان الأطفال الأكبر سنا يأتون فرادى أو جماعات بينما يأتي الأطفال الأصغر سنا مصحوبين بأشخاص بالغين، وقد اندهش رمضان كثيرا عندما رأى أنه خلال دقائق قليلة امتلأ ذلك المكان بالأطفال، وكانت أعدادهم غفيرة، وهو ما اعتبره رمضان السبب في تشييد تلك المباني الضخمة . لكنه حدث أن أصبح الأطفال فجأة يهربون في مختلف الاتجاهات وساد المكان جو من الفوضى امتد إلى الجانب المقابل من الشارع . جاء ذلك بسبب حادثة حقيقية شاهدها مؤلف هذه الرواية بأم عينيه ويرويها كما وقعت .

كانت هناك عربة تنقل مياه الشرب يجرها حصان جامح لم يستطع سائق العربة الليبي أن يسيطر عليه فأخذ الحصان يصول ويجول في مختلف الاتجاهات مما كان يهدد بالخطر أطفال المدرسة الذين كانوا يملأون المكان . وعندما أدرك سائق العربة أنه لم يعد بإمكانه السيطرة على الحصان لا من خلال اللجام ولا من خلال الصرخات التي كان يطلقها من أجل تهدئة الحصان، وفي ضوء الاخطار التي يشكلها الحصان على أطفال المدرسة الصغار طفق يضرب الحصان بالسوط وبشكل عنيف، وفي تلك اللحظة توقفت بالقرب من المكان سيارة عسكرية ونزل منها في خيلاء ضابط ايطالي ذو مكانة رفيعة تتلألأ نجمات الرتب على سترته . كان يرتدي حزاما متعدد الألوان وتتدلى النياشين والقلائد فوق صدره . له قبعة مميزة وحذاء يلمع وقفازات.

كان يحمل سوطا قصيرا اتجه به نحو سائق العربة الليبي الذي كان لا يزال يضرب الحصان بكل عفوية وأخذ الضابط يضرب سائق العربة بقوة وقسوة مماثلتين للقوة والقسوة التي كان يضرب بهما الحصان .

لكن سائق العربة الليبي الذي كان شابا ذا بنية جسمية قوية لم يصدر عنه أي رد فعل إزاء الضربات التي تلقاها من الضابط الايطالي، وحاول قدر استطاعته تفادي ضربات الضابط التي جاءت عنيفة بشكل مفرط لأنها كانت تصدر من شخص في حالة غضب شديد . لم تصدر عن سائق العربة أية ردود أفعال إزاء الضربات التي تلقاها من الضابط الايطالي لأنه يعرف يقينا النهاية المأساوية التي يمكن أن يصل اليها إذا ما قاوم ضربات

ذلك الضابط الذي يشتاط غضبا، ولأجل ذلك آثر أن يتحمل بصمت ضربات السوط القوية إلى أن تعب الضابط من الضرب وعاد في تباهٍ إلى السيارة التي كان يقودها نائب ضابط وسط تصفيق الحاضرين الذين رأوا في ما جرى درسا ضد من يمارس سلوكا مماثلا ضد الحيوان، وكلهم كانوا يرون أن ما قام به الضابط الايطالي من ضرب سائق العربة الليبي أمر محق لأنه آذى الحصان .

لاحظ رمضان هذا المشهد من بدايته إلى نهايته ؛ بيد أنه أربكه موضوع مدى عدالة العقاب الذي تعرض له الحصان وسائق العربة ؛ ففي ضوء ما جرى بحضور ومباركة حشد كبير من الناس، هل كان العقاب عادلا أم ظالما ؟ هل كان رمضان يرى الأمور ويفسرها من منظوره الخاص أم أن هذا الحشد الكبير من البشر كان لهم رأي مخالف ؟ ذلك أنه بالنسبة لرمضان فإن الأمر كان واضحا ولا يمكن تفسيره إلا بطريقة واحدة، فسائق العربة كان يضرب الحصان بشكل مبرح لكن الضابط كان يضرب سائق العربة بنفس الشكل المبرح رغم أن الذي يقوم بضربه إنسان وليس حيوانا . واذا كان عذر سائق العربة أنه شخص جاهل بمسائل الرفق بالحيوان فما هو عذر الضابط إذاً ؟ لماذا رأى الناس أن ضرب الضابط لسائق العربة أمر محق بينما ضرب سائق العربة للحصان أمر غير محق رغم أنه جاء في محاولة من سائق العربة تلافي إلحاق الأذى بتلاميذ المدرسة ؟

لقد كان تفسير رمضان لقيام سائق العربة بضرب الحصان بأنه كان مدفوعا بأمرين هما جهله ومحاولته تلافي خطر إلحاق الأذى بالتلاميذ، أما الضابط فليس لقيامه بالضرب المبرح لسائق العربة أي تبرير . ورغم أن مثل هذه المفاهيم لم تكن واضحة تمام الوضوح في عقله الصغير إلا أن تفسيره للأمور كان بالشكل الذي تم إيراده ؛ إذ أنه ليس من الحق أن يقوم إنسان ما بضرب حيوان، ولكن هل يجوز ضرب البشر ؟ وإذا كانت هناك جمعيات للرفق بالحيوان تعمل على منع السلوك العدواني تجاه الحيوان فهل هناك جمعيات للرفق بالإنسان ؟ وإذا كانت مثل تلك الجمعيات موجودة فإن ما يحدث يمثل انتهاكا فاضحا لحقوق البشر . أين هي شعارات الثورة الفرنسية في الحرية والإخاء والمساواة التي تدعو إلى تحقيق كرامة الإنسان الذي ظل مهانا ومحتقرا ومحطما ؟!

يقولون إن العصر الحديث يبدأ مع بداية احترام حقوق البشر ؛ بيد أنهم أخطأوا بكل تأكيد لأن الحقوق التي يتحدثون عنها هي حقوق بعض بني البشر وليس كل البشر لأن البعض الآخر من البشر في تقديرهم لا قيمة لهم في واقع الأمر لأنهم محتقرون أو بالتعبير العسكري ليسوا سوى طعم المدفع أي أن هناك بشرا يقدم لحم جسومهم قربانا للمدافع

التي تمزق طلقات قذائفها أجسادهم لأنهم لا فائدة منهم ولا قيمة لهم . إلا أنه لحسن الحظ فإن فئة قليلة من البشر هي التي تحمل في مخيلتها مثل هذا التفسير المحزن وغير الإنساني، وهي الفئة التي تنتهي في أغلب الأحيان نهاية سيئة وتبقى البشرية تدين أفعالهم، وهذا أمر طبيعي ورد فعل منطقي ضد أولئك الذين اتخذوا من العنف منهجا في الحياة .

إلا أن ذلك لا يجب أن يجعلنا نغفل عن الحقيقة المؤلمة التي تتمثل في أن بعض سادة العنف يتم تمجيدهم وتخليدهم باعتبارهم أشخاصا من معدن خاص، ويعاملون على أنهم فوق مستوى البشر، وأنهم حالات خاصة ذات طراز رفيع وكأنهم يمثلون روح الإنسانية وجوهرها . أبطال الجريمة هؤلاء هم بحق من أبدع نموذج الجرائم الجماعية . إنهم المدمرون العظام لحياة البشر بما في ذلك الأطفال والنساء والشيوخ وتركهم مبتورة أطرافهم ومشوهة أجسادهم .

هؤلاء المتوحشون الذين لا ذرة للإنسانية بهم حولوا العالم إلى حطام ودمروا إنجازات بذلت الإنسانية جهدا عظيما من أجل تحقيقها . ليس هذا فحسب، بل إنهم يفرضون على الفقراء والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أن يقوموا مرارا وتكرارا بتمجيد مآثر هؤلاء القتلة الفجرة، كل ذلك يحدث دائما ببساطة بفعل التضليل الذي تعيشه مجتمعاتنا المتنورة .

أليس من الأفضل إزاء ذلك الأمر أن ننزع إلى إتباع طريق أكثر عدلا وإنسانية، وأن نعلم أطفالنا بحق الأشياء كما هي على طبيعتها وألا نستمر في تشويه عقولهم بنفس الطريقة التي قام بها الآخرون بغسل أدمغتنا نحن كبار السن ؟ كم هو جميل لو نستمع إلى الأستاذ وهو يتحدث بلهجة الرفض قائلا : أيها القيصر، لقد استعملت العنف ضد الناس طيلة حياتك وقدت إلى الموت حوالي مليوني إنسان، وهدمت كذا وكذا من الأشياء، وألحقت التعاسة بالكثيرين وجعلتهم يتضورون جوعا، ودمرت مجتمعات بأكملها ... الخ كم هو جميل لو يتمكن أطفالنا من أن يكبروا وعقولهم أكثر توازنا من عقولنا نحن وأكثر عدلا وأقرب إلى الحقيقة من عقولنا نحن بدلا من الاستمرار الأهوج في أساليب التربية والتعليم المضللة سيئة السمعة .

وعلى سبيل المثال فرغم الجهد الذي يقوم به العديدون من أجل أن تكون حياتنا أكثر راحة وجمالا من خلال معارفهم وعلومهم إلا أننا نقوم بتجاهلهم كلية في الوقت الذي نعمد فيه إلى تخليد أولئك الذين دمروا حياة البشر وأبادوا الملايين منهم وفرضوا الجوع والفقر على مئات الآلاف بل الملايين من الناس من خلال إطلاق أسمائهم على العديد

من الميادين والشوارع التي لا يزال الكثير منها ـ ويا للعار ! ـ يحمل أسماء القتلة العظام بل أبطال الإبادة الكبار ممن ينعتونهم بالزعماء العظام الذين نخصهم بالتقدير ونسمي أنواط الشرف بأسمائهم .

مثل هذا العمل يشبه تماما حالة قيام الشخص المحكوم عليه بالإعدام شنقا بوضع وسام على صدر الجلاد الذي سيشنقه والذي يوشك على لف حبل المشنقة حول رقبة الضحية، وبعد تنفيذ حكم الإعدام شنقا يقوم بشد المشنوق من ساقيه إلى أسفل من أجل أن يتأكد أنه أُشبع موتا، هؤلاء الجلادون نمجدهم رغم أنهم هم الذين يقودوننا إلى التعذيب أو الموت، وإذا كان هناك عباقرة لا يؤمنون بأن التعذيب سلوك لا يزال يمارس في مجتمعاتنا المعاصرة . هؤلاء يجب أن نتركهم وأوهامهم، ذلك أننا لن نفقد شيئا، فلندعهم يسعدون بهذه الأوهام . أما أولئك الذين يستحقون تقديرنا فهم أولئك الذين استطاعت معارفهم وعلومهم ـ كثيرة كانت أم قليلة ـ أن تحقق لنا الرخاء، ولكننا نتناساهم ربما لأننا نشعر بعقدة النقص حيالهم، وقد نتجاهلهم تماما . ومن اجل توخي الصدق فيما أسرد فرب قائل يقول : ما الذي يضيرك أنت ككاتب إزاء ذلك كله ؟ عليك بتأليف فصول كتابك وما تسرده أنت يمثل الرواية كما تراها أنت أيها المغفل ! هذا القائل قد يكون له كل الحق فيما ينطق به ؛ بيد أن الكيل يطفح عندي إذا ما تم نعتي بالمغفل .



الجُزْءُ الثَّانِي



السيد بيبيه

بقي رمضان وقتا من الزمن يلاحظ ذلك المكان الذي كان يعج بالناس جيئة وذهابا إلى أن دق الجرس فإذا بجميع التلاميذ يسارعون بالدخول فيما عدا نفر قليل منهم تأخر قدومهم قليلا فإذا بهم يسارعون بالدخول كذلك، عادت بعدها حركة الشارع إلى طبيعتها الاعتيادية .

وهكذا استمر الصبي في رحلة الاستكشاف هذه غير منزعج من الحركة الكثيفة التي تعم المدينة فقد رأى في حياته اليافعة أسوأ من ذلك بكثير .

عبر رمضان الشارع الرئيسي مرورا بمبنى المدرسة، وقد كان هذا الشارع كعهده دائما يعج بالحركة . لم يكن الصبي معتادا على رؤية حركة المرور بهذا الشكل من الازدحام، ولذا قرر أن يسير نحو الشارع المقابل للشارع الذي كان يسلكه، حيث عبر الشارع الرئيسي نحو شارع آخر هادئ هدوءا يكاد يكون مطلقا، وعندها شعر بالارتياح وانبسطت سريرته بعد أن ابتعد عن تلك الضجة المرورية الصاخبة ثم سار بخطى وئيدة ومشى نحو ثلاثين مترا في هذا الشارع إلى أن شدت انتباهه لافتة معلقة على أحد الأبواب الزجاجية مكتوب عليها : طبق اليوم - اسباغيتي بصدف البحر، وحملت هذه اللافتة أيضا رسما توضيحيا أُبرز تحت هذه العبارة . توقف رمضان أمام هذه اللافتة بفضول لأنه لم يفهم ما الذي تعنيه تلك اللافتة .

وفي تلك اللحظات فُتح ذلك الباب الزجاجي وخرج منه رجل يرتدي قبعة بيضاء كبيرة ملقيا في برميل القمامة كمية من القشور الصلبة للصدف البحري، وعندما لاحظ الرجل أن الصبي يقف وعيناه مشدودتان بقوة إلى تلك اللافتة سأله من باب المزاح : سيدي : هل ترغب في أكل طبق من السباغيتي بصدف البحر ؟! لكن الصبي أجاب قائلا : سيدي، أنا لا أعرف ما هي السباغيتي، أما صدف البحر فإنني أعرفه جيدا لأنني امتلك الكثير منه وهو متوفر لدي دائما .

عندها سأله الرجل الذي يتضح من هيأته أنه الطباخ بذلك المطعم : لديك منه الكثير ؟! فأجاب رمضان : نعم، لدي منه الكثير وأتناوله كل يوم وقد أُخرج لتوه من مياه البحر ! ظن الرجل أن الصبي يمازحه، لكنه أبعد عن نفسه هذا الظن عندما رأى وجه الصبي

يحمل ملامح الجد فبادره قائلا : « انظر أيها الصبي ! إننا نكاد نصاب بالجنون بحثا عن فواكه البحر وأنت تقول إنك لديك منها الكثير وتتناولها يوميا ! وبكل احترام أكد رمضان للرجل صدق قوله، وعندها استطرد الرجل قائلا : سوف نرى مدى صدق قولك بأنك تملك منها الكثير، لماذا لا تحضر لي عددا من الكيلو غرامات منها ؟ سوف أدفع لك ثمنها وافيا لأنه يصعب علينا الحصول عليها طازجة طرية، ولا نستطيع الحصول على الكميات الكافية التي تلبي الطلبات الكثيرة منها لزبائننا .

لم يصدق الصبي أنه أصبح بامكانه - كما يبدو - الحصول على بعض النقود التي لم يسبق أن حصل عليها من قبل، ولكنه تعلم - نظريا على الأقل - الشيء الكثير عن قيمتها التبادلية خلال الدروس التي كان يحضرها خلسة مع الجنود . ورغم أنه لا يعرف سوى القليل من المعلومات العامة عن النقود، إلا أنه رغب أن يتحصل على بعض الليرات لكي يستطيع أن تكون له قدرة شرائية . مرت هذه الأفكار برأس الصبي ثم خاطب الرجل قائلا : سوف أحضر لك صدف البحر خلال ساعة يا سيدي، وسوف أحضرها لك مستقبلا متى أردت، حيث أجاب الرجل باستغراب قائلا : أرجو ذلك .

عاد الصبي إلى مقر إقامته حيث أخذ معه صفيحة فارغة أعدها لهذا الغرض، وعلى شاطئ البحر خلع نعليه ومشى داخل المياه الغنية بصدف البحر، وخلال دقائق استطاع ملء الوعاء الذي جلبه معه منها، وقبل أن تنتهي الساعة، وهو المدى الزمني الذي أعطاه للرجل طرق الصبي على الباب الزجاجي للمطعم حيث جاء الطباخ وفتح الباب ثم نظر مشدوها نحو فواكه البحرالطرية التي جلبها الصبي والتي بدت أنها أخرجت لتوها من مياه البحر ثم خاطب الصبي قائلا : يا لك من فتى شجاع : لقد كنت أشك في أنك ستجلب لي فواكه البحر كما وعدت، ولكنني كنت مخطئا . تعال معي لنعرف مقدار وزنها . دخل الرجل والصبي إلى المطبخ حيث قام الرجل بوزن صدف البحر الذي جلبه الصبي والذي بلغ ستة كيلو غرامات وافية ثم أخرج (12) ليرة ووضعها في يد الصبي قائلا : خذ، هذا هو السعر العادل لفواكه البحر التي أحضرتها حيث تستطيع أن تحضر لي في المستقبل أي كميات أخرى منها وسوف أدفع لك ليرتين عن كل كيلو غرام منها، وهذا هو سعرها الذي تباع به في الميدان الرئيسي بالمدينة، وإذا حدث أن جئت في وقت لم تجدني فيه لأي سبب فإنني أرجو أن تنتظرني قليلا لأنني لا أستطيع أن أترك المطبخ لفترة طويلة دون أن يكون موجودا به أحد يعتني بشئونه، ثم ربت بشكل خفيف على رأس الصبي ومشى معه حتى باب الخروج من المطبخ .

وقف الطباخ لحظة يتأمل ثم قال مخاطبا رمضان : بالمناسبة، لقد قلت لي إنك لا تعرف السباغيتي، أصحيح هذا ؟ ولكنك لست إيطاليا، أليس كذلك ؟ « بلى « أجاب الصبي، أنا ليبي ! وهو ما حدا بالرجل إلى مزيد من الاستغراب قائلا : ليبي ؟! أنت تتكلم الايطالية بشكل أفضل مني وتقول أنك ليبي ! أين تعلمت لغتنا ؟ فأجاب رمضان : تعلمتها خلال لقاءاتي مع صبية آخرين وقد كانت إجابة غير صادقة لأن الصبي علمته تجارب الحياة ألا يستعجل في منح ثقته للآخرين منذ البداية لأنه لا يمكن معرفة النتائج التي يمكن أن تترتب على ذلك . وعلى اثر ذلك سأل الرجل : ما إسمك ؟ وأجاب الفتى : إسمي رمضان، « حسنا « - قال الطباخ - حسنا إذا كنت لا تعرف السباغيتي كما تقول، عد إلى هنا منتصف النهار لكي نأكل سويا طبق السباغيتي، هل ستأتي ؟ وأجاب رمضان : نعم سيدي، مع الشكر . ثم أضاف الرجل : ممتاز، ستأتي عندما ينطلق المدفع وسوف نستمتع سويا بوجبة السباغيتي الشهية .

وهكذا عرف رمضان دون أن يسأل سبب انطلاق المدفع عند منتصف النهار من كل يوم ثم اتجه نحو الشارع بخطى سريعة تغمره الفرحة بنجاحه في الحصول على اثنتي عشرة ليرة في جيبه، وهو ما زاد من عزيمته على مواجهة المستقبل بثقة أكبر . وعندما أمعن الصبي التفكير فيما قاله بأنه بإمكانه إحضار فواكه البحر اليه كل يوم لكي يشتريها منه، بدا له أنه حالفه الحظ في أن يستطيع من الآن فصاعدا التغلب بشكل أو بآخر على مشكلة مستقبله غير المضمون .

سار رمضان بخطى واثقة مقررا أن يتمكن من معرفة المزيد من الأماكن في هذه المدينة حيث مضى ماشيا لبعض الوقت إلى أن وصل إلى ميدان كبير حيث يبدأ السوق العربي الذي يمثل أحد أكبر المراكز التجارية في مدينة بنغازي الذي تؤمه أعداد كبيرة من الناس من مختلف الجنسيات وفي حركة متواصلة . ومن أبرز هذه الجنسيات المكونة لهذا السوق الصاخب ثلاث جنسيات وهي التي تشكل أيضا الأغلبية من سكان المدينة : الايطاليون والليبيون واليهود، والى جانب ذلك توجد أعداد كبيرة من جنسيات أخرى منها المالطيون واليونانيون والمصريون . أضف إلى ذلك أعدادا من جنسيات لا حصر لها جعلت من هذا المكان مركزا تجاريا له طابع مميز وهام ومثير وبسيط .

مكث رمضان ينظر مشدوها إلى كل تلك الكتل البشرية والبضائع والعربات والسيارات، وأصوات المنادين حول الأسعار والتخفيضات السعرية لسلع محلية ومستوردة تخاطب المشترين بكل اللغات حول كل الموضوعات، وهو ما يعطي الانطباع بسيادة الفوضى وعدم

النظام بالنسبة للصبي الذي لم يسبق له رؤية شيء شبيه بذلك في الماضي . ومن زاوية أخرى في الميدان يتم إدخال كميات كبيرة من البضائع إلى السوق وعلى تلك الزاوية يوجد مقهى عربي مفتوحة أغلب أجزائه ويطل أمامه سقف معلق أقيم ليحمي الزبائن خارج المقهى من حرارة الشمس الحارقة . وعلى مختلف مناضد المقهى يجلس كثير من الناس من جنسيات عدة يتناولون مشروباتهم المفضلة خلال فترة التفاوض حول عمليات البيع والشراء لمختلف السلع من مختلف الأنواع . كان مرتادو المقهى من مختلف الأجناس يتحدثون مختلف اللغات، يأتون إلى المقهى لمختلف الاغراض، ولكن العلاقات بينهم كانت كلها حميمية يسودها السلام والمودة والتقدير .

بقي رمضان مشدودا إلى هذا المشهد لفترة طويلة، وأخيرا وجد نفسه متعبا من الوقوف فاتجه نحو المقهى ثم جلس حول إحدى مناضد المقهى كانت تلاصق الحائط، وقد اختارها من أجل أن يكون بإمكانه رؤية ما يجري حوله بشكل أفضل، وقد كان من أهم ما كان رمضان يرغب في تناوله بالمقهى كأس من الشاي لأنه منذ وقت طويل لم يتسن له احتساءه . وبعد قليل حضر أحد عمال المقهى فقام رمضان بإبلاغه رغبته في الحصول على كأس من الشاي ولم ينس في نفس الوقت أن يسأل عن سعره حيث كانت لديه اثنتا عشرة ليرة تحصل عليها من عملية بيع فواكه البحر للطباخ، ولكنه لم يكن يعرف سعر كوب الشاي ولا يريد أن يضع نفسه في موقف محرج، وهكذا أجابه عامل المقهى باستغراب بأن سعر كوب الشاي هو أربعة سنتات، ولما كان رمضان قد تحدث مع عامل المقهى باللغة العربية فقد عاد عامل المقهى إلى التحديق فيه ومخاطبته قائلا : سعر كوب الشاي هو أربعة سنتات أما سعر كوب الشاي بالفول السوداني فهو ستة سنتات . عندها رد رمضان قائلا : أريده بدون الفول السوداني، وذلك لأنه كانت لديه رغبة شديدة في شرب الشاي متذكرا الأيام الخوالي حينما كانت أمه تعد له الشاي، وهي الذكريات التي بعثت في نفسه شعورا داخليا بالألم .

وبعد قليل أحضر له الشاي حيث استطاع بعد وقت طويل احتساء كوب الشاي وهو المشروب المفضل لدى العرب وسكان الصحراء عموما . مرت نصف ساعة جاء بعدها عامل المقهى لاسترجاع الكوب الفارغ فقدم له رمضان ليرة واحدة استلمها وأرجع الباقي إلى رمضان الذي استطاع بهذه الطريقة المبدئية أن يعرف قيمة الإثنتي عشرة ليرة التي أصبحت بحوزته، ثم قام بإجراء عملية حسابية في ذهنه لمعرفة كم كوب من الشاي يمكن له أن يحصل عليها مقابل الأثنتي عشرة ليرة التي يملكها وقد قام بذلك لأن كوب الشاي هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن يعرف سعره إلى حد الآن، واستخلص من هذه العملية

الحسابية أن لديه مبلغا معتبرا من المال تحصل عليه بطريقة لم يكن يتوقعها . ليس هذا فحسب بل أدرك أنه خلال الأيام القادمة يستطيع أن يرفع رصيده من المال من خلال بيعه لفواكه البحر التي أصبحت مصدر الدخل المهم والمستمر لديه بشكل يفتح أمامه آفاقا جديدة للعيش كانت موصدة في وجهه، ولم يكن بمستطاعه إدراكها فيما مضى من زمان .

استراح رمضان حوالي نصف ساعة أخرى واصل بعدها مشوار استكشافاته ماشيا وسط ذلك المركز التجاري، مستمعا إلى عروض السلع وأسعارها من خلال التجار ومن خلال المنادين الذين تتعالى أصواتهم إلى مداها من أجل جذب انتباه الزبائن إلى عروضهم السلعية، وقد كان ذلك أيضا فرصة له لكي يستطيع تقدير قيمة المبلغ الذي تحصل عليه بشكل أكثر دقة .

بقي رمضان يتجول مشدوها وسط السوق تتزاحم في رأسه صور المعروضات السلعية وأسعارها إلى أن فاجأه صوت انطلاق المدفع منتصف النهار وهو في حالة ذهول تكاد تصل إلى درجة الدوخان . حينها تذكر حالا موعده مع الطباخ، فمد الخطى سريعا نحو المطعم، وعندما وصل طرق الباب حيث قام الطباخ بفتحه واستقبال رمضان داخل المطبخ الذي كانت تفوح منه روائح متنوعة لأصناف مختلفة من الأكلات التي يتم تجهيزها للزبائن . مكث رمضان ينظر باستغراب وبشهية أيضا إلى كل تلك الأنواع من الأطعمة ذات الرائحة الزكية التي لم ير مثلها في حياته قط، ولم يكن يتخيل أبدا وجودها .

وفي الحال أحضر الطباخ لرمضان طبق الإسباغيتي بفواكه البحر مثلما وعده طالبا منه أن يبادر بالأكل ولا ينتظره لأنه يتوجب عليه إعداد أطباق طعام لزبائن وصلوا للتو، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يجالسه أثناء تناول الغداء، ثم أضاف قائلا له : كُلّ على مهلك . وعندما لاحظ أن الصبي بقي حائرا حيال كيف يمكن له أن يتناول الإسباغيتي قام بشكل مازح بإيضاح كيفية أكل طبق الإسباغيتي له من أجل أن يخرجه من حيرته ويستطيع أن يتناول وجبته بطريقة صحيحة . وبالنظر إلى أن طريقة الإيضاح هذه تمت بشكل عملي واضح فقد تمكن رمضان ولو بشكل غير كامل أن يتناول السباغيتي عن طريق الشوكة وكان ذلك بنوع من الارتباك في البداية، ولكن أكثر يقينا فيما بعد . بقي الطباخ - ذلك الرجل الطيب - يختلس النظر إلى الصبي من حين لآخر رغم انشغاله الكبير بالقدور والغلايات وأواني القلي، وكان يستشعر في نفسه رضا تاما عندما يجد ضيفه الصغير يتناول غداءه بشهية واضحة . وعندما أكمل رمضان طبق الإسباغيتي أحضر له الطباخ طبقا من اللحم مع البطاطا المقلية والفطر .

كانت هذه الوجبة بالنسبة لرمضان وسيلة عرف من خلالها ولو بشكل عابر الفرق

الكبير الذي يوجد بين ما رآه وبين أسلوب العيش الذي يحياه . أدرك بقوة وبشكل معاش كيف أن حياته التي فرضت عليه الظروف أن يعيشها هي أقرب إلى حياة الحيوانات، ورغم أنه آلمه كثيرا أمر المقارنة بين ظروف معيشته البائسة، وتلك الأطباق الفاخرة ذات الرائحة الزكية، إلا أنه حمد الله كثيرا على كل حال، بل ان الشيء الوحيد الذي منحه نوعا من الارتياح هو أمله في إيجاد منعطف إيجابي جديد في مستقبل حياته المتأرجح من خلال الصدفة التي قادته إلى عملية بيع صدف البحر والتي جاءت بشكل فريد وغير متوقع، لكنه ظل يحمل في مخيلة عقله البسيطة آثار انعدام التوازن الذي سببته عملية المقارنة بين ما رآه وبين ظروف العيش البائس التي وجد نفسه فيها . لقد أصبح ينظر إلى الحياة من منظور آخر وقد بدأت مدرسة الحياة في إعطاء دروسها له . وعندما انتهى رمضان من تناول طعام غدائه اقترب من الطباخ الذي كان يقلي سمكا وأشار اليه أنه بإمكانه أيضا أن يصطاد كثيرا من السمك وإحضاره له طازجا ولكن من النوع الأقل حجما من ذلك الذي كان يقليه الطباخ .

سُر الطباخ لذلك، وأبلغ رمضان أنه يستطيع في يوم الغد أن يحضر سمكا إلى جانب صدف البحر « ثم ننظر ما يمكننا عمله بالخصوص، فإذا كان السمك الذي تحضره لا يصلح للمطعم هنا فإنه يمكنني أن أتحدث بشأنه إلى أصدقاء لي يمتلكون حانات للخمر وهم يستطيعون شراءها من أجل ترويج مبيعات النبيذ لديهم وذلك عن طريق قليها أو شوائها وتقديمها للزبائن مع النبيذ . «

أبدى رمضان امتنانه للوجبة الرائعة التي تناولها، ولكنه كان ممتنا أكثر للفرصة الجديدة التي تحدث عنها الطباخ بشأن شراء السمك، ثم ودع الطباخ بلطافة وخرج ماشيا بخطى سعيدة نحو مقر إقامته يملؤه الأمل بمستقبل أقل شقاءً وبؤسا على المدى القريب . شعر رمضان بالحر الشديد ربما بسبب درجة الحرارة المرتفعة خلال منتصف النهار وربما بسبب كمية الأكل الكبيرة التي تناولها خلال فترة الغداء، ولذا فضل البقاء في مقر إقامته المحمي من أشعة الشمس الحارقة ثم ألقى بنفسه وسط سرير القش وكله رضا عما وصلت اليه الأمور ثم نام قرير العين ليس نتيجة لتعب جسماني ولكن بسبب المشاعر الجياشة التي غمرته بفعل التطورات الايجابية غير المتوقعة التي تحققت له خلال ساعات قليلة .

رأى في المنام أنه في صحبة أصدقائه الدائمين الذين هبوا قادمين نحوه فرحين بعودته وبالابتسامة التي تعلو شفتيه وكلهم اندهاش لهذا التغيير المفاجئ الذي حدث له، ذلك لأنهم

تعودوا على رؤيته جادا حزينا . تجمع كلهم حوله وعندما علموا بأسباب سعادته فرحوا لفرحه وأخذوه إلى مكان جميل ومريح تمتد حوله شرائط زينة وتتناثر به أرائك مصنوعة من ريش ناعم له ألوان كثيرة زاهية ثم وضعوه في حجر أمه التي كانت هي الأخرى تبتسم ابتهاجا وهي ترى إبنها يلقى مثل هذا الاحتفال الرائع . وبالنظر إلى أنه رأى أمه في المنام مكث لحظات وهو يمتلئ عزما من أجل السير قدما إلى الأمام وعدم الركون إلى اليأس .

عندها بدأ يجهز الأمور لليوم التالي وكله سعادة بالمستقبل الزاهر الذي ينتظره، إضافة إلى أنه أراد أن تكون المواعيد التي اتفق بشأنها مع الطباخ دقيقة خاصة وأنه رجل عامله بنزاهة وكرم . جلب رمضان المزيد من صدف البحر وقام بتجهيز الأوعية التي يحمل فيها بضاعته إلى الطباخ لكي يتم نقلها بشكل مريح وآمن . وبالنظر إلى التعب الذي أحس به بعد فترة العمل هذه عاد مع بداية حلول الظلام إلى مكان إقامته ونام دون أن يتعشى ؛ ذلك أنه لم يعد يروق له بعد الآن الخبز والطماطم كما أنه أكل كثيرا خلال وجبة الغداء بالمطعم ولذلك فضل النوم، ومرة أخرى رأى في المنام أصدقاءه يجرون ولكنه ليس معهم، رآهم فرحين أنهم استطاعوا أن يقدموا له من خلال تحالفهم غير المعلن كل العون الذي يحتاجه . وهكذا كان حفيف الريح وهدير الموج قليل الارتفاع الذي يتردد بشكل ناعم ومتكرر، والهدوء الذي يحوم حوله قد أكملوا مشروع حماية هذا الصبي . بحيث لا يملك أي كان أن يجرؤ على تعكير البيئة الصافية التي يعيش وسطها .

بدت هذه العناصر وكأنها مجموعة ممتازة مهمتها مهد الطريق أمام الصبي وفرشه بالأزهار والعطور وكان كل واحد من هذه العناصر يرغب في ألا يكون أقل عطاءً من غيره نحو الصبي . رأى في المنام أن هذه العناصر تتسابق مسرعة في توفير الحماية لهذا الصبي الصغير داخل الفجوة التي يقيم فيها وسط أكوام القمامة، وأنها شرعت في شق درب صاعد له يحفه قوس قزح بألوانه الباهرة . كان هذا الطريق الصاعد أشبه ما يكون بسلم للسعادة يقود نحو مكان هادئ يمتلئ ضياءً وسلاما، تتوسطه أمه الأولى وأمه الثانية اللتان تجلسان في انتظار قدومه يحيط بهما سوار من النجوم اللامعة تتجمع تدريجيا كلما يقترب نحوها إلى أن تمتزج عند حضوره . لقد كان هذا الامتزاج هائلا وعميقا وكأنه باقة واحدة من النور الذي ينبعث من خارج الكون في وقت لا نهائي يمتزج فيه النور والزمان .

وعندما طلعت شمس اليوم التالي وسطع نور الحياة من قلبها يمزق أشلاء الظلمة التي كانت تسكن المكان شعر رمضان بضرورة أن ينهض ويعمل على عجل ووجد نفسه جائعا فأعد لنفسه طعام الإفطار المعتاد وتناوله بشهية بالغة أو ربما بفعل الجوع الذي

شعر به ثم بدأ بعد ذلك بقليل في إعداد صدف البحر وجلبه من المكان الذي كان يجمعه فيه خلال اليوم السابق وجهز وعائين كبيرين عاقدا العزم على تجميع المزيد من أجل أن يكون له دائما احتياطي كافٍ لبيعه . أما بخصوص السمك فلم يجد مشكلة في صيده لأنه كان متوفرا بكثرة في مياه المستنقعات القريبة . وعندما انتهى من ملء الوعائين الكبيرين سمكا وصدفا قام باحضار مقبض مستطيل لكي يستطيع من خلاله حمل الوعائين بشكل أكثر راحة إلى المطعم، ثم سار وهو يختال فرحا بمستقبل أكثر إشراقا من أي زمان آخر إلى أن وصل إلى المكان الذي يقصده دون أية صعوبات تذكر .

استقبله الطباخ مبتهجا، وعندما وجد الأسماك طرية أو شبه حية لم يُخف تفاجئه، وقام بوزن البضاعة ثم سلم رمضان (24) ليرة وهو نفس السعر الذي تباع به الأسماك والصدف البحري في السوق، وعلق قائلا : حسنا، إنني ممتن لك لأنك إنسان صاحب كلمة، وإذا كنت فعلا تستطيع إحضار مثل هذه البضاعة يوميا فإنني سوف اشتريها منك دائما حسب سعرها الذي تباع به في السوق، كما أنك تستطيع القدوم إلى المطعم متى تشاء من أجل تناول الطعام دون أي حرج لأنه دائما يوجد لدينا فائض من الأكل، إضافة إلى أنني على استعداد لمساعدتك في أي شيء تحتاجه طالما أنك تعيش وحيدا كما ذكرت لي . قال الطباخ ذلك ثم ربت على رأس الصبي وسار معه نحو باب الخروج من المطعم ثم قال : إنني مضطر أن أودعك يا رمضان لأنه لدي الكثير من الأعمال المؤجلة، لكنك لا يجب أن تنسى أن تأتي إلي اذا ما كنت تحتاج أي شيء . مع السلامة أيها الصبي الصغير، وسنراك قريبا .

ودع رمضان الطباخ واتجه نحو السوق الذي شد كل انتباهه بفعل الحركة الهائلة والبضائع المكدسة والصخب الذي يحدثه البائعون والمشترون حيث تلتقي كل تلك المسائل في نسق فريد متعدد الأطياف يميز ذلك المكان . وبعد أن تمشى رمضان لفترة وسط السوق قرر أن يؤم من جديد المقهى الذي ارتاده بالأمس وقام بطلب شاي بالفول السوداني، ولكن طلبه جاء هذه المرة بشكل اعتيادي وكأنه شخص له خبرة طويلة في ارتياد المقاهي يعرف الأسعار وقيمة الخدمات التي تقدم للزبائن . كان هذه المرة أكثر ثقة بنفسه وبسبب توفر حوالي ست وثلاثين ليرة لديه فقد أصبح ينظر إلى العالم حوله بمنظور الواثق من نفسه . ولكي يتفادى أية مشكلات غير متوقعة قام بتوزيع تلك النقود على جيوبه الثلاثة بشكل متساوٍ .

وعندما انطلق مدفع منتصف النهار لم يشأ رمضان إزعاج الطباخ الطيب خاصة وأنه خلال تجواله بالسوق شاهد مطعما عربيا يقدم وجبة الكسكسي، وهو طبق عربي

له شهرة على مستوى العالم كله . دخل الصبي إلى المطعم وقام بطلب الوجبة أولا ثم اختار لنفسه منضدة يستطيع الجالس حولها متابعة حركة الزبائن داخل المطعم الذين كانوا ينتمون إلى جنسيات مختلفة أرادوا تذوق الأكل العربي اللذيذ بدون منازع وذي الرائحة الزكية . التهم رمضان طبق الكسكسي بشهية بالغة وبشوق كبير متذكرا الأيام الخوالي عندما كانت أمه العزيزة تعد للأسرة مثل هذا الطبق بكل سعادة وسرور . أدرك رمضان ضمن كل ما أدرك أن العالم مليء بالأشياء الجميلة التي لم يكن بإمكانه التمتع بها ـ في السابق، ولذا قرر لنفسه أن ينال نصيبا منها كنوع من التعويض عن الفقر والجوع والتعاسة التي ملأت كأس حياته ـ في الماضي . لم يكن رمضان شخصا أكولا يقبل بشراهة ونهم على الطعام، ولكنه بعد أن أمضى سنة كاملة يأكل الخبز اليابس والطماطم وصدف البحر استشعر حاجة جسمه لأكل أصناف أخرى من الطعام . وعقب إنتهاء رمضان من تناول طعام الغداء بشهية بالغة خرج بهدوء متجها إلى مقر إقامته وهو مرتاح البال نسبيا لأنه أزال من على ظهره حمل التفكير فيما يمكن أن يحمله له اليوم التالي والذي كان ـ في الماضي ـ مثلما هو الحال بالنسبة لكثيرين غيره ـ سلسلة متتابعة من المشاكل التي جلبتها الظروف السيئة التي أحاطت به رغم أنفه ورغم عدم علمه المسبق بقدومها .

وعند عودته عمد رمضان إلى تجهيز بضاعته واستجلب كمية أكبر من صدف البحر وجهز لها أوعية أفضل لنقلها، أما بالنسبة للأسماك فقد كانت موجودة بكثرة ولم تكن لديه مشكلة ـ في صيدها ونقلها . وعندما شعر بالتعب بسبب فترة العمل الطويلة التي استمرت إلى بداية حلول الظلام آوى رمضان إلى الفجوة السعيدة التي كان يقيم فيها معتزا بنفسه وكأنه ملك ـ في ربوع قصره .

وللمرة الثانية لم يتناول رمضان طعام العشاء لأن شهيته للطعام أصبحت تميز بين أنواع أكثر من المأكولات، ولأنه آثر الانتظار إلى أن يجوع أكثر من أجل أن يستسيغ من جديد الطعام الذي دأب على تناوله منذ قدومه إلى هذا المكان .

وقبل أن ينام أخذ يبحث عن مخبأ يضع فيه نقوده كي لا يضطر إلى نقلها أينما ذهب، ومن أجل أن يكون له رصيد مالي مضمون لمواجهة أية ظروف طارئة ؛ حيث أخفى عشر ليرات ـ في فجوة قرب الصخرة الكبيرة التي جلس يرتاح فوقها عندما قدم إلى المكان للمرة الأولى، كما أخفى عشرين ليرة ـ في الفجوة التي ينام فيها وذلك بلفها ـ في قطعة من ورق ودسها ـ في حفرة وسط التراب بجوار منضدة ملقاة هناك، أما ما تبقى له من نقود فقد كانت ـ في رأيه كافية لشراء حاجياته القليلة، وعندما انتهى رمضان من اتخاذ الاحتياطات

اللازمة بشأن كنزه من النقود اتجه صوب سريره المعتاد وخلد إلى النوم بكل ارتياح وبهجة رغم أن فمه لم يعرف الابتسامة بعد، لكن النوم الذي غلبه بسرعة وهبه سلام العافية وكأنه عنصر آخر من عناصر البيئة التي توافقت على منح رمضان كل اهتمامها ورعايتها.

وبمجرد أن لاح نور الصباح متحديا طغيان الظلام وملقيا بشعاع ضيائه على الفجوة الصغيرة التي ينام فيها الصبي، نهض الصبي وشرع في تجهيز بضاعته وكله جد ومثابرة من أجل إنجاز عملية بيعها على أفضل ما يكون خاصة وأنها أصبحت مصدر رزق غير متوقع بالنسبة اليه تدر عليه النقود، ومع النقود تأتي أشياء أخرى مفيدة عرف بعضها وهو على وشك أن يعرف غيرها . وعندما انتهى من تجهيز بضاعته أخذ الوعائين اللذين خصص أحدهما للسمك والآخر لصدف البحر، حيث ملأهما جيدا، وانطلق بهما لغرض البيع مثلما كان الأمر في المرة السابقة ؛ لكنه في هذه المرة أصبح يعلم أن الطباخ سوف يقبل أي كمية من السمك وصدف البحر الأمر الذي شجعه على ملء الوعائين قدر ما احتملا، وسار على الرصيف في الشارع الذي تطل عليه المنازل الشهيرة، وكان يحدث أحيانا أن تقفز سمكة من السمكات التي اصطادها لتوه من الوعاء المملوء إلى آخره مما يجعله يتوقف لالتقاطها وإعادتها إلى الوعاء، وهو ما شد انتباه كثير من سكان تلك المنازل الذين أعجبتهم طراوة الأسماك فرغبوا في شرائها منه . ورغم أنه في بداية الأمر كان على وشك أن يرفض بيعها لهم لأنها مخصصة لبيعها للطباخ، لكنه عندما فكر في الأمر مليا تذكر أنه لديه الكثير منها، وبالتالي قبل ببيعها لهم وخلال دقائق قليلة يبيع رمضان بضاعته وتبقى أوعيته فارغة من جديد .

لقد تفاجأ رمضان عندما أصبحت النقود تتراكم لديه وتملأ جيوبه بهذه الطريقة السهلة، خاصة وأن سكان المنطقة الذين أعجبتهم طراوة الأسماك طلبوا منه إحضارها لهم مرتين في الأسبوع، وهو ما أكد على القيام به بكل سرور . وكم غمره الفرح والبهجة عندما اكتشف أنه أصبح لديه أربعون ليرة، وأن المستقبل القريب يبشر بالحصول على المزيد . ووفقا لهذا الوضع فإن سوء الحال قد اختفى قطعا - ولو بصفة مؤقتة - من حياة رمضان ؛ بيد أن الوضع الأمثل هو أن يختفي من حياته أبدا .

عاد رمضان إلى مقر إقامته على عجل متذكرا أنه لابد له أن يفي بوعده للطباخ بإحضار السمك وصدف البحر له خاصة وأن هذا الرجل عامله بشكل إنساني رفيع، وخلال حوالي ساعة تمكن من أن يملأ وعائين كبيرين سمكا وصدفا وهب خارجا إلا أنه اضطر إلى العودة على عجل إلى مقر إقامته بسبب تمزق أحد جيوبه الأمر الذي دعاه

إلى إخفاء كل تلك النقود التي تمثل كنزه في هذه الدنيا .عندها شعر بالارتياح من عبء النقود التي كانت تملأ جيبه فانطلق بسرعة يحمل بضاعته وكأنه بائع محترف مفضلا هذه المرة السير عبر الطريق الخلفي للمنازل التي باع عندها بضاعته السابقة كي لا يراه زبائنه السابقون ليس خوفا من شيء محدد ولكن لمجرد تفادي ألا يصل موضوع بضاعته إلى أعداد كبيرة من الناس . وصل إلى المطعم متأخرا بعض الشيء عن موعده المعتاد، ولكن لم تكن هناك مشكلة في تأخره لأن الطباخ موجود على كل حال . وعندما تم وزن البضاعة اتضح أن سعرها أربعون ليرة وهو ـ كما كان دائما ـ نفس السعر الذي تباع به في السوق الرئيسي . وأثناء قيامه بتسديد المبلغ عاتب السيد بيبيه طباخ المطعم رمضان لأنه لم يحضر إلى المطعم في اليوم السابق لتناول الغداء . عندها سرد رمضان للسيد بيبيه مجريات ذلك اليوم معلما إياه أنه فضل تناول وجبة الكسكسي كنوع من الذكرى تجاه أمه، ولأن هذه الوجبة تعتبرمن الوجبات المفضلة لديه، ثم أبلغ الطباخ أنه سوف يتناول طعام الغداء معه هذا اليوم إذا لم يكن هناك مانع لديه . على إثر ذلك أجاب الطباخ قائلا : أرجوك ألا تقول مثل هذا الكلام الفارغ لأنك تعلم أنك تستطيع أن تأتي إلى المطعم متى تشاء وأن هذه الدعوة التي تقدمت بها إليك تعبر تعبيرا حقيقيا عن سعادتي بمقدمك . ألا ترى هذا المطعم الفسيح الأرجاء الذي توجد به كميات وافرة من الطعام لا يمكن لأي كمية تأكلها منه أن تنتقص منها ؟! تعال متى شئت، وبدون أية التزامات . شكر رمضان السيد بيبيه بحرارة ثم ودعه لكي يستمر في رحلة استكشافه لمدينة بنغازي .

قرر رمضان هذه المرة أن يذهب إلى سوق رئيسي آخر في المدينة يسمى الفندق وهو سوق له خاصية مميزة من حيث أهميته وامتداد مساحته . اندهش رمضان لمنظر تلك الحركة الضخمة في ذلك السوق المزدحم الذي تتنوع به البضائع والأسعار بشكل كبير جدا يصعب وجوده في أي سوق آخر . وخلال تجواله بهذا السوق بقي رمضان يلاحظ قيمة الأسعار بالليرة الايطالية وهي العملة السائدة آنذاك . وأثناء مروره أمام أحد المحلات التجارية لاحظ بهذا المحل وجود أكوام هائلة من الخرطوش النحاسي يشبه تلك الكميات التي قام هو بجمعها في مقر إقامته لغرض اللعب بها . اقترب رمضان من هذا المحل باندهاش حيث لاحظ أن صاحب المحل يشتري كل كيلو غرام من هذا الخرطوش بثلاث ليرات وعندها تذكر رمضان الكمية الكبيرة التي توجد لديه في مقر إقامته . وبكل سعادة أخذ يحسب تقديريا قيمة بيعها وهي التي كان سبب جمعه لها لا يتعدى اللعب ! لم يحاول رمضان أن يعود حالا إلى مقر إقامته لاستجلاب الكمية الموجودة لديه وبيعها، وذلك

لأن الوقت سيكون متأخرا للعودة خاصة وأن صوت المدفع انطلق معلنا ساعة الغداء في منتصف النهار .

ومنذ ذلك اليوم أصبح رمضان شخصا متمرسا في مجال عمله، وأصبح لديه كثير من طلبات شراء السمك وصدف البحر التي كان يتعين عليه تلبيتها، وهو ما كان يقوم به فعلا بكل امتنان وطيبة بال لأن العمل بالنسبة له أصبح ضروريا كمصدر للدخل يعالج به شرخ الألم الذي يعتصره والذي كان يتجسد في شعوره بالوحدة حتى عندما يكون صحبة الآخرين . وبذا أصبح العمل بالنسبة اليه - إضافة إلى أهميته في الكسب المادي - مصدر توازن نفسي يزيح عن كاهله ثقل الحياة وظروفها الصعبة .

وعندما تحصل رمضان على أربعين ليرة من مبيعات السمك والصدف خلال رحلته الأولى عاد إلى مقر إقامته حيث بحث في حطام الأشياء التي كانت ملقاة حول الفجوة التي يوجد بها سرير نومه الشهير فوقع بصره على كيس قُطع الجزء الأعلى منه فوجده مناسبا لنقل خراطيش الظرف النحاسي الفارغ فملأ هذا الكيس بحوالي عشرة كيلو غرامات منها وسار في اتجاه المحل الذي يمتلكه أحد اليهود في سوق الفندق حيث قام التاجر بوزن البضاعة وتسديد ثمنها حسب الوزن .

وهكذا أصبح الدخل اليومي الإجمالي لرمضان يعادل دخل الشخص المحترف للتجارة لأن الدخل اليومي للعامل آنذاك كان يبلغ خمسا وعشرين ليرة . لم يقم رمضان بصرف أي مبلغ من النقود التي تحصل عليها لأن طبيعة حياته كانت روتينية ولم يكن هناك مجال لصرفها خاصة وأنه كان مشغولا طوال اليوم بتجهيز بضاعته وحملها إلى مشتريها . وفي تلك اللحظة كان معدل الدخل اليومي لرمضان حوالي ستين ليرة، كما أنه خلال اليومين الأخيرين من الأسبوع استطاع لمرتين متتاليتين نقل كميات من السمك والصدف وبيعها مما جعل دخله اليومي يتراوح بين مائة ومائة وعشر ليرات . وبهذا استطاع الصبي بشكل غير متوقع ولا مألوف أن يحقق دخلا أسبوعيا يتراوح بين خمسمائة وخمسين وخمسمائة وثمانين ليرة، وهو ما يعادل ثلاثة أضعاف الأجرة التي يحصل عليها أسبوعيا أحد العمال المهرة، إضافة إلى أن ساعات عمله اليومي لم تتجاوز أربع ساعات وفي أحيان كثيرة لا تتجاوز حتى ثلاث ساعات .

ارتاح رمضان لهذا النوع من العمل السهل والممتع في آن واحد، خاصة وأنه عمل لا يخضع فيه لأوامر أو ملاحظات أي شخص آخر، ولذا فهو عمل حر بشكل كامل، وهذه هي الميزة الأساسية التي يتسم بها الوضع الجديد الذي وجد نفسه فيه دون أن يختاره .

وعقب ثلاثة أشهر من العمل المتواصل لم يستطع رمضان أن يقرر أين يحتفظ بكل تلك النقود التي اكتسبها من عمله اليومي . كان قد سبق له أن أخفى نقودا في ما لا يقل عن عشرين مكانا مختلفا وذلك خوفا من أن يضع جميع بيضاته في سلة واحدة، وكانت احتياجاته قليلة جدا مما جعل المبالغ التي جمعها تكاد تبقى كما هي لأن مصروفاته اليومية لم تزد عن أربع ليرات، وهو مبلغ زهيد مقارنة بما كان يكتسبه يوميا .

كان رمضان في عمر صغير لا يسمح له بعد بالتفكير في استثمار المبلغ الكبير الذي جمعه في شيء آخر، ولم تكن تتوفر لديه الخبرة اللازمة للقيام بذلك، فقد أمضى سني عمره القليلة في فقر مدقع، وأمضى السنة الماضية من عمره منزويا في معسكر بائس، ولكنه - رغم ذلك - كان أمرا مقبولا ومفيدا بالنسبة له . بذا كانت الخبرة العملية لرمضان تنحصر في الثلاثة أشهر الأخيرة التي استطاع فيها أن يحقق الكثير، وأن تصبح نظرته إلى الحياة نظرة واقعية بدلا من النظرة البدائية أحادية الجانب التي ملأت ذهنه من قبل عندما كان يعيش في بيئة منغلقة عن أي حراك . وعلى الرغم من التعليم الذي تحصل عليه خلال السنة الماضية عندما كان يحضر متخفيا الدروس الخاصة بالجنود، إلا أن هذا التعليم لا يتكامل مع التفاعل المستمر مع البيئة الخارجية وهو التفاعل الذي لم يتأتى إلا خلال الثلاثة أشهر الأخيرة بشكل بدأ خجولا ثم تطور لحسن الحظ .

وهكذا بدا أن التعاسة التي أنهكها طول بقائها على كاهل رمضان أصبحت تنأى عن هذا الصبي المسكين مجبرة ورغما عن أنفها، مهزومة بفعل قدر أعلى أراد أن يرحم الصبي من هول العذاب المستمر الذي حوله إلى كائن محتقر، كما أراد أن يعوضه جزئيا عن المآسي الكثيرة التي تعرض لها، وأن يقدم له على طبق من فضة وسيلة سهلة ومربحة لكسب النقود التي تمثل في نهاية المطاف إحدى وسائل تحقيق الراحة، وهو أمر يمكن للمرء تفهمه، ولكن رمضان لم يكن يعرف كيف يستخدم هذه النقود، ولم يفكر أصلا بمسألة استثمارها .

بذا بدأت عجلة الأقدار الإيجابية تدور وتجلب معها لرمضان رزقا من حيث لا يحتسب وبطريقة مغرية وإرادية، ولم يكن ذلك كله سوى فيض من رحمة أشبه ما تكون بدفق هائل من المياه التي لا يستطيع أن يصمد أمامها أي سد مهما تعاظم بناؤه.

إنه المكتوب كما يعبر عنه العرب، أي أنه شيء مقدور وكأنه مخطوط على جبين المرء مثلما تعبر عنه القدرية في أذهان العرب، وهي تمثل معتقدا يضرب بجذوره في العقلية والثقافة والعقيدة التي تسود عند العرب . هذه القدرية لا تعني فقط أن هناك أشياء

تحدث بشكل غير متوقع في حياة الإنسان ولكنها تعني أيضا أن هذه الأشياء مقدرة بشكل مسبق وتحدث وكأنها سلسلة من الأحداث والوقائع التي لا يستطيع أي كان أن يمنع حدوثها أو أن يغير منها بأي مقدار مهما كان ضئيلا . أجل، كل ما جرى لرمضان بدا وكأنه أمر غريب غير قابل للتصديق . لم تتخل عن رمضان الأقدار ولم تتركه حتى عندما تحققت له السعادة التي لم يكن يتوقعها وذلك بفعل الكمية الكبيرة من النقود التي تحصل عليها بطريقة جد سهلة .

أجل، إنه المكتوب !



الفَصْلُ الثَّانِي

كرم وسخاء

لم يدر بخلد رمضان أن عهد الانشراح الذي طل لم يكن سوى غيض من الفيض الذي سيجلبه القدر . فبعد حوالي أربعة أشهر على ممارسة الصبي لنمط حياته الجديدة، وبينما كان في أحد الأيام جالسا في مكانه المفضل في مقهى السوق، جرت معركة دامية بين مجموعة من الصبيان كانوا يعملون في مجال تلميع الأحذية . وحسب ما استطاع فهمه وهو يشهد الحدث وما صاحبه من هرج ومرج أن سبب النزاع كان يرجع إلى استحواذ أحد الصبية بطريقة غير مشروعة على المكان الذي يقوم فيه بتلميع الأحذية .

كانت المعركة التي جرت كبيرة لدرجة استدعت تدخل الشرطة الايطالية التي استطاعت خلال دقائق قليلة عن طريق توجيه ضربات رادعة بالعصي لأطراف المعركة أن تسيطر على الموقف وتعيد الهدوء إلى ذلك المكان . عندها احتمى ثلاثة من الصبيان بطريق الصدفة في مكان قريب جدا من رمضان، وكانوا يجهشون بالبكاء الشديد الذي كانوا يحاولون كتمانه كي لا يسمعه الآخرون، والذي يرجع إلى أنهم فقدوا في هذه المعركة الصناديق الصغيرة التي يستعملونها في عملية تلميع الأحذية بما تشمله من فُرش وورنيش ومعدات أخرى ترتبط بهذا العمل الذي كانوا يمارسونه من اجل كسب لقمة العيش .

وحسبما فهمه رمضان من هذا الموقف فإن البكاء الحار لهؤلاء الصبيان لا يرجع فقط إلى فقدانهم معدات تلميع الأحذية بل إلى خوفهم من التعرض أيضا للعقاب من قبل أسرهم اذا عادوا إلى بيوتهم دون نقود ودون عدة الشغل، وهو ما يعني في المحصلة الأخيرة أنه بغياب مصدر الدخل فإن مصيبة الجوع ستداهم أسرهم وبخطى حثيثة . وهكذا مكث هؤلاء الصبية في حالهم الحزين يبكون بحرقة شديدة ولكن بصوت منخفض، وهو ما دفع رمضان إلى أن يقرر مساعدتهم مثلما ساعده الآخرون في حالات العسرة، وبالسرعة التي عرفت عن رمضان في اتخاذ القرارات اتجه نحو هؤلاء الصبية الحزاني مبلغا إياهم أنه لا داعي للاستمرار في حالة الحزن هذه لأنه سوف يقوم بتعويض خسائرهم بشكل يستطيعون معه استئناف عملهم . استمع الصبية إلى كلام رمضان بدهشة شديدة وهو يتحدث اليهم بلغة واثقة ولم يستطيعوا فهم مقصده حيث أنهم كانوا للوهلة الأولى يظنونه

إيطاليا وأنه يريد أن يسخر منهم لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن صبيا صغيرا مثلهم بإمكانه أن يتوفر لديه المال الكافي لشراء معدات تلميع الأحذية لهم لكي يستطيعوا الاستمرار في العمل ؛ بيد أن رمضان كانت لديه القدرة المالية بالفعل، بل كان لديه من المال ما لا يستطيع أن يعرف ماذا يفعل به، ثم ان حجم الألم الذي استشعره رمضان وهو يشاهد هؤلاء الصبية الحزانى كان قد دفع به إلى اتخاذ القرار بمساعدتهم حيث اتجه نحوهم وهم لا يزالون يقبعون في حالة الحزن، فقد كانت الكارثة التي أحلت بهم أكبر مما يبدو للوهلة الأولى، وقال لهم بإصرار : تعالوا معي، سوف أشتري لكم الصناديق الخاصة بتلميع الأحذية مشتملة على كل المعدات الضرورية لهذا العمل حتى لا تتعرضوا للتوبيخ من قبل أمهاتكم . قال لهم ذلك وهو يستشعر بمرارة أنه كان بوده أن يكون مثلهم وأن يتعرض للعقاب من قبل أمه التي فقدها .

ذهب الصبية مع رمضان بنوع من التلكؤ وعدم التصديق لما سمعوه عنه إلى أن وصلوا إلى ورشة نجارة يمتلكها أحد الليبيين، وهي عبارة عن ورشة صغيرة تقع في أحد الشوارع الجانبية التي تتصل بالميدان الرئيسي . كان صاحب هذه الورشة رجلا بالغا هادئا واسع البال، استمع بأناة وبابتسامة هادئة على شفتيه إلى الحديث المضطرب لهؤلاء الصبيان الأربعة، وبروح تنم عن حب الخير وروح المساعدة التي يتسم بها كل ذي قلب رحيم، حيث قاطع فجأة دفق حديثهم قائلا لهم إنه يريد أن يتعاون معهم في مطلبهم لو أنهم تحدثوا فقط واحدا تلو الآخر كي يستطيع أن يفهم أخيرا طبيعة ما يريدونه تحديدا .

عندها أشار الصبي الأكبر سنا إلى الآخرين بالسكوت وشرع يشرح للنجار مطلبهم . ومثلما يفعل كل إنسان طيب، فلم تكن للنجار أية تحفظات على إنجاز العمل الذي يطلبونه، لكنه أراد فقط أن يعرف من ذا الذي سوف يقوم بدفع أجرة العمل خاصة وأنهم صبية صغار لا يزيد عمر أكبرهم عن عشر سنوات، وهو ما جعله مترددا طالبا منهم إيضاح مسألة تسوية تكاليف قيمة العمل . وفي هذه اللحظة تدخل رمضان موضحا للنجار أنهم يريدون الحصول على أربعة صناديق خاصة بتلميع الأحذية تشمل جميع متطلبات القيام بهذه المهمة، وأنه شخصيا سوف يدفع ثمن هذه الصناديق بشرط أن يتم انجازها لهم مساء نفس اليوم . وعلى إثر ذلك علق النجار قائلا : كل شيء ممكن إنجازه بعون الله، لكنني لا أستطيع أن أنجز لكم هذا العمل إلا إذا قمتم بدفع نصف قيمة أجرة العمل مقدما لأنني لا يوجد لدي المال الكافي لشراء الخشب اللازم لصناعة هذه الصناديق .

ولما لم تكن لدى رمضان أية مشكلة في ذلك فقد سأل النجار عن قيمة الدفع المقدم

من أجل إتمام صفقة الاتفاق بينهم . كان النجار يعتقد أن رمضان واحد من هؤلاء الصبية الذين يعملون في مجال مسح الأحذية ولأجل ذلك جاء رده على النحو التالي : حيث أنكم صبية محترمون، وتعملون على الحصول على مصدر رزقكم بطريقة شريفة، فإنني سوف أحسب لكم قيمة الصناديق بسعر خاص، كما أن نوعية الخدمة التي سأنجزها لكم ستكون على أفضل ما يكون وبسعر يعادل (160) ليرة . عندها أخرج رمضان مائة ليرة من جيبه وأعطاها للنجار قائلا له أنهم سيعودون إلى الورشة حوالي الساعة الرابعة مساءً، ويأملون في أن تكون طلبيتهم جاهزة عند ذلك الحين .

وبعد إتمام الاتفاق مع النجار بشأن الصناديق شرع يرتاد المتاجر الأخرى يتبعه الصبيان الثلاثة الآخرون بغية شراء باقي المستلزمات الضرورية لمسح الأحذية حتى تصبح الصناديق الأربعة جاهزة للاستعمال . اشترى رمضان فُرشا من أجود الأنواع والورنيش والدهان الخاص بتلميع مختلف أنواع الأحذية، وكل الأشياء التي رآها الصبية - باعتبارهم خبراء في هذه المهنة - ضرورية لعملية تلميع الأحذية . بلغت تكاليف كل هذه المستلزمات حوالي أربعمائة ليرة دفعها رمضان بكل سرور واستعداد، وكان سعيدا أن تمكن من إنجاز مثل هذا المعروف .

وبالنظر إلى أن كل هذه المجريات تطلبت وقتا فقد انتبه رمضان إلى أن موعد تناول طعام الغداء قد انقضى ولهذا أخذ الصبية الآخرين إلى مطعم عربي يوجد داخل السوق . ومن أجل أن يتفادى أي سوء فهم من قبل صاحب المطعم حول مدى قدرة صبيان على دفع فاتورة الطعام فقد بادر إلى دفع قيمة طلبياتهم مقدما، وقد كانت تلك القيمة قليلة جدا لم تتجاوز ست ليرات مقابل وجبة شهية للصبيان الفقراء الذين أصبح يزداد ارتباطهم المطلق برمضان باعتباره الشهم صاحب كل هذه المكارم الذي يستحق منهم أن يدافعوا عنه بكل ما لديهم من قوة، وهو الذي أخصهم بانحيازه وتفهمه لهم وكرمه تجاههم . لذا أقسم هؤلاء الصبية المساكين بأنهم سوف يظلون إلى الأبد أصدقاءه المخلصين، وأنهم لن يخونوه أبدا، وأنه بإمكانه الاعتماد عليهم في أي شيء، وهو ما أنتج بالفعل تضامنا رباعيا يقوم على الصداقة وثيقة العرى .

كانت الصناديق الأربعة بكامل معداتها جاهزة لدى النجار مثلما تم الاتفاق معه بشأنهم، جديدة تلمع، مصفوفة واحدا بجوار الآخر على منضدة النجارة ؛ فلقد تأثر النجار كثيرا بصلابة الإرادة لدى هؤلاء الصبية، ولذا أنجز لهم هذه الصناديق بكل حماس وحرفية وإتقان، حيث كانت لا تكاد تقارن في جودتها بالصناديق القديمة التي كانت لدى الصبيان .

ومباشرة أخذ كل واحد من هؤلاء الصبية صندوقا منها وشرع يملؤه بالمستلزمات الخاصة بتلميع الأحذية التي تم شراؤها وذلك بطريقة احترافية تبرهن على تمرسهم التام في أداء هذه المهنة . كما قام الصبية أيضا بملء الصندوق الرابع بالتجهيزات الخاصة بالتلميع ظنا منهم أن رمضان سوف ينضم إليهم في ممارسة هذا العمل، ولذا عمدوا إلى وضع هذه التجهيزات في صندوقه بكل حرص وعناية .

ولقد كانت دهشة الصبيان كبيرة جدا عندما أبلغهم رمضان أنه لا يرغب في استلام الصندوق الرابع لأنه لا يعرف كيف يمارس هذه المهنة، ولأنه يريد لهم أن يأخذوه معهم تحسبا لأي خلل يحدث بأي من الصناديق التي استلموها، كما أنهم يمكنهم تسليمه إلى أي صديق آخر لديهم يريد كسب العيش من خلال تأدية هذا العمل . عندها قام أكبر الصبية سنا بتوجيه الشكر إلى رمضان، ولأنهم لم يقدموا أنفسهم إلى رمضان من قبل فقد بادر الصبي الأكبر سنا بتقديم نفسه قائلا لرمضان أن إسمه علي وأن الصبيين الآخرين هما أخواه وأنهم ثلاثتهم يشعرون أنهم مدانون لرمضان إزاء كرمه الكبير، وأن الصندوق الرابع الذي أهداهم إياه بكل سخاء سوف يعطونه لأحد أقربائهم وهو صبي يكبرهم سنا بعض الشيء إسمه يوسف، وهو شخص إضافة إلى كونه من أقربائهم فهو شخص عزيز عليهم ولديه مهارات متعددة . وهكذا أصبح هذا الصبي الخامس بشكل غير مباشر عضوا جديدا في هذه الجماعة الغريبة التي تشكلت بطريقة أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، حيث كان إتحادهم معا مصدرا لقوتهم وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ومصالحهم ضد كل من تسول له نفسه المساس بهم واستغلال صغر سنهم لإلحاق الأذى بهم .

خرج الصبية إلى معترك العمل بهذه الصناديق الجديدة ذات الجودة العالية التي هبطت اليهم هدية من السماء بفعل الجود الذي تفضل به رمضان عليهم، كما قرر الصبية تغيير المكان الذي يمارسون فيه عملهم في مسح الأحذية بشكل يتناسب مع الصناديق والمعدات الفاخرة التي توفرت لديهم، وقرروا ارتداء أزياء أفضل قليلا وأكثر نظافة من ذي قبل وذلك من أجل خدمة زبائن ذوي مستوى اجتماعي واقتصادي أرفع . إتفق الصبية مع رمضان أن يلتقوا معه خلال اليوم اللاحق في الميدان الرئيسي بمدينة بنغازي، وهو المكان الذي اختاره علي لممارسة المهنة بوضعها الجديد وبالشكل الذي يعكس حقيقة أنه يمثل رئيس هذه المجموعة الأربعة من الأطفال الذين يمارسون سويا تلك المهنة .

وفي اليوم التالي قام رمضان بإنجاز عمله اليومي المعتاد واستلام قيمة عمله من النقود ثم توجه بسرعة إلى لقاء أصدقائه في مظهرهم الجديد، حيث وجد أنهم قاموا بتخصيص

مكان محدد من الأماكن الراقية لكل واحد منهم لممارسة المهنة، وأنهم أصبحوا يتحصلون على دخل أفضل كثيرا من ذي قبل كما أنهم أصبحوا يعملون بطريقة جديدة حيث يرافق كل واحد منهم صبي آخر في نفس عمره يتولى الدعاية لمستوى الخدمة التي يقدمها رفيقه ودعوة الزبائن لاغتنام الفرصة بتلميع أحذيتهم . أما الصبي علي الأكبر سنا في المجموعة فقد سلم مهام المهنة إلى رفيقه لكي يتفرغ لمهمة جمع النقود التي اتفقوا على أن يخصصوها لصالح المجموعة ككل .

استقبل الصبية رمضان بسرور بالغ، وقاموا بالسلام عليه بحرارة، وقدموا له علبة صغيرة قائلين له : ما يوجد بهذه العلبة مبلغ مالي نقدمه لك، وهو يمثل ما اتفقنا جميعا على تخصيصه لك عرفانا بالجميل وتقديرا لسخاء عطائك غير المشروط تجاهنا . وعندما لاحظ علي أن رمضان كان يحاول عدم استلام المبلغ الذي خصصوه له أبدى إصراره على ضرورة أن يقبل رمضان استلامه لأن هذا الأجراء تم باتفاق جماعي بين الصبية، واذا لم يقبل رمضان استلامه فإنهم سوف يفسرون هذا السلوك بأن رمصان يشعر بالتكبر نحوهم وازدراء حيالهم وهم الذين قرروا جميعا تخصيص مبلغ مالي يسهم به كل واحد منهم يوميا لغرض تسليمه لرمضان، ثم استطرد علي قائلا : إذا كنت يا رمضان الصديق الوفي والكريم الذي عرفناه، ووفقا لما ذكرته لنا بأنك قادر على مزيد المساعدة لنا، فإننا قمنا بإحضار أربعة صبيان آخرين من أقربائنا من أجل معرفة ما إذا كان بإمكانهم الحصول على صناديق مماثلة لممارسة مهنة تلميع الأحذية، حيث أنهم سيعملون تحت مسئوليتي الكاملة والمطلقة، وبطبيعة الحال، فإننا سنقوم كل يوم في مثل هذه الساعة بتسليمك قيمة مشاركتنا التي يتوجب عليك استلامها لأنه من العدل أن نتوجه اليك بهذا المبلغ وأنت الذي أسهمت بسخاء بالغ في تحقيق العيش الكريم لنا، كما أنه من واجبنا أن نقابل سخاء كرمك بالعرفان وفي حدود ما نستطيعه .

وعندما لاحظ رمضان الإصرار الذي كان عليه الصبية وجد نفسه شبه ملزم بقبول ما اتفقوا عليه من إجراءات، وبعد قليل اصطحب علي رمضان إلى مواقع العمل التي يوجد بها أخواه وقريبه يوسف الذي أُعطى له صندوق تلميع الأحذية الرابع قام بعدها علي بتقديم يوسف إلى رمضان ثم عرفه على كل واحد من الصبيان الذين كانوا يتعلمون كيفية تلميع الأحذية إلى جانب قيامهم بالدعاية لزملائهم الذين يقومون بهذا العمل، وهو ما جعل رمضان يتحمس لمساعدتهم من أجل أن يعملوا هم أيضا في مجال تلميع الأحذية وبذلك يستطيعون أن يساعدوا عائلاتهم الفقيرة ذات الموارد القليلة ان لم تكن المنعدمة .

على إثر ذلك قام كل واحد من الصبيان الأربعة بإعلام رمضان وبكل صراحة عن حاجاته الأساسية آملا أن يتسع صدره الحنون لمبدأ تقديم المساعدة الضرورية له لولوج باب العمل في مجال تلميع الأحذية .

وحيث أن رمضان وفي كل الأحوال ليس لديه ما يفعله بالنقود التي اكتسبها من عمله فلم يترك المجال لهؤلاء الصبيان أن يتوسلوا إليه لمساعدتهم بل أشار اليهم بكل حزم بالتوقف عن الحديث عن المآسي المستمرة التي يعيشونها، ثم توجه نحو علي الذي يعتبر الرئيس المعترف به من قبل تلك المجموعة الصغيرة من العمال الصبيان قائلا له : سوف أذهب إلى النجار وأطلب منه أن يجهز صناديق تلميع الأحذية لكل هؤلاء الصبيان، كما يجهز صناديق إضافية في حالة إذا ما كان هناك صبية آخرون يريدون الانضمام إلى مجموعة العمل الخاص بتنظيف الأحذية وتلميعها، وبإشارة منه قدم التحية لافراد المجموعة وغادر من أجل تنفيذ ما وعدهم بتحقيقه .

اتجه رمضان مباشرة إلى ورشة النجار الكهل طالبا منه إعداد عشرة صناديق أخرى لتلميع الأحذية، على أن ينجز لهم أربعة منها في نفس اليوم وينجز الباقي في اليوم اللاحق ثم قدم له مبلغا ماليا كافيا كعربون يضمن له الالتزام بدفع باقي المبلغ بعد الإنجاز بحيث يؤدي عمله بعيدا عن أية شكوك حول مسألة الدفع، انطلق بعدها رمضان لمواصلة رحلة استكشاف معالم البيئة المحيطة به .

وعندما حل منتصف النهار لم يشأ رمضان أن يزعج السيد بيبيه طباخ المطعم وقرر أن يتناول بمطعم آخر وجبة أخرى شهيرة لدى هذا المطعم وهي طبق العصبان مع البطاطا المقلية . وعندما أراد أن يدفع قيمة الوجبة انتبه إلى الصندوق الصغير الذي قدمه له علي، وعندما فتحه وجد به اثنتي عشرة ليرة، وهي تمثل قيمة المساهمة لكل واحد من الصبيان الأربعة أي بواقع ثلاث ليرات لكل واحد منهم حسبما أقروه في اتفاقهم . شعر رمضان بالسعادة الكبيرة إزاء هذا المبلغ الزهيد لأنه في نهاية المطاف شيء ذو دلالة وهو ما جعل ابتسامة تدل على التفهم تعلو شفتيه، لأن هذه الليرات القليلة تمثل عائدا ماليا غير متوقع جاء نتيجة كرمه الخالي من أية مصالح ذاتية .

أمضى رمضان الساعات الأولى من المساء في تجهيز بضاعته للبيع، وهي البضاعة التي تمكن من خلال عائداتها أن يقدم يد العون إلى هؤلاء الصبيان الفقراء، وقبل الساعة الرابعة مساءً بقليل اتجه نحو النجار وفقا لما جرى معه من تفاهم، لكنه مر أولا بالميدان الرئيسي واصطحب معه عليا وأربعة من الصبيان الذين كادوا يطيرون فرحا عندما علموا

أنهم ذاهبون لاستلام صناديق تلميع الأحذية من النجار . وقبل أن يذهبوا للنجار قام رمضان بشراء المعدات الخاصة بتلميع الأحذية لوضعها في الصناديق ثم أموا الورشة حيث وجدوا صناديقهم جاهزة مصفوفة واحدا بجوار الآخر على المنضدة . وبكل سعادة وبهجة بدأ الصبيان في وضع معدات التلميع التي اشتراها لهم رمضان قبل قليل داخل الصناديق .

كانت سعادة هؤلاء الصبية الصغار الفقراء بالغة إلى أكبر حد حين وجدوا أنهم توفرت لهم معدات تلميع الأحذية كاملة وبأفضل ما يمكن للشروع في ممارسة هذا العمل من أجل تخفيف التعاسة من على كاهلهم، وتوجهوا بالشكر لرمضان، ذلك الصبي الغريب الذي كان يتحدث الايطالية بطلاقة وكأنه ايطالي . عاد الصبية يختالون فرحا إلى الميدان الرئيسي في بنغازي وهو المقر الذي تعقد به لقاءاتهم حيث توجهوا بالشكر البالغ أيضا لعلي لأنه هو الذي أوصى رمضان بهم خيرا ثم أقسموا جميعا على قبولهم الانضمام إلى جماعة الصبيان العاملين في مجال تلميع الأحذية، وعلى التزامهم بتنفيذ كل الشروط التي اتفق عليها باقي زملائهم .

استمع علي إلى كل عبارات الشكر والثناء، ثم قام بتوزيع العمل على هؤلاء الصبية الذين انطلقوا للعمل وبقي علي منفردا مع رمضان الذي أعلمه أنه طلب من النجار انجاز ستة صناديق أخرى يتم استلامها في يوم الغد وذلك لغرض تسليمها لأي صبيان آخرين يرغبون بإخلاص في الانضمام للمجموعة، ويقبلون بشروط الانضمام لكي يصبحوا صفا واحدا يعمل بعزة وانسجام .

وفي اليوم اللاحق تم قبول ستة صبيان آخرين تتراوح أعمارهم بين سبعة وعشرة أعوام وكلهم كانوا نشطين يقظين ممن عضهم الفقر بنابه، وكانوا لا يكادون يصدقون أنه أصبح بإمكانهم كسب لقمة العيش من خلال العمل في مجموعات وهو ما سوف يساعدهم على توفير الحماية لهم وتجاوز أية مشكلات قد تعترض طريقهم .

ظل رمضان يمارس عمله المقدس الخاص ببيع السمك والصدف البحري كل صباح، وعندما ينجز هذا العمل كان يتوجه للالتقاء بعلي الذي كان يسلمه كل يوم مبلغ ثلاث ليرات عن كل صبي حسبما تم إقراره، وبهذه الطريقة الغريبة وغير المتوقعة توفر لدى رمضان اثنتان وأربعون ليرة، ولم يصدق رمضان أن كل ذلك بدأ من خلال وقفة تضامن وكرم مع ثلاثة من هؤلاء الصبيان الفقراء، وتطور إلى مكسب مالي رفضه رمضان في البداية لكنه اضطر إلى قبوله تفاديا لسوء فهم قد يُظن منه أنه مهووس بنوع من التكبر في

حين أن ما قام به ليس سوى مساعدة سخية للمحتاجين، خاصة وأنه لم يكن يعرف ماذا يفعل بكل تلك النقود التي توفرت له من عمله، وها هو ذا ينفق هذه النقود على المحتاجين ثم تعود اليه مرة أخرى أضعافا مضاعفة بفعل إرادة إلهية عجيبة فرضت عليه أن يعيش كل هذه الظروف التي لم يصنعها ولكنه كان مضطرا أن يعيشها، وهي التي قادت إلى حصوله على مصدر دخل غير متوقع يزيد من كمية المال الذي انهال عليه .

كانت كمية الخرطوش التي دأب على بيعها رمضان قد تناقصت بشكل كبير . وفي أحد الأيام كان جالسا على الأرض يجهز جزءا مما تبقى منها للبيع، وبمحض الصدفة مد أصابع يده في الرمل فوجد كميات كبيرة من شظايا الرصاص الذي كان الجنود يطلقونه أثناء التدريب اليومي لهم، ولاحظ أن الشكل الخارجي لهذه الشظايا يماثل الخرطوش الذي كان يبيعه للتاجر اليهودي، وخطر بباله أنه قد يكون ممكنا بيع هذه الشظايا أيضا ولكي يقطع الشك باليقين أخذ معه عينة منها لكي يريها لهذا التاجر .

وفي اليوم التالي أخذ إلى السيد بيبيه الطباخ كمية السمك والصدف كالمعتاد ثم رجع إلى مقر إقامته وحمل معه - مثلما كان يفعل دائما - حوالي عشرة كيلو غرامات من الخرطوش إضافة إلى العينة من شظايا الرصاص . وبعدما أتم عملية بيع الخرطوش عرض على التاجر اليهودي هذه الشظايا الذي قام بفحصها جيدا ثم أبلغه أنه يمكن له أن يشتريها أيضا ولكن بسعر ليرتين اثنتين للكيلو غرام الواحد لأنها أقل قيمة من الخرطوش، وقد كان ذلك نبأ سعيدا جدا لرمضان لأنه كان يعلم أنه يتوفر منها كميات كبيرة جدا ملقاة على الرمل بجوار حائط الخرسانة الذي كان يرمي تجاهه الجنود رصاص بنادقهم أثناء التدريب .

وهكذا استطاع رمضان أن يجد بديلا عن كمية الخرطوش التي تكاد تنفذ، وكان سعيدا باستكشاف مصدر دخل جديد سهل ومتوفر، لكنه لم يدر بعد ما الذي سوف يفعله بكميات النقود التي أصبحت بحوزته . أما مصدر الدخل الجديد فقد سعى إلى رمضان دون أن يسعى اليه لأن رمضان لم يكن حريصا على تراكم أمواله، وكان جل همه منصبا على القيام بنشاط ما يخرجه من عزلته . لم يكن رمضان أنانيا يفكر في نفسه عندما كان يعمل، بل كان حريصا على أن يشغل ذهنه بمسائل أخرى تبعد عنه تذكاره للمآسي الأليمة التي تعرض لها . وعندما تسيطر عليه ذكريات الماضي الحزينة كان رمضان يعمد إلى أن يتوقف فجأة عما كان يعمل، ويتنفس الصعداء ثم يدور بناظريه ذات اليمين وذات الشمال دون أن ينظر فعلا إلى أشياء حوله لأن نفسيته تعكرت بفعل آلام الماضي الحزين، ثم يعض

على شفتيه حزنا ويترك ما كان يفعله من أمور وينزوي إلى الفجوة التي اتخذها سكنا له ويرمي بجسده في سرير علبة القش ماكثا بضع ساعات ينظر إلى أعلى دون أن يكون نظره مركزا على رؤية شيء ما، ويتحول حزنه بذلك إلى إحساس بالفراغ المطلق وكأنه كتلة من لا شيء دون حياة أو وجود، ويبقى على هذه الحال إلى أن يغلبه النوم وينطلق في سكون مع عناصر البيئة الرحيمة التي تغدق على أعماق نفسه طمأنينة وتوقد شعلة الحياة في نفسه وتأخذ بيده بلطف وعناية لكي يثق بها، وتقوده نحو اللاشعور أي إلى عالم الأحلام حيث الأنوار المتسقة البعيدة التي تأتي مع الزمن اللانهائي، وخلال لحظات قليلة يتجاوز ذاته من خلال ردائين كونيين من الأنوار المتناسقة بشكل لا نهائي، تنفتح وكأنها فجوة في السماء تقود إلى الحب المطلق للأم الذي يستشعره بنو البشر . إنه ذلك الحلم الذي يفتح ذراعيه للحب الذي يمثل أقوى سلطة والذي من خلاله تسود لحظات إشعاع الأنوار الساطعة . أفاق رمضان على وقع القبلات الحلوة التي كانت أمه تطبعها على خده وهي تربت على جسده مسرورة بوجوده في جوارها وهي لحظات حلم كانت كافية لأن تطرد من عقل رمضان كل المشاعر السوداوية التي كانت تراوده وتمنحه بدلا عنها حماسا وعزما .

لقد تعلم هذا الصبي أنه من خلال عمله والدخل الذي يتحصل عليه من ورائه يمكنه أن يقوم بفعل الخير، وأن يخفف من وطأة المعاناة التي يعيشها الكثيرون اذا ما توفرت الظروف الملائمة للقيام بذلك وهو ما جعله يثمن كل مصادر الدخل التي توفرت له وما يمكن له من خلالها أن يفعله وهو ما جعله أكثر انشراحا، خاصة وأنه في الآونة الأخيرة لم يكن منعزلا عن الناس مثلما كان سالفا لأنه أصبح لديه صديق صدوق مثل السيد بيبيه الطباخ الذي كان يستقبله دائما بابتسامة عريضة وبكلمات لطيفة وبالمودة الصادقة نحوه ولأنه أصبح لديه أصدقاء من الصبية الصغار الذين استطاع أن يوفر لهم الظروف الملائمة لمساعدة أسرهم التي تعيش ظروف الفاقة والبؤس .

ظل رمضان يمارس حياته الاعتيادية التي كان يكسب خلالها حوالي ثمانمائة ليرة اسبوعيا . وفي يوم من الأيام انتحى به علي جانبا لكي يتحدث اليه حديثا خاصا قائلا له : بالأمس جاء إلى بيتنا بعض الأقارب والجيران من الأصدقاء المقربين ساعدوا أمنا بعض المرات لأن أمي أرملة، وكانت رغبة هؤلاء الأشخاص تتمثل في انضمام أبنائهم إلى مجموعتنا إذا لم يكن لديك مانع من ذلك، والهدف هو حصول أبنائهم على بعض الدخل الذي يخفف عن أسرهم وطأة الفقر الذي تعيشه . إنني أشعر بضرورة أن أنقل اليك ذلك الأمر، لا لكي نستغل مشاعر التضامن مع الآخرين لديك، ولكن لأن هؤلاء الناس هم

فقراء وألحوا علي كثيرا أن أفاتحك بالموضوع لدرجة أنني لا أستطيع أن لا أفعل ذلك من أجلهم، وبطبيعة الحال فإن أبناءهم الذين يرغبون في الانضمام الينا هم أشخاص طيبون وأصدقاء لي أعرفهم جيدا وأتحمل كامل المسئولية في أن يكون سلوكهم جيدا داخل مجموعتنا . رد رمضان بعدم الممانعة، ولكي يبرهن على موقفه الموافق ذهب حالا إلى النجار لكي يطلب اليه تجهيز ثلاثين صندوقا لتلميع الأحذية تخصص لهؤلاء الأشخاص ولغيرهم ممن يكون انضمامهم إلى المجموعة مفيدا، وأبلغ النجار أنهم يرغبون في تجهيز خمسة صناديق يوميا لكي يتم إنجاز كامل العدد من الصناديق خلال ستة أيام .

وفي اليوم التالي قام علي منسق المجموعة باختيار خمسة صبيان لكي ينضموا إلى هذه المجموعة التي أصبح عدد أفرادها من العمال صغار السن يزداد بين الحين والآخر، ثم توجه بالدعوة الملحة لرمضان أن يتناول طعام العشاء في بيتهم قائلا له إن صاحبة الدعوة هي أمه معلومة، التي شأنها شأن الأقارب الآخرين لديهم الرغبة الشديدة في التعرف به لكي يتقدموا اليه شخصيا بالشكر على مساعدته للصبيان الآخرين، ورجاه بحرارة ألا يرفض دعوتهم لكي يسعدوا بعون الله بتقديم واجب الشكر له وإن كان قليلا .

كان رمضان قد أصبح معتادا بعض الشيء على استقبال عبارات الشكر والثناء وتقبل الدعوات التي توجه اليه بكل احترام حيث أبلغ عليا أنه يقبل هذه الدعوة بكل سرور ويسعده تحقيق التعارف مع أمه وباقي أقاربه . وعلى تمام الساعة السادسة مساءً كان رمضان قد انتهى من تجهيز بضاعته للبيع، فذهب إلى الميدان الرئيسي في المدينة لكي يلتقي مع علي وإخوته الذين كانوا بانتظاره هناك ثم توجهوا جميعا إلى منزل الأسرة الواقع في نهاية شارع زروق الرعيض . كان ذلك المنزل كبيرا ولكنه بدا مهملا بائسا بسبب انعدام الصيانة، لكن على الرغم من ذلك كان منزلا جذابا بسبب النظافة التامة والجو النقي الذي يسود داخله . كما أن قطع الأثاث القليلة الموجودة في المنزل كانت قديمة ولكنها مرتبة بشكل جميل .

كان بالمنزل عند قدوم رمضان سبعة أو ثمانية أشخاص في انتظاره بما في ذلك أم علي، وكانوا جميعا تقريبا أشخاصا كبارا في السن، حيث بدأوا في توجيه التحيات الحارة لرمضان، لكن أفضل عبارات الترحيب التي سمعها رمضان جاءت من شيخ في الثمانينات من عمره، وهو جد اثنين من الصبيان الذين تم انضمامهم للمجموعة في البداية واستطاعا من خلال العمل الذي توفر لهم تخفيف عبء المعيشة الثقيل عن كاهل أسرهم . صمت ذلك الشيخ برهة من الزمن، ثم قال بشكل كان له وقع خاص وبأسلوب مقنع : لابد أن

الله ونبيه لم يتخليا عنا لأنهما أرسلا بك الينا لكي تخرجنا من بؤس حياتنا . نرحب بك بيننا بحق الله الرازق .

بعد ذلك أتت النسوة يحملن قصعتين مملؤتين بالكسكسي، وجلس الجميع لتناول طعام العشاء كالمعتاد . كانت هذه الوجبة التي أعدتها معلومة ممتازة وتشبه تلك التي كانت تعدها أمه وتلك التي تناولها بالمطعم العربي، ولذا امتدح رمضان هذه الوجبة موجها شكره لأم الصبيان التي كانت بالغة السرور لوجوده في بيتها وكأنه هدية هبطت اليهم من السماء من أجل تخفيف آلام الأسرة وأسر باقي الصبيان الذين أتاح لهم رمضان فرصة العمل . كانت تلك الأم المسكينة تقوم الساعة الخامسة صباحا من كل يوم من أجل أن تبدأ مباشرة عملها في غسل الملابس لكل من يريد غسل ملابسه، وكانت فترة عملها اليومي المنهك تصل إلى عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة، وهو ما أرهقها كثيرا وهي في سن متقدمة من العمر . لكن المساعدة التي قدمها رمضان لأبنائها كانت هدية من السماء أتاحت لها فرصة ترك هذا العمل الاستعبادي الثقيل الذي أنهكها ؛ فمنذ أن قدم رمضان يد العون لأبنائها انتهى البؤس في بيتها، وأصبح ابنها علي الذي لم يكد يصل الربيع العاشر من عمره رب البيت الفعلي، بينما كان كثير من الأقارب والجيران لا يزالون يرسفون في وحل الحياة التعيسة .

وهكذا كان رمضان نجم المجلس باعتراف الجميع، وبعد أخذ ورد وتجاذب لأطراف الحديث تقدم المجتمعون إلى رمضان بالرجاء أن يقبل بانضمام أبنائهم الذين يتسمون بحسن المسلك والرغبة في العمل، وكان رد رمضان أن قبول أشخاص جدد في مجموعتهم من اختصاص علي، وإذا كان أبناؤهم بالمواصفات التي ذكروها فإن عليا لن يمانع في انضمامهم . أما علي فقد ملأت هذه الكلمات نفسه فخرا وأشعرته بأهمية دوره، ولذا نظر إلى رمضان نظرة عرفان وشكر ثم ذكر أنه يعرف هؤلاء الصبية شخصيا وأنه لا يرى مانعا من طرفه في قبولهم بالمجموعة إذا ما قبلوا بالشروط المتفق عليها للانضمام، وهي الشروط التي وضعت منذ بداية الشروع في عمل المجموعة وبدون ترتيبات مسبقة . ولما كان الجميع موافقا على قبول هؤلاء الأعضاء الجدد فقد اتخذ قرار جماعي يسعد هؤلاء الصبية ويتمثل في إقرار انضمامهم إلى المجموعة .

أمضى المجتمعون الليل في فناء المنزل، وتناولوا كؤوس الشاي عقب العشاء، وبعد أن أصبح الوقت متأخرا بعض الشيء استأذن الضيوف وشرعوا في مغادرة المنزل . أراد رمضان أن يستأذن هو الآخر ويغادر، ولكن ربة البيت معلومة لم تدعه يغادر ورجته بلهجة

حنان أن يمضي ما تبقى من الليل في المنزل لأنه من غير الصائب أن تدعه يغادر في تلك الساعة المتأخرة من الليل وأن يجوب الشوارع الخالية من الناس وهو طفل صغير لأن ذلك قد يكون مصدر خطر بالنسبة له . بل إنها طلبت اليه أن يسكن مع أبنائها في المنزل بعد أن علمت أنه يعيش وحيدا في هذه الدنيا وهو أمر محزن ومقلق لأي إنسان .

وهكذا نام رمضان على حصيرة صغيرة مثله مثل باقي أفراد الأسرة، لكنه كان أقل راحة بالنسبة له من سرير القش الذي كان ينام عليه لأن النوم على الأرض مباشرة باستخدام تلك الحصيرة يكون قاسيا على أعضاء الجسم . وفي اليوم التالي، وعقب أن شرب الجميع الشاي الذي أعدته معلومة حضر إلى المنزل عشرة صبيان جلسوا على الأرض مثلما هو معتاد عند الليبيين ينتظرون الإذن من علي في قبول انضمامهم إلى المجموعة، لكن عليا اختار منهم خمسة فقط تاركا الفرصة للآخرين للتقدم في اليوم التالي متى تحين فرصة قبولهم وعندما يتأكد أنهم يعرفون أساسيات ممارسة مهنة تلميع الأحذية .

اتفق رمضان مع الصبية على اللقاء ثانية، ثم عاد إلى مقر إقامته من أجل ممارسة عمله المعتاد الذي أصبح مقدسا بالنسبة له لأنه هو الذي منحه الفرصة لحل مشكلاته الخاصة ولمساعدة المحتاجين . وعندما انتهى من إنجاز التزاماته ذهب يتجول في سوق الفندق، وعندما حانت ساعة الغداء عند منتصف النهار اتجه صوب صاحبه السيد بيبيه الطباخ الذي استقبله ـ كعادته دائما ـ بكل سرور ومعاتبا له على تأخره في القدوم لتناول طعام الغداء معه سويا، لكن رمضان اعتذر له مشيرا إلى ظروف عمله المتعدد الجوانب، وهي التي لم تتح له الفرصة لكي يسعد بلقاء السيد بيبيه، خاصة وأن المسافة التي تفصل مقر عمله عن المطعم بعيدة نسبيا، لكنه أكد له أنه عازم على استمرار التواصل معه، ومصاحبته في تناول طعام الغداء . وعندما حل المساء ذهب رمضان للالتقاء بأفراد مجموعة الصبيان العاملين في مجال تلميع الأحذية حيث قام علي كالعادة بتسليمه قيمة المساهمة المالية اليومية لأعضاء المجموعة ثم ذهبا سويا يصحبهم الصبيان الخمسة الذين تم اختيارهم كأعضاء جدد إلى ورشة النجار لاستلام صناديقهم وفقا للاتفاق الذي تم مع النجار الذي سوف يقوم بعد ذلك بإنجاز ما تبقى من العدد المتفق عليه من الصناديق .

وبهذه الطريقة وخلال وقت قصير ازداد عدد أعضاء مجموعة الصبيان إلى اثنين وأربعين صبيا، منهم أعضاء عاملون وآخرون متطوعون وآخرون متضامنون وجميعهم تم توزيعهم على نقاط مختلفة في مدينة بنغازي وفقا لخطة ذكية أعدها علي بالخصوص .

وبالاتفاق مع رمضان فرض علي على الصبيان العاملين في مجال تلميع الأحذية اشتراكا جديدا بقيمة نصف ليرة يوميا يستلمها علي باعتباره رئيس المجموعة الذي يزود أعضاءها بالمعدات الجيدة اللازمة لممارسة هذه المهنة، ثم قرر علي حفاظا على الوقت والمال أن يشتري مستلزمات تلميع الأحذية من تجار الجملة لأنه بهذه الطريقة يوفر ما تتراوح نسبته بين ٪20 إلى ٪30 من قيمة الشراء .

كان أعضاء هذه المجموعة كلهم من الصبية، ولكنهم كانوا يتسمون بالفطنة لأن ضرورات العيش دفعت بهم دوما إلى معرفة المزيد من الأمور وتحمل كل المخاطر في ذلك من أجل الاستفادة من كل الظروف التي تمر بهم أو يمرون بها . كان للعوائد المالية الكبيرة التي تحصل عليها علي وأخواه دور فاعل في جعل بيت أمهم معلومة يمتلئ خيرا لأن دخلهم جميعا كان يفوق دخل أي شخص صاحب مهنة فنية، كما أن هذه الأسرة التي تعودت على حياة التقشف استطاعت عبر هذا الدخل أن تعيش حقا في خير ورخاء .

أما نجم المشهد رمضان فقد كان الصبي المدلل من قبل الجميع وخاصة من طرف ربة البيت معلومة التي قررت أن تترك عملها المضني السابق المتمثل في غسل الثياب المتسخة لمدة عشر ساعات يوميا، ولم تستطع ايجاد الطريقة المثلى التي تستطيع من خلالها أن تشكر رمضان على تحريره لها من عبودية عملها الشاق السابق، وكان هذا هو نفس شعور أقارب الأسرة وأصدقائها ممن يعمل أبناؤهم ضمن هذه المجموعة الغريبة حيث كانوا جميعا عاجزين عن شكر رمضان على حسن صنيعه تجاههم . وبعد بضعة أيام من إقامة رمضان في بيت السيدة معلومة شعر بعدم الراحة في النوم مفترشا الأرض لا يفصله عنها سوى حصيرة صغيرة فقام بشراء حشية رأى مثلها معروضا في السوق قام بدفع ثمنها وقيمة إحضارها إلى المنزل، استطاع بعدها أن ينام بشكل أكثر ارتياحا في مقر إقامته الجديد الذي أصبح بمرور الزمن أكثر تعودا عليه، ولم تعد ترق له حياة الوحدة والانعزال ولا حياة الهدوء المطبق الذي كان بالنسبة له أبرز مقومات الحياة الهانئة لأن نفسه شبعت مرارة من الاكتواء بنار الظروف السيئة التي توالت عليه وكادت تفقده صوابه .

وعلى هذا المنوال أمضى رمضان شهرين آخرين من العمل المتواصل دون توقف، وهو ما جلب له مبالغ مالية كبيرة تراكمت على مر الزمن مما أزعج عقله الصغير حول سبل الاحتفاظ بها، وبصراحة لم يكن يعرف كيف يستطيع إخفاءها، حيث كان دخله الأسبوعي يزيد على ألف وخمسمائة ليرة، وهو مبلغ يعتبر كبيرا جدا بمقاييس تلك الفترة من الزمان . وبالإضافة إلى ذلك لم يسع رمضان للبحث عن أية وسيلة يزيد بها من دخله مثلما يفعل

الأنانيون الذين لا يشبعون من طلب المال، بل كان منزعجا من المبلغ الذي كان متوفرا لديه، ولم يعرف ماذا يمكنه أن يفعل به، وباختصار شديد لم يكن رمضان يسعى إلى المال، بل كان المال هو الذي يسعى اليه، ولم يكن لديه بد من السير في هذا الطريق المريح . لأجل ذلك طلب من علي أن يسلمه النقود الورقية متى كان ذلك ممكنا لأنها تشغل حيزا أقل ويمكن الاحتفاظ بها بشكل أيسر، لكن الذي حدث هو أن النقود الورقية كانت كثيرة عددا وحجما . كان رمضان ذكيا ومثابرا، ولكن سنوات العسر والألم والفاقة أحدثت آثارها العميقة في نفسه .

وفي إحدى الليالي حضر إلى منزل معلومة ثلاثة شيوخ فقراء يعانون من بعض الأمراض كانوا قد سمعوا كثيرا عن رمضان، وكان هدفهم هو إتمام صفقة بيع وشراء معه، ولكنهم كانوا يعلمون أن مضيفته معلومة ذات قدرة كبيرة على التأثير عليه، ولذا ارتأوا التحدث اليها أولا لمعرفة رأيها بالموضوع قبل مفاتحة رمضان بشأنه . كما كان هناك أربعة شيوخ آخرين يرغبون في بيع محلاتهم التجارية بأسعار مناسبة لأنهم كانوا يرغبون في استعمال قيمة بيعها من أجل التوجه إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج حيث أن مكة المكرمة هي المكان الذي يؤمه كل مسلم مرة واحدة على الأقل في حياته متى توفرت له القدرة على ذلك . لم يكن هؤلاء الشيوخ الأربعة يعرفون اذا كان سيقدر لهم العودة من مكة المكرمة، ولذا رغبوا في بيعها قبل سفرهم .

كانت المحلات الأربعة محلات بيع خضروات وفواكه تقع على الشارع الرئيسي بالسوق وهو ما جعل حركة البيع رائجة، وهو أمر يشهد به اثنان من أحفادهم اللذان يعملان بهذه التجارة . كان أصحاب هذه المحلات شيوخا أجلاء ربطتهم بوالد معلومة صداقة متينة، ولذلك كانت معلومة تكن لهم كل تقدير وتشهد بمدى صدقهم، حيث أنها كانت تعرفهم جيدا عن قرب . استمعت معلومة إلى كل الكلام الذي أدلى به هؤلاء الشيوخ الأجلاء حول رغبتهم في بيع محلاتهم التجارية ثم قررت أن تتحدث إلى رمضان حول موضوع البيع والشراء في وجودهم وكلها ثقة في طيب نوايا هؤلاء الشيوخ .

وعندما عاد الصبية الأربعة إلى البيت مع بداية حلول الظلام قامت معلومة بتقديم رمضان إلى الشيوخ الثلاثة، حيث عمد رمضان إلى تقبيل أياديهم مثلما تقتضيه العادات العربية في التعبير عن الاحترام لكبار السن . عندها تبادل هؤلاء الشيوخ نظرات استغراب لأنهم عندما سمعوا كل الأخبار الطيبة عن رمضان كانوا يظنونه شابا، فإذا بهم أمام صبي لم يكمل العام العاشر من عمره بعد . نظر الشيوخ إلى معلومة نظرة تحمل التساؤل عما

إذا كان الوقت ملائما لطرح موضوع البيع والشراء الهام جدا بالنسبة لهم بالذات، ولقد فهمت تلك السيدة مقصدهم تماما حيث أشارت اليهم بالإيجاب، وأن كل شيء سيكون على ما يرام . لكنه إلى ذلك الحين لم يدر أي حديث حول الموضوع، وبسرعة بديهة فائقة دعت معلومة الشيوخ إلى تناول طعام العشاء في بيتها من أجل أن يتوفر لهم الوقت الكافي لمناقشة كل جوانب هذا الموضوع . ولقد فهم الشيوخ الثلاثة أصدقاء المرحوم والدها الهدف من هذه الدعوة فقبلوها شاكرين .

وبعد العشاء، وبينما كان الجميع يتحلقون حول موقد النار يتناولون كؤوس الشاي - وهو المشروب التقليدي هناك - شرحت معلومة بهدوء ووضوح الغاية من زيارة هؤلاء الشيوخ الذين تثق تماما في نزاهتهم، ثم شرع الشيوخ بدورهم في إفهام رمضان كل الميزات التي يمكنه الحصول عليها من شراء اثنين من هذه المتاجر الأربعة حيث يعمل اثنان من أحفادهم في اثنين منها، وبحكم الخبرة الطويلة لهم في عملية البيع والشراء فإنهم يعرفون تماما المكاسب التي تدرها هذه المتاجر، كما أنهم أبلغوا رمضان أن سعر البيع الذي يطلبه أصحاب هذه المتاجر منخفض عن المعتاد لأنهم يريدون أن تتم عملية البيع سريعا لكي يتمكنوا من السفر إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة .

أسهب هؤلاء الشيوخ في إضفاء عبارات المديح على تلك المتاجر والمكاسب التي تدرها ضاربين لذلك مثلا بالمتجرين اللذين يعمل بهما حفيدهما وما حققاه من عوائد، وكان رمضان يستمع جيدا إلى كل الحديث، ولكنه تقدم بعرض لهؤلاء الشيوخ أذهلهم لأنهم لم يتوقعوا سماعه منه . كان العرض الذي تقدم به رمضان هو شراء المتاجر الأربعة وليس اثنين فقط وفق السعر الذي ذكره الشيوخ وهو ألف وخمسمائة ليرة لكل محل تجاري، وذلك يرجع في رأي رمضان إلى أنه من الممكن أن تشكل هذه المحلات مجموعة متكاملة تشبه مجموعة الصبيان العاملين في مجال تلميع الأحذية، وبهذه الطريقة تصبح هذه المتاجر أكثر حماية وبعدا عن مضايقة الآخرين لهم . كان رمضان بهذا العرض يعبر بذكاء عن ظاهرة لاحظها أثناء ارتياده للسوق وهي ظاهرة المنافسة بين أصحاب المحلات التجارية، ولم يكن مخطئا في ذلك .

نظر الشيوخ إلى بعضهم للحظات ثم بادر أحدهم وكان شيخا جليلا بدا أنه الأكبر سنا فيهم إلى مخاطبة رمضان قائلا له : اسمع يا بني، لقد سمعنا عنك كل الأخبار الطيبة، ولكننا لم نكن متيقنين تماما مما سمعناه، لكننا الآن أصبحنا ندرك كل الإدراك أن الله قد أضاء لك الطريق وأمدك بالمعرفة اللازمة التي لم نتحصل عليها نحن إلا بعد أن تقدم بنا

العمر من خلال التجربة . فإذا كان بمقدورك شراء المتاجر الأربعة فهذا يعني أنها ستشكل كتلة تجارية، وهذا يجعل بالإمكان شراء البضاعة من تجار الجملة في سوق الفندق بسعر أفضل، وهو ما سوف يحقق أرباحا أكبر، وستصبح هذه المتاجر أكثر قدرة على المنافسة أمام كل الحاسدين الذين هم كُثر للأسف الشديد . اسمع يا بني : لقد تحدث الله على لسانك، ثم نظر إلى رمضان نظرة احترام وإعجاب بقدرة هذا الصبي على الحديث بهذه الطريقة وهو لا يزال طفلا .

حسنا، أجاب رمضان، ليلة الغد يمكنكم أن تأتوا مصحوبين بالأشخاص الذين يريدون بيع تلك المحلات التجارية، وسوف أحضر معي المبلغ اللازم للشراء، ثم أضاف : كما سيكون من المتفاهم بشأنه أن حضراتكم ستتولون إدارة هذه المحلات لأنني شخصيا لا أعرف شيئا عن إدارتها . إنني اتخذ قرار الشراء هذا لأن معلومة تحدثت عنكم بشكل إيجابي وهي تثق في صدق كلامكم .

عندها رد الشيوخ الثلاثة قائلين : إننا نقسم بالله بأننا لن نخذلك، وأننا سنكون مخلصين في التعامل معك، كما أننا نشكرك على الثقة التي منحتنا إياها، وعلى استعدادك لدفع المبلغ الكبير الذي يمثل سعر هذه المحلات الأربعة . كان رأي الشيوخ أن هذه الصفقة تمثل صفقة العمر بلا شك، ولذا ودعوه وأهل البيت على أن يعودوا في اليوم التالي لإتمام إجراءات البيع والشراء . وفي يوم الغد قام رمضان كالعادة بتدبير شئون بضاعته وتجهيزها للبيع، ثم أخذ يستجمع النقود التي كان خبأها في أماكن عدة حتى بلغ مجموعها ستة آلاف ليرة بل أخذ معه مبلغا إضافيا من أجل تدبير شراء مستلزمات قد يحتاج اليها مشروعه الجديد من أجل أن يبدأ العمل التجاري بالمحلات دونما إبطاء أو تأخير، وفي الإجمال أخذ معه ثمانية آلاف ليرة وهو مبلغ كان يكفي لشراء المحلات وتدبير لوازم تشغيلها .

قام رمضان بوضع هذه النقود في الكيس الذي كان يستعمله لبيع الخرطوش، وكان يشعر بالسعادة أنه استطاع أخيرا أن يجد طريقة مريحة ليتخلص بها من تلك الكمية الكبيرة من النقود . هكذا كان لسان حال عقله الصغير يحدثه لأن تلك النقود كانت تشكل مصدر قلق له، لكنه أخيرا استجمعها، واتجه بها فرحا مختالا إلى بيت معلومة حيث كان سبعة من الشيوخ في انتظاره، وكان معهم أربعة صبيان تتراوح أعمارهم بين الست والعشر سنوات تبدو عليهم ملامح الجد والصراحة، وهي سمات تتفق تماما مع كونهم الأشخاص الذين سوف يتولون مهمة تشغيل هذه المتاجر الأربعة . قامت السيدة معلومة بتقديمه إلى الجميع مرة أخرى، وأضافت هذه المرة أنه صبي ورث أموالا من أهله، وهو يرغب في

استثمارها تحت رعايتها، وبدون أية عوائق أو صعوبات تمت عملية البيع والشراء لهذه المحلات برضا تام من الطرفين .

خرج الشيوخ الأربعة بعدئذ وهم فرحون أنهم استطاعوا من خلال بيع هذه المحلات تدبير الأموال اللازمة لتحقيق حلم حياتهم كمسلمين في الحج إلى بيت الله الحرام، ثم شرع المشترون في التخطيط لكيفية إدارة هذه المتاجر الراقية المشتراة حديثا، وكان في مقدمة واضعي الخطط الصبيان اللذان كانا يعملان لمدة سنتين في تشغيل إثنين من هذه المتاجر، حيث تركز جهدهم على كيفية استثمار أقل كمية ممكنة من المال بأكبر هامش ربح ممكن، وكان ضمن ما خططوا له استئجار عربة لنقل البضائع المشتراة من سوق الفندق إلى المتاجر، لكن رمضان ارتأى شراء هذه العربة لكي تكون دائما في متناولهم، وأخرج من جيبه ألفي ليرة تكفي لشرائها وشراء أية بضائع غير متوفرة في المحلات يرى هاذان الصبيان بخبرتهما التجارية أهمية توفيرها . كما اتفق رمضان مع الصبيان الأربعة الذين يعملون بهذه المحلات بأن يسلموا للسيدة معلومة مبلغا ماليا مقطوعا يخص رمضان على أن يحتفظوا بباقي عائد البيع والأرباح من أجل شراء مزيد من البضائع للمحلات التجارية .

ومع حلول نهار اليوم اللاحق ذهب الصبيان الأربعة يرافقهم أحد الشيوخ لشراء عربة لنقل البضائع كي توفر لهم الجهد، حيث استطاعوا شراء عربة مستعملة، ولكنها كانت في حالة جيدة جدا . وبهذه الطريقة استطاعوا توفير الكثير من المال من خلال شراء كميات من أجود أنواع الفواكه والخضروات بالجملة الأمر الذي أتاح لهم عرض أفضل أنواع البضائع بسعر أقل مما تعرضه المحلات التجارية المنافسة لدرجة أنه لم يكد يحل الليل حتى استطاعوا بيع كل الخضروات والفواكه التي لديهم وبشكل أسرع من المحلات الأخرى وأكثر ربحا . وبعد أن أقفلوا محلاتهم ليلا حضر أكبر الشيوخ سنا إلى منزل معلومة ـ وقد كان أقرب أصدقاء المرحوم والدها ـ حاملا معه (120) ليرة تمثل المبلغ المقطوع الذي تم إقراره وقام بتسليمها حسب الاتفاق مع رمضان إلى السيدة معلومة لأن رمضان لم يكن يعرف كيف يمكن له أن يحتفظ بكميات النقود التي يتحصل عليها ولأن معلومة وأبناءها الثلاثة يحضون بثقته الكاملة، وهي ثقة مستحقة بجدارة .

كانت مشكلة رمضان تتمثل في أن دخله من النقود أصبح في تزايد مستمر رغم كل ما قام به من إجراءات استثمارية للتخلص منها . كان مقدرا لهذا الصبي الصغير والمعدم أن تتراكم لديه مع مرور الزمن وبدون توقف الأموال تلو الأموال وكأنها نهر من نبع لا ينضب . ومع إتمامه العام العاشر من عمره غاب عن رمضان الجوع والحزن اللذان

رافقاه في البداية وازداد طوله ووزنه وأصبح يبدو في أفضل وضع صحي مثلما كان أنيقا، جميل المظهر سواء ارتدى ملابس عربية أو ايطالية، حيث كان يرتدي كل نوع منها حسب مقتضيات الظروف .

كان رمضان إنسانا مؤمنا بالله ولكنه لا يحمل في نفسه غلواً في دينه أو تطرفا في معتقداته وسلوكياته، بيد أن ظروف الحياة الصعبة التي ألقت عليه بكلكلها في الماضي جعلته ينظر إلى الحياة والى العالم الخارجي من منظور مختلف لأن المبادئ التي يحملها كانت تمثل استخلاصات ذاتية من واقع حياة كان مجبرا فيها على التعلم الذاتي من الظروف التي تمر به، كما لم يكن مهووسا في لباسه بنوع محدد بل كان يعمد إلى تغيير نمط لباسه من يوم لآخر، وهو ما تعود أن يراه عليه أصدقاؤه، ولم يجدوا غضاضة في أسلوبه الذي اختاره لنفسه . لكن أهم ما كان الناس حوله يعرفونه به هو روح العطف التي كان يتسم بها، وحبه لمساعدة الآخرين بدون شروط أو حدود . كان يعطي دون أن يأخذ وبشكل طوعي وبسعادة بالغة . كانت مساعدة المحتاجين بالنسبة اليه أمرا يملؤه فرحا ويذكره بأيام بؤسه التي عاشها والتي أراد من خلال العوائد المتواضعة التي توفرت له أن يحاربها . كان الآخرون يستقبلون هذا الصنيع من رمضان بسرور، وكانوا يقابلونه برد للجميل عن طيب خاطر وسعادة . ومع مرور الزمن أصبح رمضان يكبر وتكبر معه تجارته بدرجة خيالية ودون إبطاء أو توقف . ومع ذلك كله كان دائما يبحث عن المحتاجين للمساعدة وذوي الموارد المحدودة من خلال السيدة معلومة والشيوخ الثلاثة لأنه لا يعرف أهل تلك المنطقة ولأنه كان حريصا على استشارتهم في كل أمر وشأن .

ذاعت شهرة رمضان بين الناس الطيبين من الفقراء وذوي الدخل المحدود الذين كانوا جميعا يكنون له كل الود والثقة، حيث كانوا كلما سمعوا عن مشروع تجاري مربح أو قابل لتحقيق الربح اتجهوا إلى الشيوخ الثلاثة الذين أصبحوا بمثابة مجلس إدارة لأملاكه الافتراضية لأنه من الناحية القانونية لا يستطيع تسجيل أي أملاك باسمه وهو لا يزال طفلا قاصرا، وكان لابد أن يكون هناك ممثل قانوني له مسجل لدى المحكمة، وهو إجراء قانوني ضروري، لكن الأهم من الإجراءات القانونية هو الاستقامة والنزاهة التي هي أفضل مئات المرات من كل القوانين . لقد كان رمضان في ضوء مقتضيات دينه الإسلامي يعطي كلمته مقسما بالله على صدق ما يقول، وهو ما كان يغني عن أية وثائق لأنه كان في ضوء هذا القسم ينفذ كل التزاماته الواجبة مهما ترتبت عليها من نتائج .

في ذلك الحين كان رمضان قد بلغ العاشرة من العمر وكان له عشرون مشروعا

تجاريا لم يكن أي منها مسجلا باسمه، ولكنها كانت تدر عليه عائدا بقيمة ستمائة ليرة يوميا، إضافة إلى ما تدره عليه مجموعة تلميع الأحذية من عوائد، وعائدات مبيعاته الشخصية، حيث كان إجمالي دخله اليومي ثمانمائة ليرة أي بواقع خمسة آلاف وستمائة ليرة أسبوعيا .

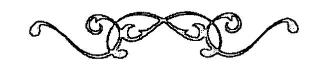
كانت كل هذه المبالغ تودع لدى السيدة معلومة عند منتصف ونهاية كل شهر، وهي التي تقوم باستخدام جزء يسير منها لتغطية مستلزمات الأسرة وفقا لما تم الاتفاق بشأنه مع رمضان . أما مهمة الشيوخ الثلاثة فقد كانت تتمثل في استلام المبالغ المالية المقطوعة من المشروعات التجارية التي يملكها رمضان حسب الاتفاق الذي أبرموه معه . كان الجميع ينفذون التزاماتهم بشرف ودقة لأنهم كانوا أناسا ذوي مبادئ سامية أرادوا أن يكافئوا هذا الصبي الكريم المعطاء من خلال الإخلاص التام والمطلق له في الأعمال التي يكلفون بإنجازها من قبله .

كل ذلك أسهم إسهاما كبيرا في جعل دخل رمضان من التجارة يتزايد بشكل تصاعدي حيث كان هذا الدخل يتضاعف أسبوعيا، وأحيانا يزيد عن هذا المعدل وذلك حسب قيمة البضاعة المباعة وكمياتها . لذا قرر رمضان إجراء صيانة لمنزل أسرة السيدة معلومة مما أضفى على هذا المنزل جمالا لم يكن مفرطا، ولكنه كان كافيا لجعل هذا المنزل أكثر راحة ومتعة، بل إنه قام بشراء المنزل المجاور لأن أصحابه قرروا الانتقال إلى مدينة أخرى، وكان ذلك بناءً على نصيحة السيدة معلومة التي كانت تحاول بذلك تفادي بيع المنزل لشخص غير معروف مما قد يؤثر سلبا على كل الجيران . أما رمضان فهو شخص مرحب به لأنه كان دائما يقدم لهم يد العون . لذا كان شراء المنزل المجاور أمرا مهما في توفير الحماية لمنزل أسرة السيدة معلومة، وأصبح المنزلان في حمى بعضهما البعض وكأنهما حارسان دائمان مخلصان لبعضهما البعض، وتحقق تكامل بينهما وكأنهما منزل واحد مريح ممتد الأرجاء . اختفت إلى غير رجعة وجبات الطعام القليلة البائسة من المنزلين، وحل محلها ما لذ وطاب من الطعام . أما نباتات الطماطم التي كانت تنمو قرب مكان إقامته السابق فقد أصبحت تزهر وتثمر وتنضج وتذوي . كان رمضان ينظر إلى تلك النباتات مستذكرا مدى نفعها له خلال أيام العسر ورغم أنه لم يعد يحتاج إلى ثمرها ظل يستزرعها في مساحات أخرى من المكان حتى يستطيع الاستطعام منها في حالات الضرورة، وكأنه بذلك يشكر لهذه النباتات صنيعها الجليل بإطعامها له عندما كان جائعا معدما .

اقتصر رمضان في بيع السمك والصدف على الطباخ بيبيه، وذلك عرفانا منه تجاه هذا

الرجل طيب القلب، وقد قابله الطباخ بعرفان مماثل تمثل في تقديمه أطباق الطعام الشهية لهذا الصبي متى قرر أن يتناول الطعام في مطعمه . كان الطباخ يداعبه دائما بلقب البدوي الصغير، وكان يسعد دائما بقدومه اليه منتصف النهار لأن رمضان كان يتناول براحة تامة وجبات الإفطار والعشاء في منزل معلومة . قطع رمضان شوطا طويلا في حياته الجديدة خلال السنتين الأخيرتين من عمره اليافع، ليس فقط فيما يختص بوضعه الاقتصادي، بل أيضا فيما هو أهم وهو وضعه النفسي والوجداني . لقد استطاع أن يستعيد توازنه وخلاصه من الهموم لأنه لو استمر يعاني الأحزان التي تغلي داخله لكان قد انتابه الجنون أو على الأقل البله . لكنه على العكس من ذلك تعلم اللغة الايطالية وهو أمر هام جدا في البلاد التي يعيش فيها لأنها كانت تمثل طوق نجاة نحو البقاء . أما السنة الأخيرة من عمره فقد شهدت تطورات اقتصادية هامة لم يكن يحسب لها أي حساب .

استذكر رمضان كيف كان يلقي بنفسه في سرير القش وهو يتفكر في المنحى الجديد الذي سارت نحوه حياته بفعل تضافر جهود عناصر الطبيعة التي عاملته كابنها المدلل حيث تحرص جميعا على رعايته وحمايته ومساعدته وكأنه جزء منها . كان يشعر وكأن هذه العناصر تتحدث له بلغة مشتركة بينه وبينها، وكان يستشعر نسمات الريح المنعشة وكأنها جاءت لتربت على جسمه، كما كان يعشق السكينة والسلام السائدين في ذاك المكان وهو ما يجلب له متعة النوم العميق تحت الرداء السميك لهذه العناصر التي تتقدم له دائما بكل ما هو جميل وتأخذه معها في الأحلام إلى العلياء ؛ إلى مكان تشتاق اليه الأنفس يشع نورا ومحبة وكأنها أم له تحتضنه حنانا وعطاءً وها هو ذا يقبل عطاءها بكل امتنان . وتمر الأيام تلو الأيام تزهو بنفسها وكأنها تقف على جبل شاهق من الأحجار الكريمة تتعالى نحو القمة ناظرة بكبرياء وثقة نفس تجاه الكون الفسيح المترامي الأطراف .





يسر ورخاء

وبمرور الزمن ترك رمضان أعماله الخاصة كليا بما في ذلك تزويد السيد بيبيه الطباخ بالسمك وصدف البحر، لكن السيد بيبيه ظل يصر أن يأتي رمضان لتناول الطعام عنده ولو لمرة واحدة في اليوم . لم يكن للسيد بيبيه عائلة، وقد تعود على اللقاء برمضان لدرجة أنه كان ينتابه القلق اذا مرت عدة أيام دون أن يلتقيه، رغم أنه كان واثقا من أن أسباب عدم مجيء رمضان اليه كانت إيجابية، لكنه كان يريد أن يمتع رمضان بتناول الوجبات الشهية التي كان باعتباره طباخا ماهرا يقوم بتحضيرها .

أما رمضان فقد كان يشعر بالارتباط الوثيق بهذا الرجل لأنه رغم أنه لم يعد يحضر له السمك وصدف البحر بقي يعامله بنفس الطريقة التي كان يعامله بها في السابق . كان رمضان قد بلغ الرابعة عشر عاما من العمر، وأصبح شابا نحيفا، ولكن قوام جسمه كانت توحي بأنه أكبر عمرا مما هو عليه . كان شخصا مهذبا سرعان ما ينال احترام كل الأشخاص الذين يتعامل معهم، إضافة إلى لمعان نجمه بفعل كميات النقود الكبيرة التي أصبحت متوفرة لديه، والتي كان يحتفظ بها في أماكن سرية في بيته الجديد، إضافة إلى بعض الكميات من المال التي كان لا يزال يخفيها في مقر إقامته القديم حيث أن التجارب علمته أن يبقى دائما حذرا وألا يضع كل أمواله في مكان واحد . لقد توفرت لرمضان مصادر دخل كثيرة، وكانت المساهمات المالية التي تأتيه من المشروعات التي مولها ذات عائد مالي كبير .

توفي الشيوخ الثلاثة الذين كانوا بمثابة مجلس إدارة لمشروعاته، لكن الصبيان الأربعة الذين يقومون بتشغيل محلات الخضروات والفواكه بقوا مستمرين في عملهم . وكانوا مع انتهاء كل يوم يقومون بجمع مساهماتهم المالية وإيداعها لدى السيدة معلومة التي كانت تحتفظ بها جيدا وتسلمها كما هي إلى رمضان باستثناء بعض المصروفات الضرورية اللازمة لمعيشة هذه الأسرة . كان يوسف قد انضم هو الآخر للعيش في منزل معلومة عقب وفاة جده الذي لم يكن له أهل غيره . وهكذا دخلت السعادة ومعها الخير والرخاء إلى بيت معلومة من أوسع أبوابه وأصبحت معلومة ربة بيت سخية تجود بما لديها من خيرات

وفيرة دون حدود .

كان العرف المعتاد هو أنه من أجل انضمام أي عضو جديد لمجموعة الصبيان العاملين في مجال تلميع الأحذية هو أن يلتقي ساكنو البيت الستة بالإضافة إلى الصبيان الأربعة الذين يقومون بجمع الاشتراكات اليومية ثم يتخذون قرار قبول هذا العضو بنفس الشروط التي التزم بها الأعضاء القدامى، وقد كان هذا الاجراء هو نفسه ما تم بخصوص أحد الصبيان الأكبر سنا وأضخم جسما والذي كان يتوعد رمضان إذا ما تم رفضه، حيث أنه قبل هو الآخر بالالتزام بالشروط السائدة لدى هذه المجموعة .

وهكذا كان سخاء رمضان أداة جالبة للحظ ومساعدة على تراكم الأموال لديه حيث كان معدل دخله اليومي من المساهمات أو الاشتراكات يصل إلى ثلاثة آلاف ليرة . اتسع نشاط رمضان الاقتصادي لدرجة أنه أصبح قليل الذهاب إلى مطعم السيد بيبيه بسبب ضيق الوقت، وعندما كان رمضان يزوره بعد طول غياب كان السيد بيبيه يعاتبه على تأخره في الحضور إلى المطعم، لكنه في احدى المرات تفاجأ رمضان بأن وجد السيد بيبيه حزينا، لكنه رغم ذلك استقبل رمضان بشكل جيد واصطحبه لتناول طعام الغداء الشهي دون أن يدلي بأي حديث . كان يتصرف بشكل آلي وكأن عقله غائب عن الدنيا، وأحيانا يتمتم بكلام عن أشياء غير ذات أهمية . انتبه رمضان بفطنة إلى ذلك الأمر واستنتج أن أمرا سيئا ما قد أحل بصاحبه بكل تأكيد .

وبعد برهة نهض رمضان واقترب من السيد بيبيه وأمسك به من ذراعه وحدق فيه قائلا له : ألم أعد بالنسبة اليك البدوي الصغير ؟! ورد السيد بيبيه بسرعة وبابتسامة شاحبة مشبعة ألما : بكل تأكيد ... بكل تأكيد . وعندها بادره رمضان بالسؤال : اذا كانت علاقتي بك مثلما كانت دائما فلِمَ لا تخبرني بما أهمك ؟ وكان رد السيد بيبيه : انظر يا رمضان، لو أنني أرى أنك تستطيع مساعدتي فيما يحدث لي من أمور لكنت أخبرتك، لكن ما أواجهه من مصاعب أمر يفوق قدراتك وإمكانياتك ولهذا لا أريد أن أزعجك بالحديث عنه . لكن رمضان استطرد قائلا : لا يهم، لكن التحدث إلى صديق لك حول ما يشغلك أمر يجلب نوعا من الراحة دائما، فلماذا لا تخبرني عن مشكلتك لكي أعرف ما اذا كنت قادرا على مساعدتك ؟

عندها رفع السيد بيبيه رأسه ناظرا إلى رمضان وجها لوجه نظرة الانفتاح والصراحة، وبقي صامتا لبرهة ثم رد وهو على يقين من أنه يمكنه أن يثق برمضان : ربما يكون من الأفضل أن أخبرك بحالي لكي تكون على الأقل على علم بما يجري . لقد استلفت منذ

سنتين مبلغ ثلاثين ألف ليرة من أجل صيانة المطعم وتطويره، لكن الأمور لم تسر على ما يرام وانقضى الوقت اللازم لتسديد السلفة المالية ولا أستطيع إرجاع المبلغ حيث سيتم الحجز على كل المطعم غدا، لكن لا تقلق لأنني سوف أبحث عن العمل كطباخ في أي مطعم آخر من أجل أن أكسب قوتي بشكل مرضٍ . لا تخف يا رمضان لأنني قبل أن أغادر المطعم سوف أخبرك عن المطعم الجديد الذي سوف أعمل به آملا أن تستمر زيارتك لي كالعادة لأنني رغم أنني لن أكون صاحب المطعم الجديد إلا أنه سيكون بإمكاني دائما تقديم الخدمات لك، لكنني أرجوك ألا تغضبني بعدم قدومك لمجرد أنني أصبحت السيد بيبيه الفقير، فما قولك ؟!

لكن رمضان قاطعه قائلا : أرجوك أن تبتعد عن مثل هذا اللغو من الكلام يا سيد بيبيه لأنك تعرف أننا سنبقى دائما نفس الأصدقاء، وباعتبارنا صديقين يتوجب علينا مساعدة بعضنا البعض في حدود مقدرتنا، واذا كنت لا ترغب في أن أهجرك فلا يجب أن ترفض إمكانية مساعدتي لك ؛ لأنني سوف أعود خلال ساعتين ومعي المبلغ اللازم لتسديد السلفة حتى نستطيع الاحتفاظ بمطعمك وتستمر في عملك بشكل اعتيادي . دع الأمر لصديقك البدوي الصغير وسترى أن كل شيء سيكون على ما يرام .

بيد أن السيد بيبيه كان يستمع لحديث رمضان وهو يهز برأسه بطريقة تعبر عن تشككه في مدى واقعية هذا الحديث، وهو ما دفعه إلى مخاطبة رمضان قائلا له في محاولة لإقناعه : أعتقد أنك لم تفهمني يا رمضان . إنها ثلاثون ألف ليرة قيمة السلفة التي كنت أحدثك عنها . هل تعتقد أنك قادر على مساعدتي يا صغيري ؟ لو كان الأمر يتعلق بمبلغ قليل من المال لكان ذلك أهون علي لأنني لدي بعض الأصدقاء ممن يستطيعون مداينتي بمبلغ عشرة آلاف ليرة، لكن لسوء الحظ فإن هذا المبلغ لا يحل المشكلة لأنني يتوجب علي دفع قيمة السلفة كاملة، وليس لدي الوقت الكافي لتدبير هذا المبلغ الكبير لأن آخر موعد لتسديد السلفة هو منتصف نهار الغد، وإذا لم أقم بالدفع قبل ذلك الموعد فسوف يتم الحجز على المطعم وفق ما ينص عليه العقد المبرم بشأن السلفة، وهذا يعني أنه يتعين علي التحلي بالصبر والعودة من جديد إلى نقطة البداية .

لكن رد رمضان كان سريعا وحاسما إذ قال له : لقد فهمت جيدا كل ما قلته لي دون أدنى شك، وسوف أدبر لك المبلغ سواء كان ثلاثين أو أربعين ألف ليرة أو حتى أكثر من ذلك . ومثلما ذكرت لك فإنني سوف أعود اليك خلال ساعتين حاملا معي المبلغ الذي تحتاجه من أجل ألا تضيع ثمرة عملك المتواصل . مع السلامة يا سيد بيبيه والى اللقاء . ثم خرج

رمضان تاركا السيد بيبيه حائرا بين الاندهاش وعدم التصديق لما سمعه . كان رمضان سعيدا وحزينا في آن واحد عندما انطلق يسير في الشارع، ولكنه كان يمتلئ حماسا لأنه يسعده دائما مساعدة الآخرين وبشكل خاص السيد بيبيه الذي يكن له كل تقدير . كان رمضان في ذلك اليوم يرتدي لباسا عربيا أنيقا يبدو من مظهره أنه من الأشخاص الميسورين الذين بإمكانهم ارتداء بدل عربية ذات جودة عالية، وبالنسبة لرمضان كان مظهره الخارجي الأنيق منسجما مع شخصيته المرموقة . سار رمضان في أحد الشوارع الجانبية من أجل اختصار طريق العودة إلى المنزل وهو يمتلئ سعادة مترقبا العودة سريعا لمساعدة صديقه . ارتسمت على شفتيه ابتسامة فرح عندما تذكر المفاجأة التي أعدها للسيد بيبيه والتي تتمثل في تدبيره النقود اللازمة له لتسديد ديونه وأكثر، ولقد راق له مشهد تسليمه النقود لصديقه السيد بيبيه .

وعندما كان رمضان يعبر الطريق الجانبي الصغير كاد أن يصطدم بامرأة كانت ترتدي لحافا يغطي جميع جسمها حيث لا ترى منه إلا عين واحدة حسبما تقتضيه التقاليد الاجتماعية السائدة في ليبيا آنذاك . وبسرعة انتحى رمضان جانبا لكي تستطيع المرأة عبور الطريق بحرية معربا لها عن أسفه للهفوة التي بدرت منه . لكن تلك المرأة بقيت واقفة، بل متحجرة في مكانها وهي تدير برأسها نحوه لكي تراه جيدا . وعندما عبر رمضان الطريق فوجئ بسماعه لها تناديه باسمه وبصوت مرتعش يحمل صدى ذكريات الماضي وأشواقه . كان صوتا ناعما يمتلئ عاطفة وحيرة وألما، صوتا من الماضي يشبه الماضي الحزين الذي مر به شخصيا، والذي كان يعبر عن الإصرار وعدم الخضوع للآلام والذهاب ضحية للمصائب . كان صوتا ينطلق من أعماق تلك المرأة جعل رمضان جامدا في مكانه بلا قدرة على الحراك خاصة عندما تساءلت المرأة قائلة : أهذا أنت رمضان الصغير ؟ قالت ذلك ثم كشفت له عن وجهها لكي يراها ويتعرف عليها .

كانت فتاة شابة بين التاسعة عشرة والعشرين عاما من العمر، جميلة جدا، ممشوقة القوام لكنها تعلوها مسحة من أحزان ويأس وكأنها تعرضت للضرب المبرح أو لموقف أسوأ من ذلك . كانت تبدو وكأنها على شفا هوة سحيقة . بيد أن رمضان رغم أنه نظر اليها مليا لم يستطع تذكر من تكون تلك الفتاة . وحين لاحظت عليه ذلك بادرته بالقول بشكل خافت وحزين : ألم تعرفني بعد ؟ لقد تغيرت كثيرا، أليس كذلك؟

وبعد لحظات مشحونة بإحساس داخلي قوي استطاع رمضان التعرف على هذه الفتاة من خلال صوتها وتعبيرات وجهها وملامح جسمها . شحب وجهه للصدمة العاطفية التي

تلقاها وتلعثم صوته وهو بين الشك واليقين حول هوية الفتاة ثم ناداها قائلا : أهذه أنت يا سليمة ؟ حيث ردت عليه قائلة وهي تنظر اليه بمودة : نعم يا رمضان، هذه أنا سليمة رفيقة الطفولة وصديقتك المقربة لك دائما في النجع الذي كنا نسكن فيه وحيث كنا نلعب . إن إرادة الله عظيمة وأفضاله كثيرة . لقد كدت أفقد الأمل في أن التقي أيا من رفاقي لكنني ها أنا ذا التقيك وأنت ترتدي زي الأشخاص الأثرياء، وتحولت إلى رجل بهي الطلعة .

إنني سعيدة بلقائك وأنت في هذا المظهر الممتاز الذي يدل على أن أمورك على أفضل ما يرام بفضل من الله . لكنني لا استطيع أن أقول لك أن حالي مثل حالك . قالت ذلك بصوت تخنقه العبرات والألم، ثم انهالت الدموع على خديها وكأنها مياه منحدرة من سد انجرف لتوه . بكت سليمة بحرقة وكأنها كانت تجد في البكاء عزاء يخفف عنها أحزانها التي اختلطت أخيرا بالأمل في أن تجد سبيلا ما نحو الحرية، وأن تقشع عنها رياح الأمل القوية مشاعر البؤس والقنوط ،وأن تجد عزاءً في أن تحكي قصتها الحزينة إلى شخص يستطيع أن يتفهمها . ورغم الدموع التي سالت على وجهها الحزين ارتسمت على وجه سليمة ابتسامة شاحبة، ولكنها كانت ابتسامة على كل حال . كانت ابتسامة من أجل رمضان وفرحة اللقاء به، حيث بادرها هو الآخر بصوت متقطع تخنقه العبرات التي كان يحاول أن يخفيها قائلا لها وهو يمسك بيدها : تعالي معي، انني أسكن بالقرب من هنا، ومن الأفضل لنا أن نتحدث في البيت، حيث يوجد لدينا الكثير مما يمكننا سرده لبعضنا البعض .

قبلت سليمة ضمنا بهذه الدعوة، وعادت لتغطية وجهها كي لا يرى رمضان الدموع التي تذرفها، وسار كلاهما دونما حديث نحو البيت الذي اشتراه رمضان منذ بضع سنين بجوار منزل السيدة معلومة والذي أجرى له صيانة وتطويرا شاملا ولكن دون بذخ لأن المهم لديه هو أن يصبح المنزل مريحا، ولا بأس من بعض الزرابي ذات الألوان الزاهية المتناسقة، وتصميم داخلي قيم وجميل .كان منزل رمضان يرتبط بمنزل السيدة معلومة بباب لا يغلق إطلاقا بفعل العلاقة الحميمية التي ربطته بتلك الأسرة الفاضلة .

وعندما وصلا إلى المنزل فتح رمضان الباب ودعا سليمة بكل احترام ومودة إلى التفضل بالدخول، لكنها كانت لا تزال تبكي خفية، بيد أنها طأطأت برأسها ودخلت إلى البيت الذي تفاجأت بجماله وحسن ترتيبه مما ساعدها على الكف عن البكاء، ثم أخذت تنظر عبر أرجاء المنزل وكانت لا تكاد تصدق ما تراه وكأنها في حلم لأنها لم تصدق وجود

مثل هذه الأشياء الجميلة الثمينة . وبدهشة واستغراب لم تكن تقصد التعبير عنهما قالت : لا تقل لي يا رمضان أن كل هذه الجنة هي جنتك، أم أنني في حلم سرعان ما سوف أصحو منه لكي أجد نفسي من جديد في بؤسي الأبدي، إضافة إلى أنني لا أشعر أنني أستحق أن أكون في مثل هذا المكان . قالت ذلك وهي تغرس ركبتيها في الزرابي المبثوثة داخل كل أرجاء البيت ثم وضعت يديها على خديها وهي تستذكر الأحزان التي مرت بها وجعلتها مثل حيوان طريد تحاصره الآلام وصرخات التهديد والوعيد .

لم يكن يعرف رمضان كيف يستطيع أن يجعلها تقلع عن أحزانها، خاصة وأنه لا يعرف الظروف والأسباب التي أشعلت بها كل هذا الحزن . نظر بحزن وحيرة نحو رفيقة اللعب القديمة له، لكنه لم يدرك بعد ماذا يمكن أن يفعله إزاءها، ثم استخلص أن الأفضل هو أن يترك لها المجال لكي تبكي بهدوء حتى تستطيع تجاوز كل تلك الآلام الدفينة، وبالفعل أصبح نحيبها يخفت شيئا فشيئا ويهدأ بعد أن فقدت قدرتها على الاستمرار فيه، ثم بدت وكأنها تعيش حالة من الفراغ ولكنها خالية من المرارة الحزينة التي يبدو أنها تراكمت لديها خلال فترة من الزمن طويلة .

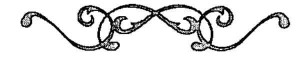
وعندما أصبحت سليمة أكثر هدوءا جلس رمضان إلى جوارها وأخذ يربت على رأسها عندما وجد شعرها الأسود يتصبب عرقا ثم قال مخاطبا لها بصوت هامس لطيف منعش يتدفق من فمه وكأنه مياه نبع بللورية صافية : لقد عانيت كثيرا يا سليمة، أليس كذلك ؟ لقد أدركت ذلك من طريقتك في البكاء . لقد عانيت أنا أيضا الكثير، ولذا فانني أتفهم تماما آلام معاناتك . معاناتي أنا كادت تصل بي إلى حالة الجنون، لكن انظري كم هي عظيمة إرادة الله، انظري إلى الحال التي أنا عليها الآن . لا تقنطي أبدا، ولا تفقدي ثقتك بالله . عندما أتيت إلى بنغازي كنت طفلا صغيرا . وهكذا بدأ يسرد لها قصة حياته بصوت عذب يمتلئ بذكريات الماضي الحزين . وكنت لا أعرف، نعم لا أعرف كيف أصلي لله، ولذا كنت أمد بصري نحو السماء الزرقاء فأحس أن آلامي أصبحت تتلاشى في الكون الفسيح، في دنيا الله، وهكذا كنت أحس بالارتياح وقوة العزم دون أن أعرف سبب ذلك . واستمر رمضان على هذا المنوال وبنفس الصوت العذب يحكي لسليمة قصة حياته الطويلة والشاقة منذ البداية، أي منذ أن حلت بأسرته الكارثة .

كانت سليمة تستمع إلى رمضان دون أن تقاطعه وعيناها تمطران دمعا يتناثر كاللؤلؤ وهي تتخيل في ذهنها صورة هذا الصبي الصغير وحيدا في مدينة لا يعرفها، يصلها ليلا قريبا من شاطئ البحر جائعا مهموما بلا رفيق ولا صديق، ثم تحولت تعبيرات وجهها إلى

نوع من الجدية والانتباه عندما سرد لها حكاية الطريقة التي استطاع من خلالها وبطريقة فريدة عجيبة أن يوفر لنفسه وبقدر متواضع عيشا كريما .

لم يحاول رمضان أن يظهر نفسه كبطل استطاع إنقاذ نفسه من خلال الثروة التي كونها بهذه الطريقة، وذلك لأنه بحكم المنطق فإن الظروف التي عاشها فرضت عليه أن يتفاعل معها وأن يصل إلى النقطة التي هو عليها الآن . وبعد أن انتهى رمضان باسما يتقد حيوية من سرد قصة حياته لسليمة جاء دورها هي لكي تسرد له المآسي التي تعرضت لها في حياتها الماضية، حيث بدأت حديثها قائلة : لم أحك لأي إنسان قصة حياتي من قبل لأن أحدا لا يستطيع أن يفهمني ويتفهم المصائب التي ألمت بي، كما أنه لم تكن لي علاقة ثقة متبادلة مع أي شخص في السابق بحيث أسرد له قصة مأساتي . لكن الحديث اليك أمر مختلف لأنك الإنسان الوحيد الذي لا يزال مرسوما في ذاكرتي منذ أيام الطفولة . أنظر اليك وكأنك جزء مني، وكأنك أحد أفراد أسرتي، إضافة إلى أنك عانيت الآلام مثلي تماما وربما أكثر ؛ حيث أن الشخص الذي تعرض للمأساة هو الوحيد القادر على تفهم آلام الآخرين، ولهذا السبب فنحن الاثنان نفهم بعضنا البعض جيدا .

كان رمضان وسليمة يجلسان على زرابي شرقية مريحة يمسك كل منهما بيد الآخر ويتبادلان النظرات وكأن كل واحد منهما يريد أن يبث العزم والأمل في نفس الآخر من أجل شق طريق حياتهما بشكل ناجح . أُسعدت سليمة أن ترى عيني رمضان تمتلآن رقة وتفهما ثم بدأت تسرد قصة حياتها لرمضان وهي مطأطئة الرأس تنظر إلى الأسفل وكأنها تشعر بالخجل إزاء ما تسرده، وقد كانت على حق، ثم شرعت تسرد تفاصيل حكايتها بصوت خافت وهامس .





الفصل الرابع

حكاية سليمة

قالت سليمة مخاطبة رمضان : في نفس ليلة المأساة التي فقدت خلالها أمك فقدت أنا أمي وأبي ولا أدري كيف بقيت أنا على قيد الحياة، ولقد كان من الأفضل لي لو أنني مت كذلك وإذاً لارتحت من المعاناة والإذلال وانتهاك العرض وسوء المعاملة لكنني بقيت أعاني الآلام منذ ذلك اليوم الأسود . عندها امتدت يد رمضان تمسك بقوة بيدها المرتعشة لكي يمنحها عزما ويجعلها تدرك أنه سوف يتفهم كل ما تحكيه له وسوف يقدر ظروفها بكل احترام . واستطردت سليمة قائلة : لقد كنت جزءا من الأمتعة المسلوبة من قبل الجنود الايطاليين، وكنت بالنسبة لهم جزءا من غنائم الحرب، ولقد عاملوني على هذا الأساس حيث أصبحت أتبع أربعة من العساكر الذين كانوا يفعلون بي كل ما أرادوا ويعاملونني معاملة الحيوانات وينتهكون عرضي بشكل مستمر وأرغموني على العيش معهم كسجينة داخل خيمة في أحد معسكرات الجيش الايطالي قرب العقيلة .

قدموا لي الأكل والشرب بمقدار ما يجعلني قادرة على الحياة وعلى إشباع رغباتهم لأنهم قساة لم تكن لهم ذرة من الإنسانية . بقيت أصارع الأحزان بسبب مقتل والدي وبسبب ما جرى لي لدرجة أنني حاولت مرات عدة أن انتحر، لكن الانتحار لم يكن سهلا لأن الخيمة التي وضعوني فيها لا يوجد بها شيء . عشت أنا والخيمة وحصيرة صغيرة، وفي كل ليلة كان يأتي أحد هؤلاء العساكر الأربعة حيث يقوم بإجباري على تناول الأكل والشرب ثم يشرع في انتهاك عرضي، وفي اليوم الذي يليه يأتي عسكري آخر وهكذا دواليك، حيث بقيت على هذه الحال عدة أشهر . لا يمكن تخيل مدى الألم الذي عانيته طيلة تلك الفترة ولا يزال هذا الألم يعتصرني إلى يومنا هذا وكأنه مرض عضال لا يمحى من الجسد ولا المخيلة .

كنت أعيش رعبا دائما جعلني أشعر وكأنني أعيش خارج الزمن أو كأنني لا أوجد، ولم أكن أصدق ذلك الذي يحدث لي . كان مزيجا من الألم والخوف واليأس يعصف بي وأنا ما زلت طفلة صغيرة تواجه ظروفا مدمرة ولدت لدي في بداية الأمر كرها عميقا تجاه كل الأشياء، ثم تطور ذلك إلى ألم شديد ومقت وكره لنفسي . كان هذا الكره الذي تولد لدي

عظيما لدرجة أنه محى من نفسي كل المشاعر الأخرى، وسيطر علي بالكامل وأصبحت لا أحس بشيء آخر غيره . ومع مرور الزمن أصبحت أعيش حالة من عدم الاكتراث والغربة عن ذاتي لدرجة أنني لم أعد أفكر في موضوع الانتحار لأنني شعرت وكأنني نبتة شر، بل كأني خرقة بالية . كان ما يميزني عن عالم الأشياء أني كنت قادرة على الحركة الذاتية .

ظللت أعيش بتلك الخيمة جالسة على حصيرة، جامدة وكأني قطعة من الأثاث إلى أن يأتي دور أحد عساكر الاستبداد لكي يشبع من خلالي نزواته المكبوتة . كان كل واحد من هؤلاء العساكر يأتي على تمام الخامسة مساءً لكي يغادر الخيمة السابعة من صباح اليوم التالي . ما هو الجرم الذي ارتكبته أنا حتى يوقع بي هذا العقاب، بل هذا العذاب الشديد ؟ لقد كنت أقول في نفسي أنه بعد أن شاهدت والدي يموتان أمامي مباشرة فلن يكون هناك بالنسبة لي أي شيء آخر أكثر ألما، لكن الذي حدث لي بعد موتهما جعلني ألغي مثل هذا الاستنتاج لأن الموت يأتي مرة واحدة لا غير، وينتهي بعده كل شيء، لكن ما حدث لي كان يمثل الموت يوميا خلال فترة طويلة من الزمن . وهكذا كنت أموت وأموت، لا أفكر ولا أشعر ولا وجود لي . لم يكن لدي إحساس بشيء اللهم إلا في أحيان قليلة تنتابني وخزة ضمير وكأنها شوكة تعطب جرحا . أتنهد احتجاجا على ما يجري بحقي، ولكني سرعان ما أخضع لظروف الواقع .

وعلى هذا المنوال ظللت أعيش ستة أشهر كاملة، ولو بقيت لفترة أطول من ذلك في هذا المستنقع الشنيع لكنت قد جننت فعلا . وفي مساء أحد الأيام مرت بالقرب من الخيمة على حوالي الساعة الثانية من بعد الظهر الشاحنة الخاصة بالإمداد المائي للمعسكر التي كانت تأتي يوميا لتزويد مرافق المعسكر باحتياجاتها من الماء . كان سائق هذه الشاحنة ليبيا في الثلاثينات من عمره، قوي البنية، ذا مظهر عادي، يبدو جادا حينا وهزليا حينا آخر، معتدل القامة، نحيل الوجه، طويل الأنف . كان اسمه عزيز، وكان على علم بقصة حياتي وبسوء المعاملة الذي أتعرض له وكأنني حيوان . لقد رآني مرات عدة حيث كنت لا أرتدي حجابا، وكيف لي في حالتي تلك أن أرتديه ؟!!! عرض علي هذا الرجل مسألة تحريري من هذا المعسكر، وكان يريد أن يعرف اذا كنت موافقة على ذلك، ولكنه كان أيضا يخشى عواقب مثل هذه الخطوة، وله مطلق الحق في ذلك .

وفي ذاك المساء أوقف عزيز الشاحنة قريبا من الخيمة التي كنت أعيش فيها متظاهرا بأن خللا ما أحل بها، وتحدث لي دون أن ينظر الي، وكان يدور بعينيه في مختلف الاتجاهات خوفا من وجود من يتجسس عليه . ولأنه كان يعرف اسمي خاطبني قائلا :

اسمعي يا سليمة، اذا كنت راغبة في الخروج من هنا فسوف أساعدك على ذلك عن طريق إخفاء نفسك داخل الشاحنة حتى نخرج من المعسكر، لكن إذا كنت لا ترغبين في ذلك فأرجو ألا تخبري أحدا بما قلته لك كي لا تتدمر حياتي . أما إذا كنت ترغبين في مغادرة المعسكر فإنني سوف أترك الشاحنة غدا في نفس هذا المكان، وعندما تتأكدين أن لا أحد يشاهدك ادخلي إلى غرفة قيادة الشاحنة وارفعي الكرسي الذي أجلس عليه إلى أعلى واختفي في الفراغ الذي يوجد تحته واسحبي الكرسي في مكانه إلى أسفل بحيث تتأكدين انك متخفية تماما وبعدها سوف أهتم بشأنك وسوف أقوم بمعالجة كل أمورك ؛ فالمهم هو أن نغادر بسرعة ونبتعد عن المعسكر في أقرب وقت ممكن اذا أعاننا الله برحمته على ألا يكتشف أمرنا . غدا سآتي إلى هذا المكان في وقت أكثر تبكيرا من اليوم حتى يكون لدينا الوقت الكافي لتنفيذ ما نريده . أرجوك لا تردي على سؤالي حديثا بل بالإشارة ؛ فإذا كنت توافقين على ما قلته لك انظري إلى الاتجاه المعاكس وأديري بظهرك نحوي، واذا كنت غير موافقة فإنني أرجوك ألا تخبري أي شخص بذلك ولا حتى بكلمة واحدة حول هذا الموضوع .

لقد كان وقع هذا الكلام قويا على نفسي لدرجة أنني لم أستطع في بداية الأمر أن أفهم بوضوح ما يريد هذا الرجل قوله لي، لكنني بعد فترة قصيرة استوعبت كل شيء تحدث به، وتدفقت الدماء قوية نحو رأسي، وأصبح قلبي ينبض بقوة وسرعة لدرجة كنت أشعر وكأني سأختنق، لكنني سرعان ما انتبهت وشعرت أني فعلا لا أزال حية أرزق، أتطلع من جديد إلى الذهاب إلى حيث أتخلص من ذاك الألم الذي أصبح يحولني تدريجيا إلى لا شيء . لا أذكر ما إذا كان هذا الموقف قد جعلني شاحبة أم محمرة الوجه لأنني كنت أحاول أن أكتم مشاعر الخلاص في نفسي، وربما كان لون وجهي يتغير تبادليا بين الاحمرار والشحوب لأنني شعرت بحرارة قوية وكأن جمرات تتوقد في دمي، ثم تتحول تلك الحرارة فجأة إلى برودة شديدة تجعلني أرتجف بقوة لدرجة أنني خشيت أن تنهار قواي، ولذلك بدأت أدلك يدي ببعضهما البعض بقوة شديدة لدرجة الألم بغية توليد حرارة بهما، وفي كل الأحوال تولدت لدي بشكل ما قوة العزيمة بأن لا أرد على كلام السائق بكلام وبقيت استمع وكأن شيئا لم يكن .

كانت هناك صرخة قوية تختلج في صدري، لكن لم تكن لدي القدرة على إطلاقها . شعرت وكأن بركانا من التوق نحو الحرية يتوقد داخلي ويبعثني من موتي، ولكن هذا الموقف أعاد إلي أيضا من جديد الشعور بالألم والعار إزاء حالتي التي كنت عليها . لكن

الأمل في الحياة أعاد إلي الوعي ومع الوعي عاد الخوف ثم أدرت ظهري للسائق تعبيرا عن الموافقة . وعندما سمعت صوت الشاحنة تتحرك شعرت بقلبي يدق بقوة شديدة وكأنه سيغادر صدري . حاولت جاهدة أن أتمالك نفسي، وألا يلاحظ علي أحد مظاهر ما جرى، حيث استلقيت على الحصيرة أنتظر لحظة تحرري بشوق شديد وأعد الدقائق التي تفصلني عنها . وبكلمات قليلة استطيع القول أن ردة فعلي كانت مدفوعة برغبة الخروج من الهوة السحيقة التي وجدت نفسي فيها والتي أصبحت أشعر أنها بدأت تنهار وأن فرحة التحرر جعلت الدماء تتدفق في جسمي بقوة وسرعة جعلتني أتخيل نفسي في عالم آخر .

وضعت ذراعي على عيني وتركت المجال للدموع التي كانت متحجرة فيها أن تنهمل . أجل ،بكيت فرحا بالحرية واشتياقا لها، وكانت الدموع التي تدفقت بغزارة من عيني قد ساعدت على شفاء نفسي وإعادة الشعور لدي بالاعتزاز والثقة بالنفس وهو الشعور الذي كان ضائعا مني داخل أعماق الهوة السحيقة التي كنت أجد نفسي فيها . شعرت بالرغبة في الخروج فنهضت وكأنني كنت وسط بحر قذفتني مياهه نحو الشاطئ . لا أعرف كم من الوقت انقضى وأنا أعيش في خضم أحلام الهروب من هذا المعسكر، لكن الواقع الأليم كسر هذه الأحلام مع قدوم العسكري الذي حان دوره لكي يتملكني، ثم سرعان ما اكتشفت أن الذي جاء لم يكن عسكري الاستبداد المعهود بل جاء بدلا عنه جنديان آخران يتبعان قيادة المعسكر اللذان كانا يحملان أوامر نقلي إلى خيمة أخرى بعيدة عن الخيمة التي كنت أعيش فيها، وهكذا تبخر إلى حين حلمي في الهروب من هذا المعسكر، لكنني على كل حال استطعت على الأقل أن أغادر حالة العجز التي شلت أطرافي . قبلت بقرار النقل على مضض لأنني لم يكن لدي أي خيار آخر غير خيار الخضوع للأوامر، وبكل ألم سرت نحو مقر إقامتي الجديد .

كانت الخيمة الجديدة أكبر حجما بكثير ويوجد بها بعض الأثاث، كما يوجد بها مناشف وبعض المواد الغذائية والماء، وعلى أقل تقدير كان بإمكاني أن آكل وأشرب متى أردت دون انتظار لتعليمات العساكر . كان الشخص الجديد الذي امتلك أمري آمر المعسكر، ضابطا في الأربعينات من عمره له شوارب، وعينان صغيرتان ماكرتان حيث عاملني مثلما عاملوني العساكر من قبل كما لو كنت شيئا وليس بشرا، ولعل الفارق الرئيسي هو أنه طلب مني أن أشكره على أفضاله لأنه وفقا لعقليته فقد قام باتخاذ الإجراء الصحيح بشأني .

ورغم بعض التحسن الذي شهده وضعي، فقد كان بعيدا جدا عما كنت أرغبه ؛ بيد

أنه من حيث النظر إلى هذا الوضع الوضيع من زاوية أخرى، فلقد أصبح لدي على الأقل مستبد واحد أتعامل معه، الأمر الذي وفر لي قليلا من السلام، أي أنه توفر لي شيء ما على اقل تقدير . لكن الإرهاق الذي أنهكني، وحشرجة الحرية في أعماقي لم يتركاني أهدأ، وكنت يقظة دائما أبحث عن أية فرصة مهما كانت ضئيلة لكي أهرب من المعسكر . مرت علي ثلاثة أشهر أخرى أصبحت خلالها أشعر من جديد بأني لا شيء، وفي خضم موجة اليأس من إمكانية الهروب التي انتابتني تقوقعت محبطة داخل ذاتي .

بيد أنه خلال تلك الفترة أصبح لدي بعض الحرية باعتباري أتبع آمر المعسكر مباشرة، وهو ما ساعدني على إمكانية التجول داخل المعسكر دون أن يجرؤ أي من العساكر على التعرض لي . وخلال ذلك بدأت فكرة الهروب تختمر في ذهني من جديد وأخذت تتبلور شيئا فشيئا إلى أن أصبحت جاهزة للتنفيذ . وعندما اتضحت فكرة الهروب من هذا المكان في ذهني استطعت استعادة كل القوى الكامنة لدي وشعرت من جديد بأني لا أزال حية أرزق جاهزة للقيام بأي شيء يخرجني من مستنقع الوحل الذي دفنت فيه .

لاحظت أن سائق الشاحنة الذي عرض علي فكرة الهروب قد أوقف الشاحنة في الطريق على بعد خمسين مترا من الخيمة، وظلت تلك الشاحنة متوقفة هناك دون حراسة حوالي نصف ساعة لغرض تزويدها بالوقود وتجهيزها قبل المغادرة . بدأت عندها أحسب وقت توقف الشاحنة، وبدا لي أنه خلال تلك الفترة بعد منتصف النهار يكاد ينعدم خروج أي شخص من الخيام بسبب الارتفاع الشديد في درجة الحرارة في تلك المنطقة . كنت قبلها قد درست معالم ذلك المكان جيدا عندما كنت أتمشى داخل المعسكر بعيدا عن مكان وقوف الشاحنة كي لا أثير الشكوك حولي، ولذا ارتسمت في ذهني خطة الهروب محاولة تنفيذها دون أية مفاجآت غير سارة ولا متوقعة . وعندما تكاملت خطة الهروب في ذهني قررت تنفيذها في اليوم التالي .

وعندما حل الليل لم يغمض لي جفن، ولكني حاولت أن أحتفظ بهدوئي كي لا أثير الشكوك حولي . وعندما أدركت في اليوم التالي أن الظروف أصبحت مواتية للهروب في اللحظة التي حددتها لنفسي مسبقا غطيت رأسي بالعباءة الجديدة التي أهداها لي مالك أمري الجديد، وفي ثنايا العباءة وضعت بعض المأكولات لكي أتقوت بها في رحلتي الجديدة نحو المجهول، كما أخذت معي قربة ماء جديدة ربطتها حول خصري من أجل أن تبقى يداي طليقتين، ولأنني كنت أعرف أن لا أحد سوف يأتي إلى الخيمة قبل أن يحل الظلام فقد اتخذت جميع استعداداتي في متسع كافٍ من الوقت قبل أن تحين اللحظة الحاسمة .

كانت تلك اللحظات من أطول الأوقات التي مرت علي في معسكر الجحيم الذي وضعوني فيه . وأخيرا جاءت الشاحنة في موعدها وبدأ السائق في توزيع حمولتها من الماء على مختلف مرافق المعسكر . بدأ الزمن بالنسبة لي متوقفا رتيبا رغم تدفق وتيرته وذلك بفعل حالة الترقب والاستعجال والتململ التي كانت سائدة لدي في ذلك الحين .





الهروب

عندما انتهى السائق من توزيع المياه على مختلف المرافق العسكرية أوقف الشاحنة في نفس المكان المعتاد، حيث بدا كل شيء عاديا مما بعث في نفسي الشجاعة . انتظرت بضع دقائق للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، نظرت حولي ثم خرجت مقررة الهروب مهما كانت النتائج غير مرضية . مشيت بخطوات واثقة، أو هكذا بدا لي، اقتربت من الشاحنة على الجانب الآخر الذي لا يقابل الخيمة التي كان السائق يتناول فيها الطعام، محاولة ألا يراني أحد كي لا تحبط خطتي . وبكل عزم اتجهت نحو غرفة القيادة، ودون أن أنظر ثانية إلى الخلف رفعت الكرسي إلى أعلى مثلما أبلغني السائق، وبمشقة حشرت نفسي في المكان الضيق الموجود تحته ثم أرجعت الكرسي إلى مكانه محاولة إخفاء نفسي قدر الإمكان . كان المكان الذي اختبأت فيه ضيقا وغير مريح ولكنني حاولت أن أتكيف مع الوضع كي أتمكن من تنفيذ خطتي في الهروب .

كان السكون المطبق والحرارة المرتفعة سمة ذلك المكان الصغير الذي حشرت جسمي فيه، وكان قلبي يدق بقوة وكأنه بدأ يخرج من بين الضلوع . ورغم كل الضيق الذي كنت أشعر به، فقد لاقيت قدرا من الارتياح لأنني أصبحت أكثر ثقة بمسألة هروبي من المعسكر . كان كل شيء في المعسكر هادئا حينما كنت جاثمة أنتظر بنفاذ صبر نجاح عملية هروبي . وبعد بضع دقائق بدت لي وكأنها دهر من الزمن سمعت حركة تدور حولي، وإذا بها حركة السائق الذي صعد إلى الشاحنة، وسار بها بهدوء نحو بوابة الخروج من المعسكر . أدركت أن الخطر لم ينته بعد حيث كان كثيرا ما يتم إيقاف السيارات لتسجيلها قبل الخروج، ولهذا كنت أدعو الله سرا أن لا يتم إيقاف الشاحنة التي طويت جسمي داخلها، ولكني أدرك أنه لا توجد ضمانة لذلك، وكنت مستعدة لتقبل النتائج مهما كانت . شعرت بعدها بالشاحنة تبطئ من سرعتها، وعندما وصلنا إلى نقطة تمركز الحراسة سمعت السائق يحي الجنود بصوت عالٍ نظرا لارتفاع ضجيج محرك السيارة . وفجأة سمعت صوتا أجش قادما من قيادة الحراسة يأمر السائق بالتوقف وهو ما جعلني أموت خوفا . كان هذا الصوت صوت نائب ضابط ليبي أراد أن يستقل الشاحنة إلى مكان آخر يبعد حوالي

عشرة كيلو مترات من المعسكر . شعرت به وهو يصعد إلى غرفة القيادة ويجلس بجوار السائق الذي انطلق بالشاحنة أخيرا مجتازا نقطة التفتيش دون أية عوائق .

وبعد أن استدارت الشاحنة بضع مرات في طريق ترابي مغبر وصلت إلى الطريق الرئيسية التي تربط العقيلة باجدابيا . كان السائق ونائب الضابط يتحدثان بصوت عالٍ حول بعض المشاكل اليومية والعادية، وبعد قليل شعرت أن الشاحنة سلكت طريقا يتجه نحو معسكر آخر حيث غادر نائب الضابط الشاحنة وذهب مسرعا . عاد السائق بالشاحنة نحو الطريق الرئيسي مما أراحني من الرضوض التي كنت أتلقاها كلما ترتطم عجلات الحافلة بحفرة أو عائق، إضافة إلى كميات الغبار الهائلة التي تدخل إلى الشاحنة عندما تسير في الطريق غير المعبد .

لقد كان ذلك بالنسبة لي انجازا لأنني أصبحت أشعر أني حرة، وأني كسرت قيود العبودية من يدي، تلك القيود التي حطمت حياتي خلال سنة كاملة، وحولتني إلى حيوان حقير وضيع . وبعد مرور فترة كانت تتسم بالحذر المطلق قررت ـ إذا لم يكن هناك عائق آخر ـ أن أخرج من المكان الذي حشرت جسمي فيه مستحملة كل الصدمات والرضوض، حيث دفعت بقدمي الكرسي إلى أعلى لكي يتوقف السائق ويخرجني من هذا القبر . عبر السائق عن إعجابه بنجاح الخطة وسار بالشاحنة ببطء نحو الجانب الأيمن من الطريق، ثم أوقفها وبسرعة قام برفع الكرسي إلى أعلى وهو يتمتم بكلمات تلعن هذا الزمن الرديء .

وعندما رآني أخرج وجسمي مشبع كله بالغبار الأبيض الذي أحاط بي وكأني في حفلة تنكر لم يستطع أن يتمالك نفسه وطفق يقهقه . كانت درجة الحرارة عالية في المكان الذي اختبأت فيه حيث امتزج الغبار الأبيض بالعرق الذي كان يتصبب من جسمي مكونا طبقة من عجين تلبد حول جسمي مما جعلني أبدو مثل السمكة المغموسة في الدقيق تمهيدا لقليها . ضحك السائق قليلا ثم عاد سريعا إلى الجد متذكرا المخاطر التي قد تترتب على تهريبه لي في الشاحنة، ثم قام بمساعدتي على الخروج والنزول من الشاحنة ثم أعاد الكرسي إلى موضعه . سألني كيف استطعت أن أختبئ في الشاحنة دون أن يراني فشرحت له كل شيء من البداية إلى النهاية، مضيفة أنني اتخذت قرار الهروب من المعسكر لأنني كنت على وشك أن أُجن خلال تلك الفترة المريعة التي أجبروني على قضائها به . وعلى وجه السرعة أدار عزيز محرك الشاحنة بعد أن تأكد أنه لا توجد سيارات أخرى على الطريق، حيث شعرت من خلال تصرفاته أنه كان خائفا من اكتشاف أمره، ولكنه واجه

المخاطر بعزم وقال لي : يا سليمة، إذا لاحظت قدوم أي شخص عليك أن تخفي نفسك بسرعة كي لا يتم رصد وجودك، وبالتالي يستطيعون اقتفاء أثرك والقبض عليك .

وبطبيعة الحال كنت منتبهة لذلك لأن آخر شيء أفكر فيه هو العودة إلى المعسكر من جديد حيث ستكون معاملتهم لي بكل تأكيد أسوأ بكثير من ذي قبل، ولهذا كنت أفضل الموت على العودة ثانية إلى المعسكر . ولحسن الحظ كانت حركة الناس قليلة خلال تلك الأوقات الحارة من النهار . حيث أننا بعد فترة وبسرعة معقولة وصلنا إلى أطراف اجدابيا . وقبل أن نصل إلى مناطق العمران في اجدابيا أوقف عزيز الشاحنة وطلب مني أن أختبئ مرة ثانية تحت الكرسي كي لا يراني أحد، ثم أخذ يسير بالشاحنة من منعطف إلى آخر ثم توقف قليلا ثم استأنف السير إلى أن وصل إلى نقطة أطفأ خلالها محرك الشاحنة ورفع كرسي القيادة قائلا لي أنه يمكنني الخروج الآن لأنه لم تعد هناك مخاطر بالخصوص .

وهكذا استطعت أخيرا أن أشعر أني حرة من الكابوس الذي جثم على كاهلي طيلة الفترة الماضية من حياتي التعسة . نظرت حولي فشعرت بسعادة بالغة لأنني لم أعد أرى تلك الخيام ولا الجنود الذين يمثلون بالنسبة لي العسف والاستعباد والعنف وكل الأمور الشريرة التي يمكن أن توجد بهذه الدنيا . لم أعد أرى الآن سوى حائط مرتفع تتوسطه البوابة التي دخلت منها الشاحنة، وعلى الجانب الآخر توجد عدة غرف تشكل المنزل الذي يسكنه عزيز .

قام عزيز بمساعدتي في النزول من الشاحنة، ثم أخذني إلى غرفة بها طشت مملوء بالماء وصابون ودولاب صغير ثم قال لي : تستطيعين أن تغتسلي لكي يذهب عنك كل هذا الغبار، وخلال ذلك سوف أقوم بالبحث عن ملابس لك، وإذا ما احتجت إلى مزيد من الماء فهناك توجد الحنفية حيث تستطيعين استخدام كمية الماء التي تريدين لأننا هنا يتوفر لنا الماء دائما ولا تحتاجين بالتالي إلى الاقتصاد كثيرا في استهلاكه . قال لي ذلك عن عمد لأنه يعرف مقدار ما نثمن به - نحن أبناء الصحراء - الماء . وبمجرد أن خرج عزيز خلعت ثيابي واستحممت دون أن أقتصد في كمية المياه، وقد استمتعت بذلك إلى درجة لا تصدق لأنها كانت المرة الأولى في حياتي التي استخدم فيها كل الكمية التي أحتاجها من الماء .

بعدها أحضر لي عزيز منشفة ومشطا وملابس لائقة، حيث قمت بارتداء ملابسي وتمشيط شعري مستخدمة مرآة كانت مسندة إلى الحائط، حيث استطعت أن أرى نفسي بعد انقضاء وقت طويل على ذلك لدرجة أنني كدت لا أعرف نفسي لأنه لم يتبق شيء أبدا من سليمة التي أذكرها وهي طفلة تجري مع باقي أطفال النجع . رأيت نفسي الآن كامرأة

ذات ملامح ليست قبيحة لكن دمرها سوء المعاملة، وغرس الحزن والخوف في عينيها . وبكل تأكيد لم أسعد بالهيأة التي رأيتها لنفسي في المرآة، ولكن كان يتوجب علي قبولها على أية حال . كان عمري آنذاك ثلاثة عشرة عاما وكنت شديدة عدم الرضا عن نفسي . وهكذا وجدت أنه يتعين علي أن أتكيف مع وضعي الجديد، وأن أضع حدا لهذه الأفكار السلبية، ثم خرجت من الغرفة .

كان عزيز واقفا تحت مظلة ممتدة فوق أحد الأبواب الخاصة بالبيت، وكان قد أوقد نارا ثم وضع على جمراتها إبريق الشاي الذي كان يغلي وتنبعث منه رائحة الشاي المنعشة في كل الأرجاء . كانت رائحة الحرية، رائحة الحياة الطبيعية في منزل يمتلئ بالهدوء والسكينة والألفة، لا يوجد به جنود ولا سادة ولا طغاة . قمت بعد ذلك بتحضير العشاء مستخدمة في ذلك المواد الغذائية القليلة التي أحضرها عزيز، وبعض المواد القليلة التي كانت موجودة بالمنزل حيث أكلنا بصمت لأن كل واحد منا كان مستغرقا في أفكاره، وبالنسبة لي كنت سعيدة بطبيعة الحال أنني استطعت الهروب من وضع مأساوي لا أملك أية قدرة على مواجهته . أما عزيز فقد كان بكل تأكيد يفكر في المسئولية التي وضعها على عاتقه بسببي، كما أعتقد أنه كان يفكر في المخاطر التي كان يمكن أن يتعرض لها لو أنهم اكتشفوا أمرنا وألقوا القبض علينا، وقد كان على حق لأن تلك المخاطر مخيفة بالفعل رغم أنه في هذه الحالة تصرف وفق إرادتي أنا وليس وفق إرادته هو، لكن من ذا الذي يستمع إلى أعذاره وتفسيراته للأحداث ؟ لقد كانت النتائج المحتملة لاكتشاف أمرنا مأساوية بالفعل .

وبعد العشاء بقينا في الساحة الخارجية للمنزل نتحدث عن مختلف جوانب عملية هروبي من المعسكر، وبعد أن أصبح الوقت متأخرا قررنا أن نخلد إلى النوم لأن عزيزا كان يتوجب عليه أن يستيقظ مبكرا بسبب ارتباطات العمل . وهكذا نمنا واحدا بجوار الآخر، وقد كانت المرة الأولى في حياتي التي أنام فيها بجوار رجل دون أن أشعر بالهم والغم والاشمئزاز . ورغم أن عزيزا لم يكن يرغب أن أنام بجواره إلا أنه كان يدرك وضعي النفسي الذي كنت عليه خلال إقامتي بالمعسكر ولذا لم يشأ أن يجرح مشاعري بمنعي من النوم بالقرب منه . أما بالنسبة لي فقد كنت أريد أن أظل قريبة من عزيز لأن الخوف والهلع من عساكر الطليان عشعش في مخيلتي ولذا كنت أجد كل الأمان في البقاء قريبة من الرجل الكريم الذي ارتاد المخاطر الكبيرة من أجلي ووضع نفسه عرضة لمختلف المصائب التي يمكن أن تلحق به لو اكتشف أمرنا.

لقد كانت حياتي في منزل عزيز فرصة لاستعادة صحتي وتوازني النفسي بعد فترة من جحيم المعسكر الذي تتفتح كل جروح قلبي كلما فكرت ـ مجرد التفكير ـ فيها . كان عزيز رجلا فاضلا عاملني معاملة جيدة، ولم يشأ أبدا أن يذكرني حتى تلميحا بحياتي المشبعة بالعذاب في المعسكر، وهذا أمر أشكره عليه لأنني بذلك استطعت أن استريح جسديا ونفسيا، واختفت عني مظاهر القلق الشديد والخوف والقرف لدرجة أن حسن الحال جعلني في بعض الأحيان أردد بعض الأغاني التي تعلمتها من أمي .

بيد أن هذا الهدوء لم يستمر طويلا، لأنه قبل انقضاء عام على اقامتي في منزل عزيز انتظرته في إحدى الليالي ولكنه لم يأت . حل صباح اليوم التالي ومساؤه دون أن يغمض لي جفن لأنني لا أعرف أحدا استطيع أن أسأله عن عزيز، ولم أكن أعرف المدينة التي كنت أعيش فيها . كنت لا أعرف شيئا عن العالم الخارجي فيما وراء البوابة الرئيسية للمنزل . مرت الساعات تلو الساعات رهيبة واثقة من نفسها وهي تتبختر في الزمان المطلق . أجل هكذا كانت تبدو من خلال وجهة النظر الإنسانية المشبعة بالإرادة والعواطف الجياشة .





استشهاد عزيز

ازداد خوفي بعد أن أمضيت ليلة تعيسة ويوما نحسا لم أذق خلالهما طعاما، واكتفيت بشرب بعض الماء عله يطفئ النار التي تستعر داخل أحشائي . ثم أقبل الليل مرة أخرى وغطى بردائه الأسود نفسي التي ترسف في خضم الألم . فقدت الأمل، وندبت حظي العاثر، وما يمكن أن يكون قد أحل بعزيز . لقد أنهكني الجوع والألم، وحين استلقيت وأنا قلقة وملأى بالهواجس السيئة سمعت طرقا خفيفا على الباب الخارجي للمنزل، فمكثت حذرة بعض الوقت وقد خارت عزيمتي بفعل الخوف مما جعل الطارق يعيد تنفيذ طرقاته الخفيفة على الباب مضافا اليها مناداتي باسمي . تقدمت حذرة نحو الباب، وبصوت خافت خجل ومرتجف تساءلت عن هوية الطارق الذي أجابني قائلا : أنا خليفة، أحد أصدقاء عزيز . لقد أوفدني اليك فأرجوك أن تفتحي الباب لأنه خطر علينا أن أظل ماكثا في الخارج لفترة طويلة . لا تخافي يا سليمة وتأكدي تماما أنني جئتك من طرف عزيز . افتحي أرجوك .

لقد سمعت ذكرا لأسمه من قبل، ولابد أن يكون هو بالفعل لأنه لا أحد يعرف بوجودي في البيت . نعم، سمعت عزيزا يذكر اسمه من قبل مشيرا إلى أنه صديق له يمكن الوثوق به . فتحت الباب الخارجي فوجدت خليفة يقول لي بصوت خافت : يجب أن نغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن لأن العساكر سيأتون قريبا للحجز على المنزل . إن عزيزا ينتظر قدومك، وقد أوفدني لكي أحضرك اليه بسرعة، ولم يستطع هو الحضور شخصيا لأنه جريح، وهو ينتظرك في منزلي . سألته مرارا ما الذي جرى له، لكنه لم يقدم لي جوابا وحثني على الإسراع في المغادرة .

وباستعجال كبير جمعت ما استطعت جمعه من حاجاتي القليلة والضرورية جدا، وخرجنا من البيت خلسة وفي هدوء تام . مشينا في الشارع إلى نهاية سور المنزل وكنا ننظر حولنا كي لا نتفاجأ بما لا يحمد عقباه . تحدثنا ونحن نمشي لمسافة مائتي متر تقريبا ثم رأينا شاحنة نقل جنود وأخرى تنقل رجال الشرطة تتجهان تماما نحو المنزل الذي غادرناه لتونا . ولحسن الحظ لم يلاحظوا وجودنا بالشارع حيث استطعنا خلال دقائق قليلة الوصول إلى منزل خليفة .

دخلنا إلى المنزل الذي كان يفتقر إلى الأثاث، حيث قادني خليفة إلى سرير بائس كان عزيز مستلقيا عليه وهو في حالة احتضار، لكنه رغم ذلك عرفني، واستجمع ما تبقى له من قوة فأمسك بيدي وقال لي بصوت هامس : في رعاية الله يا سليمة، وكل الذي ما زلت أستطيع أن أقدمه لك هو النصيحة التالية : إبق مع صديقي خليفة لأنني على يقين أنه سيحميك كما كنت أود أن أستمر أنا في حمايتك . إنني الآن أفارق الحياة وأنا سعيد لأنني استطعت تأدية واجبي نحو وطني . قال ذلك ثم فارق الحياة فعلا .

بكيت بحرقة ولوعة الرجل الوحيد الذي قدم لي المساعدة في حياتي القصيرة التعسة . وفي نفس تلك الليلة قام خليفة بتجهيز رفاة عزيز ووضعه على عربة يد كانت موجودة في الممر الخارجي للمنزل . لم أعلم أين قام بدفنه، ولكني أعلم فقط أنه عاد إلى المنزل بعد حوالي ساعتين بنفس عربة اليد التي خرج بها . كنت لا أزال أذرف الدموع بحسرة، وكان يدمرني الألم أولا والجوع ثانيا، وأصبحت خائرة القوى لدرجة أنني لم أستطع الوقوف . جلس خليفة إلى جواري وكله جد وانشغال، وكانت عيناه تمتلآن خوفا، وكان يبدو شارد الذهن وكأنه يريد أن يقول لي شيئا لا يمتلك الجرأة لقوله، وهكذا مكثنا صامتين لفترة طويلة من الزمن احتراما من كل واحد منا لشعور الآخر .

كانت مظاهر التعب والألم والإجهاد قد بلغت مداها عندي، وخارت قواي القليلة، ولأنني كنت متكئة فوق حصيرة فقد نمت نوما عميقا . استيقظت اليوم التالي في وقت متأخر جدا، وكنت أشعر ببعض التحسن . كان خليفة قد استيقظ قبلي بوقت طويل، حيث قام بإعداد طعام الإفطار قائلا لي : تعالي وتفضلي بتناول القليل من الطعام الذي يوجد لدينا لأنني يجب علي أن أذهب لفتح المحل التجاري حتى لا تثار حولي الشكوك . قال ذلك ثم خرج وتركني وحيدة بالمنزل . تناولت قليلا من الطعام ولكني شربت كثيرا من الشاي، وهو ما ساعدني على استعادة نشاطي، وبعد منتصف النهار بقليل عاد خليفة حيث تناول غداء خفيفا ثم قال لي قبل أن يعود إلى عمله : سوف أعود ليلا بعد إغلاق المحل التجاري، والى ذلك الحين تستطيعين أن تقومي بما بدا لك من أمور وكأنك ربة البيت، وسوف نتعشى هذه الليلة معا، وعندها سوف أخبرك بكل شيء لأنه لا يوجد لدي الوقت الكافي لسرده الآن .

بقيت وحيدة مرة أخرى، ولكي أتفادى التفكير فيما حدث، وأبعد عن نفسي طغيان الآلام قررت تنظيف البيت وترتيب شئونه باعتباره أمرا ضروريا حتى أستطيع أن أتفرغ لإعداد طعام العشاء فيما بعد لكي يكون جاهزا عند عودة خليفة . وعلى حوالي الساعة

السادسة مساءً حضر خليفة إلى البيت حاملا معه كيسا مملوءا بالمواد الغذائية لأنه كما ذكر لي لم يكن متأكدا أنه يوجد بالمنزل ما يكفي من تلك المواد .

وبعد الانتهاء من تناول العشاء، وعندما كنت أعد الشاي شرع خليفة في سرد ما حدث قائلا لي : أود أن أعبر لك عن تعاطفي الشديد معك لأنني أعرف بناءً على ما قاله لي عزيز ـ رحمه الله ـ أنك عانيت كثيرا، وأنك تكرهين عساكر الطليان لا لمجرد أنهم قتلوا والديك، ولكن أيضا لما ألحقوه بك من أذى فيما بعد . سأحكي لك عن أشياء لم يسمعها مني أحد من قبل لأنه إذا ما اكُتشف أمري فسوف يقتلونني، لكني أثق ثقة مطلقة في ولائك لأنك عانيت القهر مثلما عاناه الكثيرون . وبعد هذه المقدمة الطويلة بدأ خليفة يسرد كل الحكاية قائلا : منذ وقت طويل كرست أنا وعزيز جهدنا لاستقبال الأسلحة المهربة لإخواننا المجاهدين، وعندما نتلقى بلاغا بذلك نغادر في جنح الظلام إلى خليج صغير لا يكاد يرى بالنسبة لمن لا يعرفه وهو يقع في أطراف اجدابيا، وفي هذا المكان نستقبل قاربا مملوءا بالأسلحة ثم نقوم بنقل هذه الأسلحة في الشاحنة التي يقودها عزيز إلى المجاهدين وهم المناضلون الوطنيون الذين يسميهم الايطاليون بالمتمردين . المتمردون ؟!لا أعرف متمردون على ماذا؟! ـ هكذا ردد خليفة هذه العبارة بعينين متقدتين . ما نريده نحن هو استقلال بلادنا . نحن ندرك أن الايطاليين لا يروق لهم إعطاءنا لقب المجاهدين أو المناضلين الوطنيين ولهذا ينعتوننا بالمتمردين، ولكن هذا وصف غير عادل بالنسبة لنا، وهم يطلقونه علينا لكي يبرروا ما يقومون به في حق شعبنا، ولعل أسوأ ما في هذا الأمر أن بعضا من مواطنينا يتعاونون معهم، كما أن هناك أعدادا أخرى منهم لا يكترثون بما يحدث.

وفي تلك الليلة التي جرح فيها عزيز ذهبنا سوية إلى نفس المكان الذي كنا ننتظر فيه وصول القارب المحمل بالأسلحة والذخيرة والسترات الواقية من الرصاص، وذلك من أجل نقل هذه المعدات إلى مكان آخر كما كنا نفعله دائما . لكنه خلال تلك الليلة الليلاء، وبينما كنا ننقل هذه الأسلحة سمعنا أصوات سيارات عدة تقترب منا، وكان واضحا أن سيارات تسير ليلا وفي هذا المكان بالذات لابد أن تكون سيارات الجيش الايطالي، أي سيارات العدو . توقفنا عن عملية شحن الأسلحة في الحال وحاولنا استخدام الشاحنة في الابتعاد عن هذا المكان، كما غادر القارب مياه الخليج إلى عمق البحر في تلك الليلة العاصفة الظلماء التي لا نجم فيها . انطلقنا بكامل سرعتنا لكن عساكر الطليان ظلوا يلاحقوننا عن قرب . حاولنا السير في طريق جانبي لكي ننقذ أنفسنا والأسلحة التي لدينا، لكنه لم يكن ممكنا أن نجعلهم يفقدون أثرنا، خاصة أننا كنا نعلم أنهم قد يطلبون الإسناد من

قوة عسكرية أخرى يعطونها إحداثيات موقعنا مما يجعلنا بين فكي كماشة ويستطيعون بذلك إبادتنا . لم يبق أمامنا خيار آخر سوى الاتجاه نحو المكان الذي أخفينا فيه أربعة من الخيل وربطناها بداخله حيث أردنا استخدام ثلاثة منها لنقل الأسلحة والرابع لكي أركبه أنا، لأنه وفقا للخطة فإن عزيزا كان سيعود بالشاحنة فارغة كي لا يتم اكتشافنا في حالة اعتراض الطليان للشاحنة، وكان دوري أن أعود بالأسلحة للمجاهدين الذين كانوا بانتظاري وذلك من خلال السير ليلا في الصحراء التي أعرفها جيدا .

لكن الأمور لم تسر على ما يرام في تلك الليلة، ولذا رأينا أنه يتعين علينا إنقاذ أنفسنا إذا كان ذلك ممكنا . أخذنا نجري وسط الصحراء كالمجانين، ولا أدري كيف استطعنا أن نصل إلى المكان الذي توجد به الخيل وربما كان ذلك بفعل فطنة عزيز الذي سار بنا على ذلك الطريق الذي يعرفه جيدا والذي سلكه مرات عدة من قبل . وعلى كل حال استطعنا الوصول سالمين لحسن الحظ لكني إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف حدث ذلك .

ركبنا ظهور الخيل على عجل، وقاد كل منا حصانا آخر من لجامه لكي لا نترك للطليان وسيلة يستطيعون من خلالها تعقبنا . كان يمكن أن يكون كل شيء على ما يرام، لكن عزيزا قرر العودة إلى الشاحنة، وصاح يخاطبني طالبا أن ابتعد عن الشاحنة، ورغم أنني لم أكن موافقا على تصرفه إلا أنه لم يكن هناك وقت لكي اسأله عن الأسباب التي دفعته إلى هذا التصرف . صعد عزيز إلى الشاحنة ثم تناول قنبلة يدوية من تلك التي كانت محملة بها حيث قام بالابتعاد بضع خطوات ثم نزع فتيل القنبلة وبإصرار وعزم قام بإلقائها وسط الشاحنة . حينها كان عساكر الطليان قد اقتربوا منها وهم يطلقون النار من رشاشاتهم . وهكذا انفجرت تلك القنبلة التي ألقاها عزيز وتسببت فيما بعد في حدوث انفجار هائل مريع لدرجة أن هذا الانفجار كاد يوقعني أنا رغم أنني كنت على مسافة بعيدة منه . ومع الانفجار بقيت أصارع الخيول التي كانت تضطرب كالمجنونة بفعل هول الانفجار ثم رأيت عزيزا ملقى على الأرض ووجهه مغروس في التراب، عديم الحركة وكأنه ميت .

كنت لا أزال على مسافة حوالي أربعمائة متر من المكان الذي توجد به الشاحنة، محاولا أن أستفيد من عدم معرفة أعدائنا بتضاريس المكان . وعندما استطعت إلى حد ما السيطرة على الخيول ذهبت إلى حيث يوجد رفيقي عزيز لأنني لا يمكن لي أن أتركه هناك سواء كان حيا أم ميتا . ودون أن أنزع من يدي لجام أي من الخيل التي كانت في تلك اللحظات وسيلتنا الوحيدة للخلاص، استجمعت قواي المحبطة وقمت بحمل عزيز على أحد هذه الخيول، وانسحبت مبتعدا عن ذاك المكان بقدر ما استطعت من سرعة

واستعجال .

وعندما أصبحنا على ظهور الخيل ذهب عني الخوف لأنني كنت أعرف أنه بإمكاننا الهروب لأن الكثبان الرملية العالية سوف تمنع تقدم عساكر الطليان لتعقبنا في سياراتهم العسكرية . أما الخيول الأخرى التي كانت لدى عزيز قبل الانفجار فقد ضاعت منا في ظلام الليل . وبعد بضع دقائق أصبحنا وسط الصحراء حيث كانت رمالها المتحركة تخفي آثار أقدام الخيل مما يجعل من غير الممكن تعقب أثرنا . وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي استطعنا الوصول إلى حيث كان رفاقنا في انتظارنا، حيث بدأوا على الفور في محاولة إسعاف عزيز من جراحه وقد كان لا يزال جثة هامدة بلا حراك . حاولوا اتخاذ كل السبل الطبية لإنقاذ حياته لكن دون جدوى . لقد دفع المسكين حياته ثمنا لشجاعته وإقدامه . وعندما أقبل الليل رجعت إلى المنزل وحملت عزيزا معي اليه لأنه عاجلا أم آجلا فسوف يتعرفون عليه من خلال الشاحنة التي كان يقودها . كان عزيز لا يزال جثة هامدة بلا حراك، لكنه كان واعيا لما يدور حوله . وحيث أنه كان يدرك أن نهايته قد أوشكت أراد أن يأتي إلى منزلي لكي يستطيع توديعك . أما نحن فإننا نشعر أننا ملتزمون بتنفيذ وصيته الأخيرة لنا . ولهذا ذهبت إلى منزله لكي أبحث عنك بحذر وأحضرك اليه . أما باقي الحكاية فقد كنت شاهدا عيان عليه . صدقيني يا سليمة أنني أشعر بالحزن الشديد لفقده . فإذا كنت قد فقدت شخصا عزيزا ساعدك على نيل حريتك الشخصية فإنني فقدت أفضل أصدقائي وأشجعهم وأكثرهم إخلاصا . لقد أعطاني عزيز هذه العلبة الصغيرة قائلا لي إنها الرغبة الأخيرة له، وبهذه العلبة كل النقود التي كان يملكها، وطلب مني أن أعطيك هذه النقود لكي تساعدك قدر المستطاع بعد أن يفارق هذه الدنيا .

وهكذا استمر نحيبي، لا بسبب فقداني لعزيز فقط بل أيضا بفعل الأحاسيس التي تولدت لدي جراء وصيته الأخيرة، حيث أنه جعلني أدرك أنني لم أكن مجرد شيء بالنسبة له، فلربما كان يحبني . وعلى الرغم من أنه قد توفي إلا أنني أحسست بشكل غريب بكل المحبة له حتى بعد أن فارق الحياة . مددت يدي وأخذت النقود ليس فقط بسبب قيمتها المادية بل لأنها أيضا التذكار الوحيد الذي يربطني بالإنسان الذي كان حتى آخر لحظات حياته يتذكرني ويترك لي كل ما كان يملكه من نقود في هذه الدنيا .

بقي خليفة صامتا مطأطئ الرأس، ربما كان يفكر بحزن في فقدان رفيقه وصديقه عزيز، ودون أن ينظر الي قال لي إن البيت بيتي، وأنني استطيع أن أفعل ما أشاء خلال غيابه لأنه سيغادر المنزل صباح اليوم التالي ويعود ليلا كما جرت العادة، ثم أضاف

قائلا لي ان الاعتناء بشخصي لا يمثل فقط تنفيذا لوصية صديقه عزيز، ولكنه يمثل أيضا تضامنا معي لأنه يسعده دائما تقديم العون لي وأنا الذي عانيت الأمرين دون أي ذنب اقترفته ثم استطرد يقول : لا أريد أن أزعجك بأي عمل مهما كان صغيرا . عندما تحتاجين إلى أي شيء أرجو أن تخبريني به وسوف أفعل كل ما استطيع لكي أوفره لك . هذه الغرفة ستكون غرفتك أنت بالمنزل، أما أنا فسأنام في الغرفة الأخرى . تصبحين على خير يا سليمة وحفظك الله من كل مكروه .

بقيت وحيدة أصارع أفكاري الحزينة، وظللت أعقد المقارنات في ذهني بين هؤلاء الرجال الأشاوس وأولئك الأنذال الذين حقروني وأخضعوني للعذاب المستمر في المعسكر . لم أعد الآن أكره كل الرجال مثلما كان الحال عندما كنت بالمعسكر الايطالي لأن إرادة الله جعلتني أدرك أن هناك رجالا يستحقون كل التقدير والاحترام. لقد ساعدني ذلك على تقلص دائرة الكره لدي، وكنت سعيدة أن أدرك أنه ليس كل الرجال يشبهون أئمة الاستبداد الوحشي في المعسكر الايطالي . ظللت أفكر في هذه الأمور إلى أن غلبني النوم، وقد كان نوما هادئا .

وفي الصباح صحوت، وبسرعة أعددت طعام الإفطار لخليفة قبل أن يغادر المنزل إلى مقر العمل ؛ فقد كنت أبحث عن أي شيء أقوم به تجاهه لكي أشكره على موقفه النبيل . وعندما كان على وشك الخروج قال لي بلطف شديد شيئا هزني من أعماقي : يا سليمة ! لا يجب أن تستيقظي مبكرا من أجل تقديم خدمة لي . لا أريد أن تستمري في تقديم الخدمة للآخرين، ولا حتى لي أنا شخصيا . لا يجب أن تشعري أنك ملزمة بفعل أي شيء . أريدك فقط أن تشعري أنك حرة وبدون أية التزامات . كفاك ما فرضوه عليك في الماضي ! قال ذلك ثم خرج، تاركا وراءه إنسانة غمرها بلطفه وتضامنه .

عاد خليفة على حوالي الساعة السادسة مساءً متعبا، وقد أحزنه أنه رأى كل شيء في المنزل نظيفا مرتبا في كل جوانبه، إضافة إلى طعام العشاء الذي كان جاهزا . هز رأسه محاولا أن يعاتبني، ولكنني لم أترك له المجال حيث قاطعته قبل أن يبدأ كلامه وقلت له : يا خليفة ! أرجوك ألا تغضب بسبب ما قمت به من عمل في المنزل، لأنني لا أستطيع أن أمكث في المنزل طوال اليوم دون أن أقوم بأي شيء حيث أن ذلك سيكون مضرا لي لأنه يجعلني أعيش وحيدة مع ذكريات الماضي الحزين، مع الألم والخزي والاحتقار ،وهذا يجعل الوضع أسوأ بالنسبة لي . لكن العمل يساعدني على أن أتصالح مع نفسي، ويبعدني عن البكاء، ولهذا أرجوك ألا تمنعني من القيام بما أريد القيام به لأنني أقوم به ليس فقط من أجلك

أنت ـ رغم أنك تستحق ذلك بجدارة ـ ولكنني أقوم به بالدرجة الأولى من أجلي أنا .

نظر خليفة تجاهي للحظات ثم ارتسمت ابتسامة على شفتيه جعلته يبدو أكثر شبابا، ثم هز رأسه بلطف قائلا لي بهدوء : يا سليمة ! لقد حدثني عزيز عنك كثيرا، لكنني أعتقد الآن أنه لم يخبرني بكل شيء عنك . أنت إنسانة طيبة، وأنا أشعر أنني محظوظ أن تكوني ضيفة لي في بيتي، لكن الذي أريد لك أن تفهميه هو ألا تشعري بأنك ملزمة بالقيام بأي شيء هنا . أريدك أن تقومي بفعل الأشياء التي تروق لك، وبالنسبة لي أريدك أن تتصرفي وكأن البيت بيتك وأن تحاولي أن تنسي الأوقات المرة التي عشتيها في الماضي، وأن تستشعري السعادة في حياتك الجديدة التي تبدأينها . لا تنظري إلى الخلف بل إلى الأمام، نحو آفاق جديدة من أجل أن يتوفر لك الاستقرار النفسي الذي نمتلك جميعا كل الحق في الحصول عليه .

لم أستطع أن أكتم مشاعري تجاه هذا الموقف الكريم فبكيت ثم انزويت فجأة إلى غرفتي تاركة خليفة ورائي حائرا حزينا إزاء رد فعلي الغريب الذي لم يستطع أن يفهمه كليا . وهكذا تغير مجرى حياتي للمرة الثانية على التوالي، وأشكر الله أن التغيير الذي حدث خلال هاتين المرتين كان ايجابيا لأنني أصبحت محترمة، وأعامل برقة ولين، وأفعل ما يعن لي دون إجبار من أي نوع . أصبحت إنسانة لا مجرد شيء، أقرر كل ما أريد أن أفعله مثلما تقرره أية امرأة أخرى . أصبحت سليمة من جديد لأنني عدت إلى ذاتي .

بقيت على هذه الحال ثلاثة أشهر وكأنني في حلم . لم أتضايق من الروتين اليومي لحياتي لأنني توفر لدي الهدوء والسلام والراحة الجسدية والنفسية . أعادت لي حياة الاستقرار الحياة وجعلتني أولد من جديد . شعرت وكأن الوحل الذي كان عالقا بجسمي قد تنقى وأصبحت نظيفة كما يجب أن أكون كشابة في مقتبل العمر . ومع مرور الوقت تولدت لدي الجرأة لكي أنظر إلى خليفة وجها لوجه دون أن أشعر بالدونية أمامه، وكان هذا هو تماما ما كان يريده خليفة، ولهذا لم يحدث أبدا أن جرح مشاعري أو نهرني بسبب هذه الجرأة . وفي إحدى الليالي، وبعد أن تناولنا طعام العشاء رجاني خليفة أن أبقى معه قليلا لأنه يريد أن يحدثني عن أشياء كثيرة، لكنه بصراحة لم يكن يعرف من أين يبدأ الحديث عنها، ولذا حاولت أن أشجعه على الحديث بقولي إنني موافقة على كل شيء له علاقة بي يريد أن يقوله لأنني مدينة له ولقلبه الطيب وكرمه بالتوازن النفسي والجسدي الذي أصبحت أعيشه .

عندها قال لي : أنا سعيد أن أسمع منك هذا الكلام، لأنني بشكل أو بآخر لم تكن لدي

الشجاعة أن أقول لك أشياء معينة ذات أهمية بالغة بالنسبة لي، وبالنسبة لك أنت أيضا يا سليمة .لا أريد لك في حالة إذا ما وقع لي أي شيء أن تصبحي من جديد ورقة في مهب الريح ؛ ذلك أنني اعتبارا من يوم الغد سأستمر في تأدية واجبي الوطني في جلب الأسلحة لإخواني المجاهدين، وكما تعرفين جيدا فهذا عمل خطير، وإذا ما حدث لي أمر فلا أدرى كيف سيكون مصيرك أنت، وهذا أمر يشغلني كثيرا، لقد فكرت مليا في الموضوع ورأيت أن الحل يكمن في أن نتزوج إذا ما كنت توافقين على ذلك . وهكذا إذا ما حدث لي أي مكروه تستطيعين البقاء في المنزل وبيع المحل التجاري . قد يكون هذا حلا يجعلك قادرة بأي شكل من الأشكال على مواجهة ظروف الحياة . قال لي خليفة ذلك وقد بدا متوجفا من احتمال أن أرفضه كزوج، أي كشريك لي في الحياة .

لذا أمسكت بيديه وصرت أربت عليهما بلطف وأجبته قائلة : إن ما يزعجني يا خليفة، أيها الإنسان الطيب، أنه يتوجب عليك الاستمرار في عمليات تهريب الأسلحة بما تحمله من مخاطر كبيرة، وبخصوص طلبك بأن أصبح زوجتك يا سيدي فإنني أرى أنني لست أهلا لذلك، ولكن إذا كنت تعتقد بطيبة قلبك الكبرى تستطيع أن تعلي من شأني وترفعني إلى مستواك، فإنني أقبل أن أكون خادمتك المطيعة التي وهبت لها الحياة والأمل، والأهم من ذلك كله الشرف ؛ أي تشريفي بأن أتحول إلى زوجة لك . أقبل برغبتك في الزواج مني من كل قلبي لكي أستطيع أن أخدمك بمزيد من الحب، وأن أكون قريبة منك . أقبل ذلك كلية ودون أي تحفظ من أي نوع، وسوف أمنحك كل الحب الذي أستطيع منحه لك لأنك أنقذتني من الهوة السحيقة التي كنت على وشك الوقوع فيها . وبينما أنا أبكي أمسكت بيديه وصرت أربت عليهما بحرارة وحنوت رأسي من أجل أن أطبع قبلة عليهما لكنني شعرت بذراعيه ترتجفان وكأنه كان يخشى قربي الشديد منه خارج إطار الشرعية . ابتعدت عنه ممسكة بذراعيه الدافئتين المتدفقتين حبا مما ساعدني على تهدئة مشاعري من حالة البكاء، وجعلني أشعر أنني امرأة، وخضعت للحب بل لنوع مميز من الحب، إنه الحب المتبادل .

وبعد ذلك ببضعة أيام تزوجنا، حيث تم تسجيلي باسم زائف في وثيقة الزواج كي نتحاشى المشاكل . كان اسمي الجديد في عقد الزواج هو مبروكة، ومع هذا التطور الجديد بدأت مرحلة أخرى في حياتي . كان خليفة هو الوحيد الذي يعرف اسمي الحقيقي، وظل يناديني دائما باسمي سليمة، وكان هذا السر المشترك أحد العوامل التي وحدت بيننا، وجعلتنا أكثر ارتباطا من الناحية العاطفية . وهكذا عرفت السعادة التي كانت أحد

المستحيلات في حياتي السابقة ولم يكن يشغل بالي سوى غيابه من آن لآخر لتأدية واجبه الوطني في تهريب الأسلحة للمجاهدين الليبيين ضد الاحتلال الايطالي .

ورغم أنني أجد كل المبررات لغيابه، إلا أنني تألمت كثيرا لهذا الغياب، وصرت مثل الكلب الذي خُطف من صاحبه، لكن كلما عاد خليفة من مهامه الوطنية عوضني عن هذا الألم بإعطائي كل وقته وحبه الكبير . ولحسن الحظ فإن هذه المهام الوطنية كانت تنفذ كل ثلاثة أشهر تقريبا مما أعطاني الوقت لنسيان ألم غيابه، لكنها ظلت مثل الشوكة المغروسة في جسمي والتي كلما تم الضغط عليها تجعلني أنحني وأتذكر الواقع . مرت ثلاث سنوات علي وأنا أعيش هذا النمط من الحياة . كانت مثل الحلم، ومرت مثل شعاع من النور في وسط الظلام الذي لف وجودي، لكن هذا الضياء كان يعوضني دائما عن كل المرارة التي اتسمت بها حياتي الماضية . وفي إحدى الليالي صعقتني سخرية القدر بألم فضيع لأن خليفة لم يعد إلى البيت . لم يبلغني - كعهده دائما - بأنه سيغيب مما جعلني أفكر بأن مكروها أصابه . وجاء ليل اليوم التالي دون أن تصلني أية أخبار عنه، وهكذا بدأت أعصابي تتوتر متوقعة دائما الأخبار السيئة، ولسوء الحظ فإن ما توقعته بخصوص زوجي كان صحيحا .

على حوالي الساعة التاسعة ليلا سمعت طرقا على الباب . كان طرقا قويا يدل على أن الطارق من ذوي السلطة . وهكذا أدركت أن التعاسة عادت لتتملكني، واتجهت لفتح الباب وأنا مقتنعة بهذه النتيجة، ولم يجانبني الصواب في ذلك، حيث كان قلبي يعتصر وكأن يدا قوية تعصره داخل قبضتها عندما رأيت رجال الشرطة يدخلون إلى البيت وكأنهم أصحابه المالكون له . وقف أحد الضباط بجواري بينما بدأ الآخرون في تسجيل محتويات البيت . أخذ الضابط يستجوبني عن طريق أحد المترجمين من أجل أن يعرف ما إذا كنت على علم بقيام زوجي بتهريب الأسلحة . لكنه في ضوء الرواية المقنعة التي قدمتها لهم وعدم وجود أدلة ضدي، إضافة إلى مساعدة الشرطي المترجم لي فقد تركوني وشأني، ولكنهم أبلغوني أنني لا أستطيع مغادرة المدينة دون إذن منهم . وهكذا كان الجانب الايجابي الوحيد في هذا الأمر هو أنهم لم يعتقلوني . بيد أن بصيصا من الأمل لاح عندي عندما أخبرني المترجم الليبي خفية عندما رآني ملتاعة ولاحظ ارتجاف صوتي بفعل البكاء الشديد أن زوجي خليفة لم يمت ولكنه معتقل بمركز الشرطة بتهمة تهريب الأسلحة إلى المتمردين وهو ما ساعدني على الرجوع نوعا ما إلى حالتي الطبيعية، لكن مظاهر الألم والحيرة والخوف والعذاب والفراغ ظلت تحيط بي .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مركز الشرطة من أجل محاولة أن أرى زوجي وأتحدث اليه وقد كان كل شيء يبدو غريبا لأنها كانت المرة الأولى التي أخرج فيها من البيت إلى المدينة . ورغم أن اجدابيا لم تكن مركزا حضريا كبيرا فقد كانت بالنسبة لي مغامرة كبرى أن أجد مكان مركز الشرطة . بقيت انتظر طويلا إلى أن قال لي الضابط الذي استجوبني الليلة السابقة أنه في الوقت الحاضر تمنع الزيارة عن المتهم لأنه لا يزال تحت الاستجواب . قال لي ذلك من خلال المترجم الذي أفادني بأسلوب رمزي لغرض مساعدتي أنه يتعين علي القدوم يوميا بين الساعة الثامنة والعاشرة صباحا لأنه من الممكن أن يتم نقل المتهم إلى مقر القيادة العامة للشرطة في بنغازي من أجل مواصلة التحقيقات، وفي تلك الحالة فلن يسمحوا لي برؤيته والتحدث اليه .

وهكذا بدأت رحلة عذابي من جديد، حيث أصبحت آتي إلى مركز الشرطة قبل الساعة الثامنة صباحا كل يوم متأهبة لأية فرصة لرؤية زوجي، لكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح . وفي صباح أحد الأيام عندما كنت اقترب من نفس المكان الذي كنت أقف فيه قرب الباب رأيت قصاصة صغيرة من الورق لم تكن موجودة في اليوم السابق، وبشكل تلقائي انحنيت والتقطت هذه القصاصة .

وعندما فتحتها طار قلبي فرحا حيث تعرفت فيها على خط خليفة . أردت تهدئة قلبي عن طريق قراءة الكلمات القليلة المدونة عليها . كانت كلمات قليلة ولكنها معبرة، وكان محتواها الحرفي يقول : يا سليمة، سأكتب باختصار لأنه لا يوجد لدي وقت . سيتم نقلي بكل تأكيد إلى بنغازي . بيعي كل ما تستطيعين بيعه، واذهبي إلى بنغازي شارع بوغولة رقم (10) وهو بيت قريب لي اسمه محمد بن عبدالله، وقولي له أين سيأخذونني لأنه بهذه الطريقة ستعرفين أخباري وسأعرف أخبارك . إرادة الله أكبر . استودعك الله يا سليمة . في رعاية الله ورسوله .

لا أعرف كيف وصلت هذه القصاصة إلى مكانها تحت الباب، وهو لا يزال لغزا بالنسبة لي . بقيت خارج مركز الشرطة حتى الساعة الثانية عشرة واثقة من صحة كلام المترجم بخصوص نقل زوجي إلى بنغازي . رجعت إلى البيت وتناولت بعض الطعام لكي يقيم صلبي، وشرعت في تنفيذ مهمة بيع المنزل . وحين عرف الناس بمشكلتي لم يحاولوا إنتهاز الفرصة بل ساعدوني على بيعه بالسعر المناسب . لم يكن كل الناس انتهازيين ولله الحمد في ذلك . لا يزال هناك أهل الخير الذين تحدث عنهم الرسول الكريم ممن لا يلحق بهم خزي ولا عار . باعوا لي أملاك خليفة بسعر عادل، وكذلك الحال بالنسبة لبعض الأمتعة

القليلة الأخرى التي لم أكن استطيع حملها معي إلى بنغازي . استطعت أن أنهي عملية البيع في وقت سريع ذلك أنه مع حلول اليوم الثالث وعلى حوالي الساعة التاسعة صباحا كانت هناك حركة في مركز الشرطة ثم بان لي المترجم للحظة حيث وجه لي اشارة تؤكد عملية النقل خلال ذلك اليوم . وبعد فترة قصيرة وقفت أمام مركز الشرطة سيارة مغلقة مخصصة حصرا لنقل السجناء . وبعد فترة انتظار بدت لي بلا نهاية رأيت زوجي العزيز خارجا تبدو عليه علامات الغضب . كان شاحب الوجه تعلوه آثار واضحة تدل على تعرضه للضرب، أو هكذا بدا لي . كان يمشي بخطوات متعثرة، مكبل اليدين وكأنه أحد أفراد عصابة إجرام، لكنهم لم يستطيعوا أن ينزعوا عنه تلك النظرة النارية الشامخة التي لا تخضع لأحد .

عندما رآني تغيرت ملامحه، وارتسمت على وجهه علامات المحبة ورفض الفراق . كانت نظراته تحدثني بعالم من الأشياء التي كنت أفسرها جميعا وبشكل صحيح . بدا لي وكأنه يريد أن يحدثني بأعلى صوته رغم أنه لم يتكلم، وتمسك بكبريائه ورأسه مرفوع يعانق السماء . بدا وكأنه يريد أن يقول لي من أعماق نفسه إن حرية الشعب هي أكبر من تضحيات يقدمها قلة من أفراده . كانت هذه الكلمات التي لم ينطق بها قد نقشت في روحي وجسمي بحروف من نار . ثم رأت عيناي المغرورقتان بالدموع الحافلة الصغيرة التي تقل أفضل جزء من روحي تغادر المكان . وفي نفس اليوم استقليت الحافلة المغادرة إلى بنغازي، حيث حصلت على المعلومات اللازمة للوصول إلى العنوان الذي أعطاه لي خليفة دون عوائق . وبمجرد أن نزلت من الحافلة ركبت في عربة صغيرة من تلك العربات التي كانت مصطفة قرب موقف الحافلة، وخلال أقل من ربع ساعة وصلت إلى منزل أقارب خليفة .

لم يكن يعرفني أي من هؤلاء الأقارب، ولكنهم استلموا منذ بضعة أشهر رسالة من خليفة كان يتحدث فيها عني وقد فعل خيرا لأنه لو لم يفعل لما استقبلوني لأن خليفة له شخصية مغلقة ولا يتواصل كثيرا مع الآخرين . لقد ساعدني أقرباء خليفة في بداية الأمر على تحديد المكان الذي كان معتقلا فيه، لكنهم عندما علموا بالأسباب التي أدت إلى اعتقاله طلبوا مني أن أغادر المنزل في أقرب وقت ممكن خوفا من اعتقالهم هم أيضا وقد كانوا على حق في هذا الاستنتاج إلا أنهم لم يدركوا أنهم كانوا جبناء .

وبعد حوالي شهر كنت خلاله أفعل ما أستطيع من أجل خليفة دونما كلل جاءتني أخبار سربها لي بحذر أحد أفراد الشرطة الليبيين جعلتني أكاد أفقد شعوري وانتابتني حالة من الذهول وقفت على إثرها جامدة في مكاني لبضع ثوان، حيث أظلمت الدنيا حولي،

وشعرت بحالة من الفراغ وانعدام الوزن، وكان إحساسا غريبا غير قابل للتفسير . انهال من جسمي عرق بارد غطى كل أطرافي، لكنني في تلك الظروف الحالكة التمست عذرا لهذا الشرطي في إبلاغي بهذه الأخبار المريعة . بيد أنه بعد أن أصبحت أفكر بموضوعية في مسألة تسريب الشرطي الليبي لهذا الخبر إلي فهمت أنه لم يكن أمامه طريق آخر لإبلاغي بالخبر دون أن يكتشفه أحد غير الطريقة التي استخدمها والتي كانت بمثابة الخنجر الذي طعنني به بدم بارد، لكنني الآن أصبحت أشكر هذا الشرطي لأنه أتاح لي الفرصة لأن أرى زوجي للمرة الأخيرة .

كان هذا الشرطي الليبي قد تعرف علي منذ وقت عندما كنت أتردد متى استطعت لأسأل عن زوجي، ولم أكن أسأله هو فقط بل كنت أطرح السؤال على كل أولئك الذين يمكنهم أن يبلغوني أخبارا عنه . وبمجرد أن لاحظ هذا الشرطي وجودي مر قريبا مني ونظر في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي كنت فيه قائلا لي : إن زوجك سيتم إعدامه فجر يوم السبت في منطقة الصابري الواقعة على أطراف مدينة بنغازي. وبعد أن مرر هذه الكلمات المأساوية بعدم اكتراث ودون أن ترتسم على وجهه أية علامات تأثر ابتعد عني بهدوء وكأن شيئا لم يكن بينما كنت أكاد أُجن وغير قادرة على القيام بأي رد فعل . اعتقدت أن قدمي شلتا عن الحركة، وبدا كل شيء حولي مظلما في عيني .

وعندما عدت إلى الوعي كان الشرطي الليبي قد غادر وكان ارتباكي كبيرا لدرجة أنني لم أكن متأكدة مما قاله لي، وكنت لا أمتلك القوة اللازمة لطرح أي سؤال عليه . رجعت ماشية إلى منزل أقارب خليفة وطرحت نفسي في المكان الصغير الذي خصصوه لي وظللت أبكي بكل حزن، وشعرت أنني أموت بفعل الآلام التي استطار شرها في داخلي . قضيت يوما فضيعا وليلة أكثر شؤما ثم بلغ الشر مداه عندما جاءني أقارب خليفة طالبين مني أن أغادر المنزل لأن مجرد وجودي بالمنزل سيورطهم في المشكلة .

كانت آخر ليلة أقضيها مع هؤلاء الأشخاص المشئومين . وفي فجر يوم السبت غادرت المنزل إلى منطقة الصابري دون أن أعرف المكان الذي سيعدم فيه زوجي، حيث أخذت انتقل من مكان إلى آخر إلى أن رأيت منصة المشنقة التي نصبها الطليان . أخفيت نفسي بين جذعي نخلتين كانتا تقعان على مسافة غير مباشرة من المشنقة . وعندما لاح نور الصباح بدأ بعض الأشخاص يتوافدون على المكان، ولربما كانوا مرضى نفسيا يتلذذون بمشهد إعدام الآخرين . وبعد قليل جاءت الحافلة الصغيرة التي كانت تقل زوجي العزيز خليفة . بدا واضحا أمامي وهو يرسف في الأغلال، لكن رأسه ظل عاليا، واستدار ببصره

حوله وكأنه كان يبحث عني، وعندما رآني ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه أو هكذا بدا لي لأنني لم أكن متأكدة من أي شيء بسبب الدموع التي كانت تغمر عيني لدرجة أنني لم أكن أرى بوضوح ما يجري حولي . أما ما جرى بعد ذلك فقد كان يشبه الكابوس المرعب . لقد كانت نظرة زوجي تبدو غريبة إلا أنها سيطرت على مشاعري إلى آخر لحظة . وعندما رآهم يعلقون الحبل ويعقدونه بتشنج وحقد كانت علامات الغضب ترتسم على وجهه، لكنه ظل يرمقني ببصره وكان أقوى عزيمة مني حيث أنني أطلقت صرخة قوية إنتهى بعدها كل شيء .

كان الوقت ليلا عندما وجدت نفسي ملقاة على حصيرة بالية في خيمة بائسة . لم تكن لدي أدنى فكرة عن الوقت الذي قضيته في هذا المكان ولا الأسباب التي أتت بي اليه . وفي ظل نور القمر الذي انعكس داخل الخيمة لم استطع أن أميز ما إذا كنت لوحدي أم كان هناك أشخاص آخرون غيري . شعرت أن جبهتي تؤلمني وكأنها تضرب بمطرقة، كما شعرت وكأن نارا تستعر داخل أحشائي، لم أعد أتذكر شيئا مما حدث . شعرت وكأني ميتة، واعتقدت أني فقدت الوعي مرة أخرى، وعندما عدت إلى الوعي من جديد كان الوقت حوالي منتصف النهار، وشعرت بأني أكثر هدوءا ولم أعد أشعر كثيرا بالمرارة التي تتقد داخلي . وفجأة وكأنه طيف شعاع تذكرت وجه خليفة وقد تشوهت ملامحه كليا عندما نفذ فيه حكم الإعدام شنقا، ومرة أخرى أطلقت صرخة قوية فقدت بعدها الوعي . لقد غطت الظلمة الحالكة روحي، ولذا لم أكن أعلم كم من الوقت مر بي وأنا في هذه الحال، لكنها كانت عدة شهور بكل تأكيد .

لقد اعتنى بي الأشخاص الذين جلبوني معهم بقدر ما استطاعوا . أذكر أنه بعد مضي وقت طويل جاء لرؤيتي شيخ تبدو عليه علامات النسك . وحسبما علمته فيما بعد أنه كان يتولى العلاج النفسي لتلك العائلات، والأمر الأكيد هو أنه استطاع أن يعيد ذهني إلى وضعه الطبيعي بعد أن تحطم بفعل مشهد الإعدام الفضيع لزوجي . ومنذ اللحظة التي أصبحت فيها أعي تصرفاتي نصحني هذا الشيخ بالمحافظة على هدوئي، وأن آكل ما أستطيع من الطعام لأن وضعي حرج إجمالا وقابل لأن أصاب بأي مرض عضال، لأنني كنت خائرة القوى بشكل مخيف، لكن ذهني ظل يقظا، حيث أدركت أن هؤلاء الناس كانوا فقراء جدا لدرجة أنهم كانوا لا يكادون يحتملون تكاليف العناية بي، مما حدا بي إلى أن أعمد بقدر ما استطعت من الجهد إلى إخراج العلبة الصغيرة التي كنت احتفظ بها تحت القميص الذي أرتديه، حيث فتحتها وأخرجت منها بعض القطع الورقية من النقود

وأعطيتها للسيدة العجوز التي كانت تعتني بشئوني، لكنها لم تشأ أن تستلمها، إلا أنها عندما رأت الدموع تنهمر من عيني على خدي أخذت المبلغ كي لا أشعر بالحزن، كما أن الفقيه المعالج نصح السيدة العجوز بأخذ النقود من أجل توفير مأكل جيد لي كي أشفى بسرعة .

مر علي شهران قبل أن أتمكن من الوقوف والمشي بسهولة نسبية . ولحسن الحظ لم أكن أُعدم النقود حيث استطعت أن أساعد بها الآخرين الذين كانوا يسهرون على توفير الرعاية الصحية لي . وأخيرا وبناءً على نصيحة الشيخ المعالج بدأت أقوم بجولات طويلة من أجل إعادة التوازن النفسي، وأن أمرن جسدي حسب نظرية العلاج لهؤلاء الناس الذين لاحظوا أنني أصبحت أفضل من الناحية الجسدية لكن الحزن والألم بقيا يلقيان بظلالهما على نفسي .

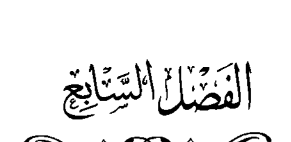
وهكذا عندما كنت على وشك الوقوع في اليأس التقيتك يا رمضان ؛ فأنت المرساة التي استعملها للخلاص، ولهذا أعتقد أن الله لم ينسني لأنه قدر لي أن التقيك، وبذا فإن اسمي الآن هو مبروكة أرملة خليفة وفقا للوثائق الجديدة التي لا استطيع أن أخالفها، لأن سليمة لم تعد توجد إطلاقا . وخلال هذه المأساة الكبرى فإن مبروكة فقدت زوجها أما سليمة فقد التقت أعز صديق لديها . أعتقد أن الله لم ينسني بشكل مطلق . ليس لدي أي شخص سواك يا رمضان لأنك بالإضافة إلى كونك صديقي فأنت تمثل البرهان على وجودي أنا لأنني بدونك ليس لي هوية فلا أحد يعرف من أنا .

أرجوك يا رمضان لا تتركني لأنك إذا تركتني سيكون وضعي أسوأ من الموت بالنسبة لي، كما انك تستطيع العناية بي وبث روح الثقة في نفسي . قالت سليمة ذلك وهي تجهش بالبكاء . كان بكاء من أجل الحرية بعد أن أحست بالعطف الذي خصها به رمضان، والمحبة التي اسبغها عليها لأن اللقاء بينهما لم يكن مجرد لقاء لجسدين بل لقاء لروحين استطاعتا أن تفهما بعضهما البعض وقررتا أن تساعد كل واحدة منهما الأخرى .

عندها تحدث رمضان قائلا لسليمة : يا سليمة ! يا عزيزتي سليمة الطيبة !كيف يمكن لك أن تفكري بأن أتخلى عنك، وأنا الذي شعرت ببالغ السعادة أنني التقيتك ؟! ستكونين صاحبة هذا البيت مثلي أنا تماما، ولن يأتي أي شخص إلى هنا ليزعجك أو يؤذيك لأنه يحيط بنا أشخاص ممتنون للمساعدة التي استطعت تقديمها لهم . كل الجيران يحبونني ويحترمونني لا بسبب ما فعلت لهم من خير فحسب، بل لأنهم يعرفون أيضا أنني سأستمر في مساعدتهم وأنهم بذلك يستطيعون تدبير شئون حياتهم ببذل جهد بسيط من طرفهم .

سوف أقدمك لهم كقريبة لي، عزيزة علي، تعيش معي في هذا المنزل، وأنا متيقن من أنهم سيخصونك بالاحترام وسيحبونك، وأنت في هذا البيت ستصبحين ملكة متوجة، أرجو لك أن تتمكني من نسيان الماضي الأليم . هنا لن أكون أنا وحدي تحت تصرفك، بل جميع أولئك الذين يقفون إلى جانبي . ستكون كل النقود التي امتلكها تحت تصرفك لأنها ستكون نقودك أنت أيضا يا عزيزتي سليمة الطيبة . تعالي معي لكي أريك جميع أرجاء المنزل الذي سوف تقيمين فيه من الآن فصاعدا، وإذا كنت ترغبين في العيش مستقلة في هذا المنزل فإنني استطيع أن أنتقل للعيش في المنزل المقابل وسأكون سعيدا جدا بالعيش هناك .

توقف رمضان عن الحديث عندما رأى وجه سليمة شاحبا وشفتيها ترتعشان بفعل الحزن الذي خيم عليها وجعلها على وشك أن تبكي . ثم رآها تخار قواها مما جعلها تجلس جاثية على ركبتيها ثم قالت والدموع تنهمر من عينيها : إنني أعرف أنني لست في مستواك، ولهذا السبب لا تريد أن تبقى في هذا المنزل . لن ألومك في ذلك لأنني فعلا لست في مستوى يليق بك وليس من حقي حتى أن أطرق بابك لأنك منحتني الكثير عندما سمحت لي بالعيش في هذا المنزل وأنا أدرك أنني لا أستحق منك أكثر من ذلك . بقي رمضان ممسكا لها من يدها وقد تفاجأ برد فعل سليمة واعتبر أنها فسرت كلماته بشكل خاطئ، حيث خرج بسرعة من حالة الارتباك التي كان عليها ثم وقف فجأة وربت على يدها بحنان قائلا لها : لا يجب أن تفكري مجرد التفكير في أي شيء يتناقض مع كونك أعز صديقة لي والأفضل والأكثر نزاهة وصدقا من كل الذين عرفتهم، وأنا مستعد لأن أقدم لك كل شيء بما في ذلك حياتي . وهكذا بقي الصديقان معا حتى تمتزج روحاهما بقوة وبشكل أبدي .



الفصل السابع

هدوء وسعادة

وبعد أن هدأت الأمور بدأ رمضان وسليمة في التجول داخل البيت من أجل الإطلاع على كل مرافقه وكيف لا وهي التي سوف تصبح ربة البيت وسيدته، ولقد رأت خلال تلك الجولة أثاثا وتجهيزات منزلية راقية لم تر أبدا مثلها من قبل، وعند انتهاء هذه الجولة أخذ رمضان سليمة إلى منزل معلومة من أجل الإطلاع عليه كذلك . وعندما اجتازا الباب الذي كان يفصل بين المنزلين نادى رمضان معلومة بصوت عال حيث خرجت مسرعة وقد انتابها بعض الانشغال عندما رأت رمضان بصحبة شابة صغيرة السن لا تعرفها، ولذا بقيت حائرة مرتبكة .

وبعد أن قدم رمضان سليمة إلى معلومة شرح لهذه الأخيرة بشكل عام الظروف التي مرت بها سليمة، متحاشيا الحديث عن الأمور المؤلمة جدا مؤكدا أن سليمة قد ترملت منذ وقت قريب ؛ حيث أنها كانت زوجة أحد المناضلين الليبيين من أجل تحرير الشعب الليبي من الاستعمار الايطالي راجيا من معلومة أن تعاملها بأفضل ما يمكن، وبكل التقدير والاحترام الذي تستحقه .

استمعت معلومة بكل اهتمام إلى الكلمات التي قدم بها رمضان سليمة، ثم تقدمت نحوها وقبلت يدها، لكن سليمة رفضت هذا الأسلوب من الترحاب، وعانقت معلومة بحرارة وتأثر قائلة لها : إنني امرأة قد عانت الكثير من الآلام، وأنا واحدة من أفراد هذا الشعب، لا أريد منك سوى أن تحبيني بأي قدر، وهذا سيكون كافيا بالنسبة لي . لا يجب أن تقبلي يدي لأنني امرأة مثلك وربما في مستوى أقل . لأجل ذلك قامت معلومة مرة أخرى بمعانقة سليمة بحرارة لأنها أحست أنها جرحت مشاعر سليمة ثم أخذت تقول : لقد أكرمني الله بثلاثة أبناء، ثم رزقني منذ فترة قريبة بابن رابع جلب لي معه السعادة والفرح والخير، والآن أتم الله نعمته علي بأن وهبني الابنة التي كنت دائما أتمنى أن أُرزق بها . إنك لا تعرفين مدى السعادة التي شعرت بها عندما علمت أنك ستسكنين معنا هنا وإذا شئت فيمكنك اعتباري أما لك .

أثر هذا الكلام بقوة على مشاعر سليمة حتى كادت تغيب عن الوعي، مما حدا بمعلومة

إلى إجلاسها في حجرة ضيافة قريبة ثم سألتها إن كان بها ألم، لكن سليمة أجابت بأنها تأثرت كثيرا عندما وجدت نفسها وسط أناس أفضالهم كثيرة كما أنها كانت مريضة جدا منذ وقت قريب، والآن تجد نفسها سعيدة إلى أقصى حد لأنها تشعر أنها وصلت إلى منزل أسرتها ثم توجهت بالدعاء إلى الله عز وجل أن يبارك هذه الأسرة ويمنحها كل السعادة .

وهكذا بدأ مشوار سليمة نحو الدخول في محيط البيئة التي كان يعيش بها رمضان، حيث لاقت قبولا حسنا من جانب معلومة التي شعرت بأن أفضال الله عليها قد وصلت إلى قمتها بأن أصبحت لها ابنة في المنزل . كان رمضان في أوج السعادة عندما لمس التجاذب الكبير بين المرأتين اللتين أحبهما أكثر ما يكون الحب في هذه الدنيا . وعندما أقبل الليل أعدت معلومة عشاءً فاخرا على شرف ابنتها الزاهية التي انزعجت بعض الشيء لأنها أدركت أن مائدة العشاء المميزة كانت كلها من أجلها هي، ثم أخذ الوقت يمضي مسرعا في أحاديث ودية وكأنه نفحة من الربيع، حيث حضر بعد ذلك أولاد معلومة الثلاثة ومعهم يوسف حيث جرى تقديمهم إلى سليمة في جو من السعادة الفائقة غمر جميع الموجودين .

كان الجميع يتجاذبون أطراف الحديث في جو من السرور، لكن رمضان ظهرت على وجهه فجأة علامات الانزعاج مما أثار قلق الآخرين الذين ظنوا أنه يشعر بألم جسدي، حيث أمسكت المرأتان بيدي رمضان وشرعتا تطرحان عليه الأسئلة بانشغال لمعرفة ماذا ألم به . بيد أن رمضان أشار عليهما بألا تقلقا بشأنه ثم أردف قائلا : كان يتوجب علي تسليم النقود التي وعدت السيد بيبيه بها من أجل إنقاذ مشروع مطعمه، لكني نسيت ذلك وسوف يظن أنني خدعته، وأنني صديق سيء لأنني أتندر بمشكلته، ولهذا سيتألم ليس فقط بسبب فقدانه لمطعمه بل أيضا لأنني خدعته بوعدي له بالمساعدة . بيد أنه على كل حال سيكون لدي الوقت حتى منتصف نهار يوم غد رغم أنه كان بإمكاني تفادي هذا الأشكال . ثم التفت نحو علي طالبا منه أن يجهز له صباح اليوم التالي واحدة من تلك العربات التي يستعملها أصدقاؤه لأنه سيحتاجها . وقد أدت هذه الترتيبات إلى جعل رمضان أكثر هدوءا حول هذا الموضوع الذي سوف لن ينساه مرة أخرى بكل تأكيد، ثم قرر رمضان أن يخلد إلى النوم .

خرج رمضان وسليمة نحو منزلهما ورافقتهما معلومة لكي تتأكد أن غرفة سليمة مجهزة بكل ما قد تستلزمه، كما أرادت أيضا أن ترفع من روحها المعنوية وأن تجعلها تتجاوز هموم الماضي رغم أنها لم تعرف بعد الجانب المظلم في حياة سليمة الماضية، ثم

ودعت معلومة الطيبة كلا من سليمة ورمضان بكل المودة وخرجت إلى بيتها . أصرت سليمة على أن ترافق رمضان إلى غرفة نومه، حيث هيأت له سرير نومه بكل مودة ثم جلست إلى جوار السرير ممسكة بيد رمضان حيث ربتت عليها ثم قبلتها، وعندما لاحظت ممانعة رمضان لسلوكها وضعت يدها على فمه برقة قائلة له : دعني أشعر بكامل السعادة يا صديقي العزيز رمضان، أتركني أسهر قليلا على راحتك لكي أقتنع بأن ما أعيشه الآن ليس مجرد حلم عابر سرعان ما يتلاشى عند اليقظة .

أرجوك ألا تبعدني عنك . إنني أريد أن أكون قريبة منك لكي تتأكد لي حقيقة ما يجري ولكي أدرك أنني أخيرا وجدت تعاطفا حقيقيا كبيرا وجميلا وهو ما لا أريد أن أفقده ولو دفعت حياتي ثمنا له .

ارتاح رمضان نفسيا للمشاعر الدافئة جدا التي أبدتها سليمة تجاهه، ثم تزايدت حدة النعاس لديه فنام نوما عميقا مثل نوم الأطفال، وبدت ابتسامة على شفتيه تعبر عن استشعاره للحب الدفين الذي يطير به نحو أمه التي بدت له في المنام وهي تعتني به بكل سعادة يحيط بها بحر من النجوم اللامعة التي تتغير مظاهرها وتتخذ أشكال وجوه نسائية سعيدة تمنحه مزيدا من الحب .

وعندما استيقظ رمضان من نومه وجد سليمة نائمة بالقرب من سريره وهي ما تزال تمسك بيده . لاحظ أنها لا تزال نائمة وعلامات السعادة الغامرة ترتسم على وجهها . ثم استيقظت سليمة وتظاهر رمضان أنه لا يزال نائما وأنه استيقظ في نفس وقت استيقاظها.

نهضت سليمة وبسرعة اتجهت نحو منزل معلومة، ونادتها بصوت أشبه ما يكون بصوت طفلة صغيرة سعيدة وبدأت كلتاهما سويا في إعداد طعام الإفطار .وبعد نهاية الإفطار طلب رمضان من معلومة أن ترافق سليمة إلى أفضل المحلات التجارية لكي تستطيع شراء كل ما تريده من حاجيات .

عندما غادر رمضان مطعم السيد بيبيه في آخر لقاء لهما لم يستوعب هذا الأخير ما قاله له رمضان بشكل قطعي مؤكدا أنه لا يهمه إذا كان المبلغ المطلوب ثلاثين ألف أو أربعين ألف ليرة، أو حتى أكثر من ذلك لأنه سوف يحضر له المبلغ بكل الطرق، وأنه نطق بذلك بكل قناعة مما جعل السيد بيبيه حائرا في أمره . كان يتحمس إيجابيا أحيانا لكلام رمضان، وأحيانا يتوجس منه . هل سيحضر رمضان فعلا المبلغ المطلوب ؟ وعندما يفكر

السيد بيبيه في ذلك يستبشر بالأمر ثم يقول في نفسه : وماذا لو لم يكن ذلك حقيقة ؟ عندها ستتراكم كل الأمور السلبية : وهكذا كان ينتقل بأفكاره بين السلب والإيجاب، كما أن الإيجاب يمكن أن يكون سلبيا هو الآخر ؛ فمن أين سيأتي صديقه البدوي الصغير الذي يعزه كثيرا بكل هذا المبلغ ؟ لم يكن انشغال السيد بيبيه منحصرا في تدبير المبلغ المطلوب، بل كان يخشى من احتمال أن يكون رمضان قد تحصل على هذا المبلغ الكبير بطريقة غير مشروعة . وعندما مضت الساعتان اللتان حددهما رمضان لإحضار المبلغ دون أن يعود، انتابت السيد بيبيه مخاوف شديدة استمرت معه طوال اليوم، ثم استسلم للأمر الواقع لأنه كان قد أضناه التفكير حيث خلد إلى النوم دون أن يتناول أي طعام خاصة وأن الوجبات التي أعدها في ذلك اليوم كانت سيئة مقارنة بمستواه الممتاز في الطبخ وذلك لأن وضعه النفسي كان حرجا .

نام السيد بيبيه تلك الليلة مستسلما براحة بال للأقدار التي ستحل به خلال اليوم اللاحق . وعندما لاح صباح هذا اليوم لم يشغل نفسه كالعادة بإعداد وجبات الطعام الفاخرة التي دأب على إعدادها بل انشغل بترتيب موجودات المطعم من أجل تسليمها إلى المالك الجديد وفقا لما ينص عليه العقد المبرم . ولأنه كان غارقا في أفكاره الحزينة وترتيب المعدات التي كانت بالمطعم لم يلاحظ السيد بيبيه أن الباب قد فتح، وأن رمضان قد دخل لتوه بهدوء كامل من أجل مفاجأته . وبالفعل عندما لاحظ السيد بيبيه وجود رمضان تفاجأ بشدة قائلا لرمضان : لقد أخفتني أيها البدوي الماكر ! لقد انتظرتك طوال يوم أمس، وها أنت ذا تأتيني اليوم لترعبني ! فأجابه رمضان قائلا : لا تهتم ! ثم قدم له كيسا كان يحمله معه وأردف يقول : خذ ! ها هي النقود التي تحتاجها بين يديك، وأرجوك أن تعذرني لعدم قدومي اليك بالأمس لأن أشياء مهمة حدثت جعلتني أنسى موعدي معك .

أخذ السيد بيبيه الكيس وهو غير مصدق لدرجة الذهول لما يحدث . وعندما فتح الكيس ووجد تلك الكمية الكبيرة من النقود انتابه القلق، فخاطب رمضان متسائلا : رمضان يا بني ! من أين تحصلت على كل هذه النقود ؟ لا تقل لي أنك تحصلت عليها بطريقة غير مشروعة لأنني سأموت ألما، وسوف لن أغفر لنفسي أبدا استلامها . يا بني ! ماذا فعلت ؟! كان السيد بيبيه يشعر بالندم لأنه كان مقتنعا بأن هذه النقود توفرت بطريقة غير مشروعة، وعندها تحدث رمضان لكي يقطع الشك باليقين فقال : أرح نفسك يا سيد بيبيه لأنني لم ألجأ إلى سبل الحرام لكسب هذا المبلغ ولم أسرقه . وعندما لاحظ رمضان شحوب وجه السيد بيبيه اضطر إلى أن يسرد له بكلمات مختصرة ومفيدة المصادر التي

تحصل من خلالها على تلك النقود . استمع السيد بيبيه إلى كل ما سرده له رمضان حول مصدر المال وهو لا يكاد يصدق ما سمع، لكنه عندما تذكر الكلمتين الأخيرتين اللتين نطق بهما صديقه البدوي الصغير وهما كلمتا « أقسم بالله » اقتنع تماما بصدق كلام رمضان الذي كان دائما محل ثقته، وهكذا تبددت شكوك السيد بيبيه حول مصدر المال بشكل كامل .

اقترب السيد بيبيه من إحدى مناضد المطعم وأفرغ فوقها كيس النقود وأخذ يعدها وهو لا يكاد يصدق عينيه لأن المبلغ وصل إلى خمسين ألف ليرة، ثم سأل رمضان : لماذا أحضرت كل هذا المبلغ الذي يزيد عن المطلوب ؟ لكن رمضان رد عليه بسرعة قائلا : إنه ليس مبلغا زائدا يا سيد بيبيه لأن الفائض من هذا المبلغ أريدك أن تحتفظ به لمواجهة أي ظروف في المستقبل وكي لا تحتاج إلى أن تطلب مالا من أحد، حيث يمكنك استخدامه لإنجاز أية تعديلات تريد إدخالها بالمطعم . وكان رد السيد بيبيه : حسنا يا رمضان ! إنني أقبل المبلغ بشرط واحد وهو أن يصبح المطعم من الآن شراكة بيني وبينك . بل إن الأصح هو أن يصبح المطعم ملكا لك وحدك لأنني بدون المبلغ الذي قدمته لي كنت سأخسر المطعم كلية، وحيث أنني أعلم أنك لن تقبل أن يكون المطعم لك وحدك فإنني أريدك على الأقل أن تقبل أن يكون شراكة بيننا، وإذا كنت لا تقبل بهذا الشرط فإنني سوف لن أقبل نقودك . لكن رمضان سرعان ما أجاب قائلا : يا سيد بيبيه ! إنني أحضرت لك النقود لكي تحل مشكلتك لأنه من المؤلم جدا بالنسبة لي أن أرى صديقي يفقد ثمرة تضحياته الكبيرة والسنوات الطويلة من العمل . يكفيني أنك استلمت النقود وسوف أوافق على ما تقرره .

وعلى وجه السرعة استدعى السيد بيبيه محاميه لكي يحل مشكلة الرهنية التي كان سيتعرض لها المطعم، معلما إياه أنه لديه المبلغ المطلوب من أجل الاتصال بمحامي الطرف الآخر قبل حلول الموعد النهائي الذي حدده القانون من أجل دفع قيمة السلفة، ثم أبلغ رمضان بأن ينتظره حتى عودته من لقائه مع المحامي . انتظر رمضان حوالي ساعة، وبعد هذه الفترة من الانتظار إذا بالسيد بيبيه يطل مشرق الوجه، ملوحا بوثيقة ملكيته للمطعم بيده . كان في قمة السعادة، وعندما اقترب من رمضان عانقه بحرارة، وقد كان رمضان سعيدا جدا لسعادة صديقه السيد بيبيه الذي ما لبث أن قال مخاطبا رمضان : غدا سوف استصدر وثيقة ملكية جديدة للمطعم باسمي واسمك . لكن رمضان أشار اليه أن يتوقف عند هذا الحد من الكلام وقاطعه قائلا : لا تغير من وثيقة ملكيتك للمطعم ولا تقم بأي

شيء من هذا القبيل . لقد أعطيتك النقود وكفى، حيث أنني أمتلك الكثير منها لدرجة أنني لا أعرف ماذا أفعل بها، لكن لنتفق على شيء : من الآن فصاعدا فانني سأتناول وجبات الطعام هنا بشكل مستمر، وقد آتي ومعي أشخاص آخرون، وعليك أن تدون قيمة ما نتناوله من وجبات بمطعمك، ومع مرور الزمن ستكتشف أنك أرجعت الي المبلغ دون أن تدري ! وهنا احتج السيد بيبيه قائلا : لماذا تتعامل معي هكذا يا رمضان ؟! لماذا لا تقبل أن تكون نصف قيمة المطعم ملكا لك، خاصة وأنت تعلم أن المطعم كله في الواقع ملك لك وحدك ؟ بيد أن رمضان كان رده واضحا وقاطعا حيث قال : يا صديقي العزيز بيبيه . لقد شعرت كأنك أرجعت لي نقودي عندما رأيتك فرحا، وأنا متأكد أنك لو كنت مكاني لتصرفت بنفس الطريقة التي أتصرف بها الآن . أرجوك ألا نتحدث عن هذا الموضوع بعد الآن، وسوف أبقى دائما صديقك البدوي الصغير، وسوف آتي متى أريد إلى صديقي بيبيه لتناول الطعام بمطعمه، وهذا كل ما في الأمر .

أثر هذا الكلام كثيرا في السيد بيبيه الذي اغرورقت عيناه بالدموع، وبدون أن ينطق بأي كلام عانق رمضان عناقا حارا قائلا له : يا بني ! أنت أعز إنسان لدي، وأشعر وكأنك ابني . ورد عليه رمضان بالمثل قائلا : أنا أدرك ذلك يا سيد بيبيه، ولهذا السبب فإننا لا نحتاج إلى أية عقود أو وثائق تحكم علاقاتنا لأننا نساعد بعضنا البعض وهذا كل ما في الأمر .

ولكي يغير رمضان مجرى الحديث أخذ يشرح للسيد بيبيه تفصيلا كل الأسباب التي أدت إلى عدم قدومه اليه في الموعد المحدد خلال اليوم السابق مبينا له أن سليمة تعيش معه الآن في بيته رغم أنها ليست أحد أفراد أسرته وذلك بالنظر إلى الظروف التي تعيشها والتي حتمت عليه أن يتصرف بالطريقة التي تصرف بها . استمع السيد بيبيه بانتباه إلى حكاية سليمة وطلب من رمضان بأن يحضرها معه لتناول الطعام في مطعمه في اليوم التالي من أجل أن يقدم لهما وجبة طعام رائعة احتفاءً بهما.

أخذ رمضان معه كمية معتبرة من النقود من أجل شراء حاجيات لسليمة لأنها جاءت إلى بيته دون أن يكون معها أية أمتعة، بل لم يكن لديها حتى خاتم تضعه في أصبعها. وهكذا ذهب رمضان إلى أحد أفضل محلات المجوهرات في بنغازي، وكانت هذه المرة الأولى التي يدخل فيها إلى مثل هذه المحلات الفاخرة والراقية جدا، حيث استقبله أحد العاملين في المحل بكل لطف وترحاب، ثم سأله ما الذي يرغب تحديدا في شرائه . حاول رمضان بكل صعوبة أن يشرح له المطلوب لكنه طلب منه أن يساعده بالنصيحة فيما يريد أن يشتريه، فما كان من هذا الرجل إلا أن سأل رمضان عن الشخص الذي يريد أن يشتري

له المجوهرات . وبعد أن أجابه رمضان عن سؤاله أحضر له من نافذة العرض أسورة وخواتم وقلائد من مختلف الأنواع لكي يختار رمضان من بينها . تفحص رمضان هذه المجوهرات جيدا ثم أخبره بأنها جميعا لا تلاقي استحسانه لأنه يريد شراء مجوهرات أفضل وأكثر بهاءً وهو ما لم يستطع أن يتفهمه العامل بالنظر إلى صغر سن زبونه، لكنه عندما لاحظ إصرار رمضان على رأيه قام بإحضار مجوهرات أخرى من الذهب الخالص المتميز والشديد اللمعان .

كانت القيمة الإجمالية للمجوهرات التي اختارها رمضان عشرين ألف ليرة دفعها رمضان بكل سرور ودون أن يطلب تخفيضا في هذه القيمة، وهو ما أثار إعجاب البائع الذي وضع المجوهرات في العلب المخصصة لها . ودون أن يضيع الوقت قام باستئجار سيارة أوصلته إلى البيت في غضون بضع دقائق . وحين دخل إلى البيت وجد السيدة معلومة منهمكة في إلباس سليمة وتزيينها بالمقتنيات التي اشترتها لها من المحلات التجارية وذلك من أجل مفاجأة رمضان بالهيئة الجديدة التي ظهرت عليها سليمة . وبالفعل عندما رأى رمضان سليمة بقي جامدا في مكانه من المفاجأة لأن سليمة تغير مظهرها تماما لدرجة أنه بالكاد يمكن التعرف عليها وذلك بفعل الملابس والمقتنيات الجديدة ومظاهر الزينة التي أسبغتها عليها السيدة معلومة .

وحينما وقع بصر سليمة على رمضان هرعت اليه مسرعة وهي في قمة السرور وقبلت يده وهي فرحة بإعجابه بالمظهر الجديد التي أصبحت عليه، ثم قام رمضان بإحضار مرآة كبيرة ووضعها أمام سليمة التي كانت لا تكاد تصدق صورتها التي رأتها لنفسها في المرآة، ثم أخذت تلمس وجهها بيديها لكي تتأكد فعلا أن الصورة التي في المرآة هي صورتها ثم ربتت بيدها على الملحفة الشرقية التي كانت على رأسها والمصنوعة من أجود أنواع النسيج الأصيل والرفيع والمزركش بألوان ذهبية رائعة، كما أن فستانها كان مصنوعا من منسوجات جميلة راقية تكاملت مع ملحفة الرأس لكي تكون كلا متناسقا من البهاء والجمال .

انهمكت في رؤية نفسها في المرآة لبضع دقائق، ثم اتجهت نحو رمضان وهي تختال فرحا وقالت له بصوت عذب وسعيد : هل هذه هي فعلا أنا أم أن بصري يخدعني ؟ هل أنا في حلم أم حقيقة ؟وإذا كان حلما فإنه أفضل حلم رأيته في حياتي . لكن رمضان أكد لها حقيقة ما يجري حيث علق قائلا : انه ليس بحلم، حاولي أن تنسي الماضي لكي تستمتعي بالحاضر . والآن أغمضي عينيك للحظات إلى أن أطلب منك فتحها . لكن سليمة ردت قائلة : إنني يا رمضان أشعر بالخوف لأنني اذا أغمضت عيني سأتصور

نفسي من جديد في ذلك المكان اللعين الذي وضعوني فيه خلال فترة طويلة من حياتي الماضية، لكن إذا كنت تصر على أن أغمض عيني فإنني أرجوك أن تدعني أمسك بيدك لكي أشعر بالواقع الجديد الذي أعيشه . ثم امتدت يدها إلى يد رمضان وأخذت تربت عليها بإخلاص ومحبة ثم ما لبث أن خاطبها رمضان بإلحاح قائلا لها : والآن أغمضي عينيك بالله عليك ! حيث أغمضت عينيها وأطلقت ابتسامة حلوة أنارت ملامح وجهها . عندها أشار رمضان إلى معلومة ـ التي كانت شاهد عيان على هذا المشهد ـ طالبا منها أن تقترب منهما وأن تخرج المجوهرات من علبها وتزين بها سليمة . وعندما رأت معلومة هذه المجوهرات الراقية والغالية الثمن فرحت كثيرا وكأن هذه المجوهرات كانت لها شخصيا، ثم أخذت تزين بها سليمة بكل محبة وكأنها كانت ابنتها التي كانت ترغب دائما في أن تُرزق بها . وعلى الرغم من أن سليمة لم تكن ابنتها الحقيقية إلا أنها ولجت إلى أعماق قلبها بكل حب وسعادة .

وعند الانتهاء من تزيينها بالمجوهرات بأفضل ما يكون التزيين نظر رمضان ومعلومة إلى بعضهما البعض نظرة ارتياح ورضا حيث ضغط رمضان على يد سليمة طالبا منها أن تفتح عينيها . وعندما فتحت عينيها ورأت نفسها في المرآة وهي تشع بهاءً وأناقة، حيث كانت تلك المجوهرات تعكس الأضواء الساقطة عليها وكأنها شهرزاد ألف ليلة وليلة تغيرت ملامح وجهها فجأة لسوء الحظ، وشرعت تبكي بحرقة والدموع تنهمر من عينيها، وكأن تلك الدموع كانت تغسل ما تبقى من آثار الماضي الحزين البائس من أجل أن تنتقل ـ كما لو كانت في حلم ـ إلى الحاضر بجوار البطل الذي أنقذها مما كانت فيه وجعلها تعود بمعجزة نحو صفاء ونقاء الطفولة البريئة . أبكى هذا المشهد معلومة كذلك ثم جرت سليمة نحوها وارتمت في أحضانها مخاطبة إياها بالاسم العذب الذي تحبه : يا أماه !

كانت لحظات ساحرة . أما رمضان الذي كان عليه أن يتحلى بصبر الرجال رغم أنه لم يجاوز الأربعة عشرة عاما من العمر فقد تمالك نفسه أمام منظر المرأتين وهما تبكيان وتحتضنان بعضهما البعض بقوة، ثم همست معلومة في أذن سليمة قائلة لها : أليس لك أن تشكري رمضان على كل ما قدمه لك ؟ وهو ما حدا بها إلى أن انطلقت نحو رمضان وهي تمزج الضحك بالبكاء وربتت على ظهره ثم طبعت على يديه ألف قبلة وقبلة وهي في أوج السعادة التي لم يسبق لها أن تمتعت بها من قبل، وقد شعر رمضان بأن تلك الدموع التي غسلت آثار الماضي تمثل أفضل مقابل يتلقاه نظير الأموال التي أنفقها لشراء حاجيات سليمة .

لقد شكل كل من معلومة وسليمة ورمضان مجموعة ثلاثية متلاحمة من المحبة والتفاهم والسعادة، وخلال لقائهم المتناغم كان يُسمع ما يشبه الموسيقى الخفيفة المعبرة عن الفرح والبهجة والسرور . وعندما انتهت مظاهر التعبير العاطفي عن المشاعر لدى هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين طال عناؤهم في الماضي قررت المرأتان إعداد وجبة غداء شهية لكي تتوج بجدارة المجريات العاطفية لهذا اليوم المشهود، كما قام رمضان بإبلاغ سليمة بالدعوة التي وجهها اليهما السيد بيبيه لتناول الغداء بمطعمه في اليوم اللاحق، مؤكدا لها ضرورة تلبية هذه الدعوة بدون نقاش لأن السيد بيبيه سيشعر بالإهانة إذا لم يُستجب لدعوته .

وعند الانتهاء من تناول تلك الوجبة الشهية من الطعام خلد الجميع إلى الراحة، وأصرت سليمة أن تبقى بجوار رمضان رغما عنه، ولم تبتعد عنه حتى تأكدت أنه غلبه النوم، ثم بقيت تلاحظه من آن لآخر بإصرار غريب لا يمكن تفسيره إلا بالمحبة الصادقة تجاهه . وفي اليوم اللاحق وعلى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا كان رمضان وسليمة جاهزين للذهاب إلى مطعم السيد بيبيه حسب الموعد حيث استقلا إحدى العربات المؤجرة، وخلال دقائق قليلة وصلا إلى المطعم حيث كان السيد بيبيه ينتظرهما بفارغ الصبر، وبمجرد أن رآهما خرج للقائهما بكل بشر وترحاب . قام رمضان بتقديم سليمة إلى السيد بيبيه قائلا له إنها هي الفتاة التي حدثه عنها آملا أن يتعامل معها السيد بيبيه مثلما يتعامل معه هو تماما، ثم قدم السيد بيبيه إلى سليمة مؤكدا لها إنه بمثابة الأب بالنسبة له آملا أن يكون شعوره تجاهه بالمحبة والاحترام والتقدير شعورا متبادلا .

كان السيد بيبيه قد شدته بسرعة البساطة والطيبة اللتان اتسمت بهما سليمة، لكنه لم يعلق بأي كلمة وإنما صافح رمضان وسليمة بحرارة ثم قال : إن الله وهبني ابنا بارا وها هو يتم نعمته علي بأن أصبح لدي ابن وإبنة . كان السيد بيبيه متأثرا جدا بهذا الموقف من الناحية العاطفية، ولكي لا يشغلهما بمشاعره العاطفية ابتعد عنهما متظاهرا أنه يقوم بتجهيز منضدة الأكل التي كان قد جهزها لهما مسبقا . وبخصوص أطباق الطعام التي أعدها لهما عمد السيد بيبيه إلى إبراز كل مهاراته في الطبخ من أجل إعداد أكلات مميزة وكأنها أعدت لأحد الملوك، وهو ما سر له رمضان وسليمة التي علقت بقولها أنها لم تذق في حياتها طعاما شهيا كهذا الطعام وربما لن تذوقه في المستقبل كذلك .

وردا على هذا الإطراء من قبل سليمة قال السيد بيبيه : هذا المطعم ليس لي ولكنه لرمضان، وأنا سأرحب بكما دائما متى أردتما المجيء إلى هنا لأنكما عزيزان على قلبي

مثل أبنائي ،وأكن لكما كل تقدير ولهذا أرجوكما أن تأتيا دائما إلى هذا المطعم لأن هذا مبعث سرور لي، وأنا لا أملك لنفسي غيركما في هذه الدنيا . وخلال هذا الحديث كان رمضان يترجم لسليمة كلام السيد بيبيه الذي كان لا يتكلم العربية، كما أن سليمة لم تكن تتحدث الايطالية . لكنه رغم الحواجز اللغوية فقد أمضى الثلاثة وقتا جميلا تغمره العواطف الجياشة، ثم قام رمضان وسليمة بتوديع السيد بيبيه بكل محبة، واستقلا سيارة الأجرة التي طلبها لهما عبر الهاتف عائدين إلى البيت وكلهما سرور ورضا إزاء الاهتمام الكبير الذي لقياه من السيد بيبيه .

وهكذا أمضى الجميع شهورا عدة في هدوء وسعادة وخاصة سليمة التي عانت ظروفا قاسية ومؤلمة خلال السنين الأخيرة من عمرها، كما أن رمضان دأب يسعى إلى مكافأة الشيخ الذي تولى علاج سليمة عندما انهارت لرؤية مشهد إعدام زوجها وكذلك السيدة العجوز التي تولتها بالرعاية في بيتها عقب هذا الحدث المشئوم . وقد استغلت سليمة تلك الفترة لتجاوز التأثيرات النفسية العنيفة التي كابدتها إثر الطريقة الشنيعة التي قتل بها زوجها . وفي ضوء ذلك أعطت الحياة الجديدة لسليمة دفعا جديدا وذلك بفعل الهدوء والتغذية الجيدة والأهم من ذلك كله هو المحبة التي لقيتها من الجميع والمعاملة الممتازة لها وقد كان ذلك كله نعمة حرمت منها لوقت طويل حيث كانت تتوجه بالشكر لله العلي القدير في كل صباح على رحماه وتدعوه بتضرع أن تلاقي وجهه الكريم قبل أن تقدر لها العودة إلى نمط الحياة التعسة الذي كانت تعانيه في المعسكر الايطالي .

أما رمضان فمن أجل تطوير معارفه واستغلال أوقات الفراغ لديه فقد قرر الانضمام إلى برنامج دراسي يشرف عليه عدد من الأساتذة المتقاعدين الذين استأجروا قاعة تم تجهيزها كقاعة دراسة يؤمها الشباب الذين يريدون الحصول على مزيد من المعارف. أُعجب رمضان بالأطروحات التي قام بشرحها هؤلاء العلماء وشرعوا يتناقشون حولها . ورغم أنه لم يكن يستوعب كل ما كانوا يطرحونه من قضايا إلا أن هذه الدروس جعلته يفكر بعمق لدرجة أنه استنتج بشكل فلسفي أنه أصبح يعرف أنه لا يعرف شيئا ! ومع مرور الوقت أصبح بإمكانه على الأقل أن يفهم ما يطرحونه من قضايا رغم أنه لم يكن قادرا بعد على خوض النقاش فيها معهم، باذلا جهده في معرفة وفهم المزيد من المعلومات من أجل أن يكون في مستوى يمكنه من مناظرتهم والحوار معهم . كانت لديه رغبة ملحة للتعلم والاستيعاب، وكلما تعلم أكثر اكتشف بشكل أوضح مواطن جهله، وازداد بذلك حرصا على تعلم المزيد .

وهكذا وجد رمضان نفسه منهمكا بشكل مطلق وسط هذا الجو المعرفي الجديد لدرجة أنه رأى في المنام أنه كان يناقش مع بعض الطلاب والمدرسين قضية شائكة كان أبرز ما تذكره منها أنه كان رفقة بعض الطلاب في قاعة الدرس لسماع محاضرة للعميد الذي كان يشرح مبدأ غريبا ولكنه يشدك اليه بقوة وهو : إذا كانت كتلة من المادة قابلة لأن تنبعث منها الحياة فهل يمكن لنا أن نستنتج أن الحياة كانت موجودة بشكل كامن فيها من قبل ؟ بيد أن جميع الأطروحات العلمية تؤكد أنه لا توجد مادة جامدة في الكون لأن كل الموجودات مهما صغرت توجد في حالة حركة مستمرة . لكن الحركة ليست حياة لأن الحياة نشأت بعد مرور ملايين السنين على نشأة الكون بحيث تنبعث أخيرا مادة بها حياة وتكون حركتها متميزة ومختلفة عن حركة غيرها من المواد التي كانت موجودة من قبل . وهكذا تتكون الخلية الأولى خلال الزمن السرمدي وتصبح مثل الطفرة في المرحلة الجديدة من حياة الكون حيث يبدأ الله الذي خلق الكون خلق الكائنات الحية بحيث تتكرر عملية انبثاق الخلايا الحية بنفس الطريقة التي خلق الله بها الخلية الأولى، وبعد عشرات الملايين من السنين من عمليات تكاثر الخلايا الحية تسود ظاهرة التنوع الاحيائي عبر الزمن الكوني التي يكون محورها الإنسان ؛ ذلك الكائن الذي لديه عقل وفكر وقدرة على تدبر الأمور . أي أن المادة لم تكن كتلة متجانسة، بل كانت تحتاج إلى وجود الإنسان ككائن مفكر ولديه شعور بذاته وإدراك للكون المحيط به، ويعرف أنه لم يخلق عبثا لأنه إذا لم يكن هناك كائن قادر على إدراك الموجودات حينها تصبح كل الموجودات وكأنها غير موجودة فعلا . أي أن ثلاثي الزمن والوجود السرمدي لله، والفكر الإنساني هي التي تعطي للوجود الكوني معنى، وبدون هذه العناصر الثلاثة ـ وربما تكون هناك عناصر أخرى أيضا ـ يستحيل على العقل الإنساني فهم الوجود .

وفجأة أفاق رمضان من حلمه وكأن تلك الأفكار قد طبعت في ذهنه لدرجة أنه كان قادرا على سردها كلمة كلمة . وبمجرد أن لاح الصباح ارتدى ثيابه على عجل واتجه بنفاذ صبر نحو المدرسة لكي يستطيع أن يتحدث مع العميد وهو الأستاذ الذي يدرس على يديه . كان أول من وصل إلى المدرسة، وانتظر حتى جاء الطلاب الآخرون والأستاذ الذي أبلغه رمضان بتفاصيل الحلم الذي رآه في منامه الليلة الماضية حيث أجابه أستاذه قائلا : كم هي عظيمة إرادة الله الذي وسع كل شيء علما . لقد كانت تلك الأطروحة التي رأيتها في منامك تمثل موضوع محاضرة اليوم ؛ فالله عز وجل هو العليم الخبير . أعتقد يا بني أنك استوعبت جيدا الدروس التي نلقيها في هذه المدرسة، ولهذا سنعاملك مستقبلا لا

على أنك مجرد طالب علم بل على أنك أستاذ لكن رمضان كان قد أصبح يشعر أنه رغم كل المعارف الجديدة لا يزال لا يعلم إلا النذر اليسير، ولهذا فإن ما يقوله أستاذه لا يبدو أمرا حقيقيا، لكنه على أية حال شكر أستاذه على كلمات المدح والإطراء التي قالها بحقه مشيرا إلى أنها ستشكل دافعا قويا له لكي يواصل المسير في الطريق الصعب نحو الثقافة والمعرفة .

وعندما عاد إلى البيت التقى سليمة حيث وجدها في حالة عصبية متوترة لأن الجيران أخبروها أنه بعد يومين سيتم إعدام اثنين من « المتمردين « في منطقة الصابري بتهمة التحريض ضد سلطات الاحتلال الايطالي وتهريب الأسلحة . لقد أدركت سليمة أن هاذين « المتمردين « المحكوم عليهما بالإعدام هما ضمن المجاهدين المناضلين الذين كان عزيز وخليفة يهربان لهم الأسلحة من المكان السري على ساحل البحر باستخدام الشاحنة التي كان يقودها عزيز . رجت سليمة من رمضان أن يأخذها معه إلى الصابري أثناء تنفيذ حكم الإعدام بحق هاذين المناضلين قائلة له : إنني أدرك أن هذا المشهد لن يكون هينا بالنسبة لي لكنني لا أستطيع أن أبقى سلبية تجاه مثل هذه الأمور . إن مشاهدتنا للطريقة التي نفقد بها أفضل رجالنا حين يضعهم الجلادون الطغاة على أعمدة المشانق هو أقل ما نستطيع عمله من أجل أن ننقل اليهم وهم في اللحظات الأخيرة من حياتهم تأكيدنا على أن تضحياتهم لن تذهب سدى .

أما معلومة فقد كانت على دراية بهذا الأمر، وكانت قد تناقشت حوله مع سليمة لأنها لم تكن توافق على أن تشاهد سليمة هذا المنظر المأساوي الحزين قائلة لها إنها لا ترى أن تذهب لرؤية ذلك المشهد المفزع لإعدام هاذين المسكينين لأن مثل هذا المشهد سيظل عالقا بذهنها دائما بما يشمله من طغيان وعنف، خاصة وأن سليمة سقطت طريحة الفراش منذ اللحظة المؤلمة التي شاهدت خلالها عملية إعدام زوجها، وعلى هذا المنوال حاولت معلومة أن تورد أسبابا كثيرة لإقناع سليمة بعدم الذهاب من جديد لمشاهدة عملية الإعدام بحق هاذين الرجلين لأنها كانت واثقة من أن سليمة لن تستطيع تحمل مثل هذا المشهد .

لقد كانت سليمة تدرك صدق ما قالته معلومة، ولكنها كانت مصرة على الحضور من أجل توديع هاذين البطلين الوداع الأخير ولو عن بعد لأنهما كانا من رفاق النضال لزوجها الشهيد اللذين تحدث لها عنهما بكل فخر واعتزاز معتبرا أنهما من كبار المجاهدين من أجل تحرير ليبيا الذين ضحوا بكل ما لديهم في سبيل خلاص الوطن . كان إصرارها على الحضور مطلقا لدرجة أنه لا رمضان ولا معلومة استطاع الاستمرار في محاورتها لإثنائها

عن عزمها، ولهذا قرروا جميعا حجز عربة بشكل مسبق لكي تقلهم قبل حلول الفجر إلى موقع تنفيذ حكم الإعدام بالصابري . أما ما تبقى من ذلك اليوم وأثناء الليل فقد انقضى بشكل وئيد، حيث لم يتحدثوا بعد ذلك عن هذه المسألة، ولكنها بقيت محفورة في أعماق نفوسهم .

وقبل حلول فجر اليوم التالي كان رمضان وسليمة جاهزين للذهاب إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام بحق المجاهدين، وقد أدهشهم أن رأوا معلومة قد جهزت نفسها للذهاب معهما قائلة إنها لن تدع إبنيها يذهبان وحيدين لرؤية مشهد الموت الأليم، وانطلق ثلاثتهم في العربة نحو الصابري . وصل الجميع إلى المكان قبل شروق الشمس حيث كانت كل العناصر المكلفة بتنفيذ حكم الإعدام جاهزة : الآمر العسكري، والجلاد المكلف بالشنق، والضباط العسكريون الايطاليون، و«الزابطية» أي الضباط الليبيون المكلفون بحراسة المتهمين . ترجل الجميع من العربة وتقدموا إلى مسافة حوالي عشرين مترا من المكان الذي نصبت به المشنقة حيث كان المجاهدان يساقان نحوها ثم بدأ أحد الضباط يقرأ نص التهمة الموجهة إليهما والحيثيات التي قادت إلى الحكم عليهما بأقصى عقوبة، وهي عقوبة الإعدام شنقا حتى الموت . ولعل أبرز المفارقات في هذا الموقف أن كل واحد من الجانبين : سلطات الاحتلال الايطالي من جهة، والمجاهدين الليبيين من جهة ثانية كان يعتقد أنه على حق بينما المنطق يشير ببساطة أن أحد الجانبين على الأقل لا يملك هذا الحق !

جيء بالأسيرين الليبيين، ووضع حبل المشنقة حول عنقهما دون أن ينثني لهما عزم فلقد كانت إرادتهما من فولاذ وهما ينتظران الشهادة بصبر . اعتقدت سليمة أن كليهما كان ينظر اليها بتركيز وهو نفس ما لاحظه رمضان ومعلومة . وعندما انتهى الضابط من قراءة نص التهم وهو الإجراء الروتيني المتبع سألهما حول رغبتهما الأخيرة حيث لم ينطق أحدهما بأي رغبة أما الثاني فقد طلب السماح له بتوديع أحد أقاربه الوداع الأخير حيث قدم إلى منصة المشنقة شيخ عجوز يرتدي أسمالا وعانق المتهم عناقا حارا . كانت سليمة تراقب المشهد بدقة حيث لاحظت أن هذا المتهم أبلغ الشيخ العجوز رسالة سرية في بضع كلمات مختصرة همس بها في أذن ذلك الشيخ .

أما ما تبقى من هذا المشهد الحزين فقد انقضى بسرعة هائلة ؛ فبإشارة من الضابط المختص قام منفذ حكم الإعدام بتسجيل بيانات تنفيذ الحكم وبإشارة ثانية تم فتح الجزء من الأرضية الخشبية الذي كان يقف عليه المتهمان حيث هبط جسدا الشهيدين إلى أسفل

. بكت سليمة أما معلومة فقد تقيأت بينما اعتلى وجه رمضان شحوب شديد حيث بدا كوجه الميت ثم ساد الموقف صمت رهيب، واقشعرت أبدانهم وكأنها توخز بالإبر أو تضرس بأنياب، وسيطر الرعب على المكان ونشب مخالبه في أجساد جميع الذين استسلموا لهوله . صعد رمضان وسليمة ومعلومة مطأطئي الرؤوس إلى العربة التي كانت متوقفة غير بعيد عن هذا المكان، وتحركت بهم وكأنها شبح ظلمة حزينة تريد إطفاء نور ذلك اليوم الجديد، كما أن الحصان الذي يجر العربة بدا هو الآخر مطأطئ الرأس لا لألم ألم به، ولكن لما يبدو أنه استشعره من شبح الموت الذي مد جناحيه فوق ذاك المكان، والذي استلزم معه طأطأة الرؤوس احتراما لروحي الشهيدين اللتين أزهقتا ظلما وغدرا .

أما منفذو حكم الإعدام الذين كانوا يرتدون البدل الأنيقة التي تحمل الرتب والنياشين اللامعة فقد غادروا هم أيضا ذلك المكان الحزين على أقدامهم أو على ظهور الخيل وهم يختالون نشوة بالعمل الذي أنجزوه، وهم لا يشعرون أن الحقارة ارتدت أثواب الزينة لتنفيذ جريمة شنعاء، وأن الموت قد فرض سيادته عليهم وأصبح يقهقه سخرية منهم .

كان التأثر بالموقف هائلا بالنسبة لرمضان وسليمة ومعلومة لدرجة أنهم لم ينبسوا ببنت شفة طيلة وجودهم بالعربة، حيث كان كل واحد منهم يسترجع في ذهنه ذلك المشهد الرهيب . بدا رمضان حزينا شاحب الوجه تعلو جبينه تجعدات لم تكن موجودة به من قبل . أما سليمة فقد بقيت متحجرة وكأنها فاقدة الوعي . وبالنسبة لمعلومة فقد انطوت على نفسها تتجرع الآلام والأحزان داخلها بينما أمسكت بيد سليمة وأخذت تربت عليها من أجل إضفاء روح العزم عليها . أما سائق العربة فقد بقي مقشعر البدن، ينظر حوله في مختلف الاتجاهات خوفا من أن تحل بهم أية مصيبة أخرى، لكن شمس الله التي بدأت تعلو شيئا فشيئا ألقت عليهم بنورها الدافئ، ومضت العربة تشق طريقها بين أشجار النخيل وهي تحمل على ظهرها وفدا من الحزن، حيث مضت أيام عدة قبل أن يستطيع أي من هؤلاء الثلاثة أن يخفف عن نفسه شيئا من هول المصاب الجلل الذي أحل بالوطن .

وبعد مرور حوالي شهر على الحادثة بدا وكأن الحياة كادت أن تعود لمجراها القديم إلى أن استقبل رمضان في إحدى الليالي زائرا كان يرغب في الحديث مع سليمة، وقدم نفسه على أنه أحد أقرباء واحد من الشخصين الذين أُعدما شنقا مؤخرا، وهو الذي عانق المتهم قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه . ولتبديد الشكوك حول هويته الحقيقية صرح هذا الزائر قائلا : إنني أحد أقرباء محمد وهو المناضل الذي أعدم منذ حوالي شهر حيث قال لي باختصار شديد جدا قبل إعدامه أن الفتاة التي كانت بالعربة إسمها مبروكة . حيث

كان يعرفها بهذا الاسم ـ وهي أرملة الشهيد خليفة، وأريدك أن تقول لها أننا بدأنا رحلة الجهاد ولكننا لم ننته منها بعد، وإذا كنت قادرة على القيام بأي شيء فأرجو أن تستمري في رحلة النضال من أجل تحرير بلادنا، وليسدد الله خطاك.

كان هذا كل ما قاله لي قريبي الشهيد طيب الله ثراه . أما نحن أفراد أسرة الشهيد فقد أصبحنا نعيش العوز والفقر مما يجعل من الصعب علينا متابعة نهجه النضالي، ولذلك يحز في نفوسنا كثيرا أننا أصبحنا لا نقدر على تحقيق ما كان يحلم به خاصة مع هذا الشيب الذي غزا رؤوسنا، ثم أزاح الغطاء عن رأسه للحظة لكي يبرز مظاهر الشيخوخة التي كانت تتوهج كبرياء وعزة نفس، ثم استرسل هذا الشيخ قائلا : إنني لا أعرف لماذا طلب مني قريبي الشهيد أن أنقل هذه الرسالة إلى امرأة ضعيفة لا تستطيع أن تفعل سوى القليل إزاء قضيتنا المقدسة، ولهذا كنت مترددا في القدوم إليكم، لكنني في ضوء المعزة والتقدير اللذين أكنهما لقريبي الشهيد، وللثقة التي أحملها في آرائه الصائبة رأيت أنه من الواجب علي أن أنقل رسالته إليكم، وقد شاء الله أن أفعل ذلك . قال ذلك ثم أخرج وثيقة ورقية وقام بتسليمها إلى سليمة مضيفا : إنها تحمل عناوين الأشخاص الذين يهربون لنا الأسلحة والذخيرة وهم موجودون في الداخل، كما تحمل الوثيقة عناوين أشخاص آخرين يمثلون عناصر مساعدة أي حلقات وصل مع الأشخاص الذين يزودوننا بالأسلحة والذخيرة . إنني أصبحت كهلا أرسف في حياة الفاقه مما يجعلني غير قادر على عمل الكثير، فإذا كنتم لا تستطيعون الاستفادة من هذه الوثيقة فأرجو أن تقوموا بإحراقها لأن ضررها عندئذ سيكون أكبر من نفعها، وستؤدي إلى إيذاء عدد كبير من الأشخاص . قال ذلك الشيخ تلك الكلمات ثم أومأ برأسه المشتعل شيبا بما يدل على أنه يريد أن يودعهم، ثم خرج يمشي بخطى بطيئة .

استمع رمضان بذهول إلى هذا الكلام، وعندما غادر الشيخ انتبه إلى الموقف وأسرع الخطى يلاحق الشيخ حيث وضع كمية النقود التي كانت في جيبه في يد الشيخ قائلا له : أرجو أن تأخذ هذه الكمية القليلة من النقود علها تخفف عنك شيئا من وطأة الحياة، كما أنني أرجوك إذا ما احتجت لأية مساعدة أن تأتي إلي لأنني سأكون دوما على استعداد لمساعدتك . وعندما رأى الشيخ تلك الكمية المعتبرة من النقود في يده استبشر خيرا لأنه كان بالفعل يعيش ظروفا اقتصادية صعبة، وبالنسبة لشيخ في عمره فإن وقع هذه الظروف عليه يكون مضاعفا ولذا تمتم الشيخ قائلا لرمضان : أنار الله طريقك ووفقك أيها الشاب، ثم غادر . وفي أثناء ذلك بقيت سليمة تحمل الوثائق التي أحضرها الشيخ

في يدها دون أن تعرف كيف يمكن لها أن تتصرف بشأنها حيث أن استلامها كان مفاجأة لها، ولم تكن أبدا تتوقع أن تكون في مثل هذا الموقف . نظرت إلى رمضان الذي كان بدوره حائرا لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل إزاء هذا الموقف غير المتوقع . وبعد فترة قصيرة من التفكير اقترح رمضان الاحتفاظ بهذه الوثائق من أجل دراستها بهدوء لأنه لا يجب أخذ هذا الأمر ببساطة .

استأنف رمضان حياته الاعتيادية وخاصة حضور المحاضرات التي تلقى بالمدرسة، لكنه منذ اليوم الذي أحضر فيه ذلك الشيخ الوثائق أصبح رمضان شخصا آخر غير الذي كان من قبل لأنه يفكر دائما فيما قاله الشيخ من أن الهدف من جلبه للوثائق لسليمة هو استمرار النضال من أجل الحرية والعدالة . بدأ رمضان يشعر أن الحياة ليست مجرد التفكير في مجريات الحياة اليومية، كما أنها ليست مقتصرة على الضرورات الشخصية للإنسان . مر عليه أسبوع وهو في حالة من القلق، ثم قرر أخيرا أن يتحدث مع عميد المدرسة طالبا منه إسداء النصح اليه وإعطاءه رأيه وإرشاداته حول هذا الموضوع لأن شخص العميد بحكم خبرته الطويلة وثقافته الواسعة يستطيع أن يرشده إلى الطريق الصحيح إزاء هذا الموضوع الشائك .وهكذا استطاع أن يستعيد لنفسه بعض الهدوء بعد أن اتخذ لنفسه هذا القرار .

وفي اليوم التالي وبمجرد أن حضر العميد، ذلك الأستاذ الطاعن في السن، قام رمضان بتقديم التحايا العطرة له ثم أبلغه رغبته في الحديث اليه حول موضوع هام جدا ودعاه إلى تناول طعام العشاء في بيته لكي تتاح لهما الفرصة للحديث عن الموضوع بهدوء . استمع العميد إلى ما قاله رمضان، ثم نظر اليه بانتباه، ووضع يده على ظهر رمضان قائلا له : منذ بضعة أيام كنت أشعر يا بني أنك منشغل بشيء ما دون أن تحدثني عنه . إنني بانتظار اللحظة التي تختارها لكي تحدثني عن الموضوع الذي تريد، وسأكون أمينا على الخصوصية التي تحيط به . إنني مسرور لأنك قررت إبلاغي بالموضوع الهام الذي لديك، وسأكون أكثر سعادة لمساعدتك بشأنه، ليس فقط بسبب كرمك، ولكن لأنه أسهل بالنسبة لي إعطاء إرشادات للطلاب بشكل منفرد من أن أعطيها لعدد كبير منهم في آن واحد .

وعندما قرب موعد تناول طعام العشاء استأجر رمضان عربة لكي يستقلها صحبة الأستاذ إلى بيته، ورغم أن المسافة التي تفصل المدرسة عن البيت كانت قصيرة إلا أنه بالنسبة للأستاذ الطاعن في السن كان يصعب عليه قطعها ماشيا . وعندما خرج الأستاذ واكتشف أن رمضان كان يناديه وهو جالس في العربة المستأجرة سُر الأستاذ لهذه اللمسة

الكريمة ثم جلس بجوار رمضان شاكرا له ذلك حيث قال له : لقد أصبت بإحضارك هذه العربة لأنني أمشي ببطء شديد ولا أستطيع أن أقطع مسافة طويلة ماشيا فالمشي يجهدني بسرعة يا بني لأن سني العمر لا ترحم، لكنني أحمد الله على أنني أستطيع أن أمشي ولو كان ذلك بصعوبة .

كان السائق يعرف رمضان ولذا لم يكن ضروريا إبلاغه بعنوان البيت، ولهذا بمجرد أن ركب الأستاذ في العربة قام السائق بإحداث فرقعة في الهواء من خلال السوط الذي كان يحمله معه من أجل أن ينطلق الحصان راكضا بسرور لإنجاز الرحلة المطلوبة . كان رمضان أثناء هذه الرحلة يفكر فيما قاله له الأستاذ بشأن الإجهاد الذي يتعرض له بسبب المشي، وشعر بتأنيب ضمير لأنه لم يدرك ذلك بنفسه من أجل معالجة هذا الأمر، ولذا طلب من السائق اعتبارا من ذلك اليوم أن يقوم بإحضار الأستاذ من بيته إلى المدرسة ثم يقوم بإرجاعه إلى البيت في الموعد الذي يحدده له الأستاذ، وذلك بغض النظر عن عدد مرات الذهاب والإياب بين المدرسة والبيت وأن تكاليف كل ذلك سيتحملها رمضان مبلغا السائق بضرورة القدوم اليه كل يوم سبت من أجل استلام المقابل النقدي للرحلات التي يحتاجها الأستاذ اسبوعيا معلما إياه أنه في حالة عدم وجوده بالبيت فيمكن للسائق استلام المبلغ المطلوب من السيدة معلومة . استمع السائق إلى كلام رمضان ثم أجاب قائلا بكل لطف أن أوامر رمضان سيتم تنفيذها لأنه يدرك أن كل ماله كان بفعل مساعدة رمضان له، ولذا فهو يشعر بالسعادة أن يقدم له هذه الخدمة رغم أنها لا تغطي إلا جزءا قليلا من أفضال رمضان عليه، ودعا له الله أن يطيل في عمره ويديم خيره وكرمه . قال ذلك ثم هز اللجام لكي يسرع الحصان في عدوه من أجل الوصول سريعا إلى بيت رمضان .

وعند الوصول إلى البيت قام رمضان بأخذ الأستاذ إلى أفضل غرفة استقبال بالبيت وأجلسه على أفضل الزرابي والحشايا لديه ثم نادى كلا من سليمة ومعلومة لكي يقدمهما إلى أستاذه حيث أخبر أستاذه أن هاتين المرأتين تعنيان الكثير بالنسبة اليه . أما سليمة ومعلومة فقد كانتا تسمعان كثيرا عن هذا الأستاذ الذي كانت له شهرة واسعة وسمعة ممتازة لدى الجميع . وحسب الثقافة الشرقية فإن أحدا لم يتحدث عن موضوع اللقاء إلا بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، حيث أحضرت معلومة الشاي، وقد كان إعداد الشاي مهمة لم تشأ معلومة إسنادها إلى أحد غيرها طالما كانت قادرة عليها، ثم قام رمضان بإحاطة أستاذه علما وبشكل موجز ومركز بموضوع حكاية سليمة التي أخذت وقتا لا بأس به رغم محاولات رمضان للاختصار . استمع الأستاذ العميد لما يقوله رمضان

دون أية مقاطعة، وقد كان حريصا على تفهم كل جوانب حكاية سليمة، وعندما انتهى رمضان من سرد تلك الحكاية نظر اليه نظرات ثاقبة، قائلا له : يا بني ! أعتقد في ضوء ما سردته أمامي أنك واحد من الذين أخصهم الله بالقدرة والمعرفة، حيث أنني على علم بحركة تحرير البلاد التي تتأجج حاليا . لم يكن الشهيدان اللذان تم إعدامهما منذ فترة قريبة ماضية المناضلين الوحيدين ولا الأكثر أهمية، بيد أن نقص الموارد المالية يمثل أبرز الصعوبات التي تواجهنا . إننا نحتاج إلى شراء مزيد من الأسلحة والذخيرة لكي نستطيع مجابهة السياسة الاستعمارية لإيطاليا في بلادنا، لكن مواردنا الاقتصادية لا تسمح بذلك الأمر الذي دفعنا إلى تجميد بعض أعمالنا الكفاحية إلى حين توفر تلك الموارد . إنني واحد من أعضاء حركة تحرير ليبيا لكنني لست من الأعضاء العاملين بسبب محدودية قدراتي الجسدية بحكم تقدم العمر، لكنني واحد من الداعمين لهذه الحركة، ولذا فإنني على علم بمجرياتها وكثيرا ما يقصدني أعضاؤها لطلب النصح والمشورة حول القضايا الهامة وذلك بحكم خبرتي النضالية الطويلة .

كان رأيي دائما يتمثل في الاستعداد التام والانتظار إلى أن تحين الفرصة المناسبة للقيام بالإعمال الكفاحية ؛ ذلك أن الثمرة الناضجة يا ولدي تسقط من تلقاء نفسها، ولهذا يتوجب علينا تجنب العجلة في أمرنا في هذا الوقت بالذات . إن الذي نحتاجه حاليا يتمثل في توفير الأسلحة والاستعداد وانتظار اللحظة المناسبة لتنفيذ أعمالنا التحريرية كي لا نقع في أخطاء إستراتيجية تكون نتيجتها وبالا على الشعب . وفي الوقت الحالي يتوجب علينا تجهيز قافلة لجلب الأسلحة من تونس لأن ترك هذه الأسلحة في نفس المكان الموجودة به حاليا قد يكون مكمن خطر . وحينما كان الأستاذ يدلي بحديثه هذا كانت سليمة تجلس بجوار رمضان ثم أمسكت بيده وأخذت تضغط عليها في إشارة منها لرمضان كي يتفهم جيدا كلام أستاذه وأن يتوافق معه في آرائه التي طرحها .

لم يتمالك رمضان نفسه كثيرا لما سمعه من حديث أستاذه الذي لم يكن يعرف شيئا عن الإمكانات الاقتصادية لرمضان، ولم يكن يعرف ما الذي يمكن لرمضان أن يقدمه لحركة تحرير ليبيا حيث أشار رمضان إلى أستاذه لكي ينتبه لما سيقوله، ثم أبدى استعداده لتغطية النفقات المالية اللازمة لتحرك تلك القافلة لجلب الأسلحة من تونس ثم أردف : إنني لا أعرف كم ستكون تكاليف تلك القافلة، لكنني أرجوك باعتبارك الشخص الملم بهذا الأمر أن تبلغني بالقيمة وأنا سأتولى دفعها . ليس هذا فحسب، بل إنني أريد أن أشارك بنفسي في تلك القافلة . نطق رمضان بذلك وكان عازما حازما شأنه شأن المناضلين الذين

استقبلوا حكم الإعدام شنقا برجولة وشرف .

وعندما سمعت سليمة كلام رمضان لم تستطع أن تُبقي على صمتها فخاطبته قائلة : يا سيدي ! يا صديقي ! يا من يمثل كل شيء بالنسبة لي لا تترك صديقتك سليمة هنا لأنها سوف لن تبقى حية بدونك . خذني معك في القافلة لأنني لا أستطيع الانفصال عنك، لأنني عانيت كل الشرور في الماضي وأريد الآن أن أكون معك في الحياة وفي الموت . أرجوك ألا تفارقني يا سيدي . نطقت سليمة بهذه الكلمات بكل قناعة وثقة مما كان له وقع هائل على رمضان الذي قال لها إنه لا يعرف شيئا عن القافلة، ولا يعرف ما إذا كان بإمكانه أن يكون ضمنها، كما أنه كذلك لا يود أن يفترق عنها .

هنا تدخل الأستاذ وفي الوقت المناسب لكي يقول إنه ليس هناك ما يمنع من أن يشارك رمضان في تمويل القافلة، وإذا كان يرغب في الذهاب شخصيا ضمن القافلة، فإنه يمكنه أن يقوم بذلك وسيقوم رئيس القافلة بتجهيز وثائق شخصية مزورة له، كما أنه بإمكانه في هذه الحالة أن يصطحب معه سليمة . وهكذا اتفق الجميع على هذه الترتيبات، وفي اليوم التالي تم إبلاغ رئيس القافلة وهو أحد مناضلي حركة الجهاد من أجل تحرير ليبيا لكي يحضر إلى منزل رمضان من أجل الاتفاق على جميع التفاصيل . وفي ختام هذا اللقاء قال الأستاذ العميد الكهل ان إرادة الله عظيمة لأنني كنت محبطا بسبب عدم قدرتي على استجلاب شحنات الأسلحة ولكن الله أتى بالحل بطريقة لم أكن أتوقعها إطلاقا .

وبالنظر إلى أن الوقت كان متأخرا جدا لعودة الأستاذ إلى بيته، فقد جهز رمضان إحدى غرف المنزل وأعد له سريرا ناعما لكي يستطيع إراحة جسمه بشكل كامل، وهو ما شكره له الأستاذ شكرا جزيلا . وفي اليوم التالي استؤنف النشاط المدرسي كالعادة ثم انتظر الأستاذ ورمضان مجيء رئيس القافلة حسب الاتفاق حيث لم تكد تمضي سوى بضع دقائق حتى حضر هذا الرجل الذي كان في حوالي الأربعين من عمره، نحيفا ولكن ذا بنية جسمية قوية، له وجه مثلث التقاسيم وأنف معقوف، وعينان سوداوان ثاقبتان تبدوان وكأنهما تطلقان شعاعا يخترق جسم المتحدث إليه ويكشف لهما ما في جوفه من أفكار ومشاعر . كانت بشرته سمراء داكنة بفعل حرارة الشمس، وكان طويل القامة، له طبع جريء، لكنه كان مؤدبا وله صوت عذب رخيم .

قدم الأستاذ رئيس القافلة إلى رمضان قائلا له إنه مصطفى الذي حدثه عنه، وهو إنسان ماهر في أداء عمله بحيث يمكن لك أن تثق ثقة كاملة في قدراته ونزاهته . أما مصطفى فبعد أن سلم على الجميع شكر الأستاذ على كلمات الإطراء الرقيقة التي قالها

بحق شخصه . وبعد أن تناولوا طعام الغداء أراد مصطفى أن يعرف الغرض من استدعائه، حيث قام الأستاذ بعرض ما أعده جيدا من معلومات، حيث عرض بعض الوثائق وخريطة مُبلغا مصطفى بما يتوجب عليه عمله . وبعد أن قام مصطفى بدراسة الموقف جيدا قال إنه يستلزم لتجهيز قافلة من هذا النوع مائة ألف ليرة، أما قيمة شراء الأسلحة فهي مليون ليرة مما يعني أنهم سوف يحتاجون إلى مليون ومائة ألف ليرة على الأقل لتنفيذ هذه المهمة، فإذا كان المبلغ متوفرا فبها واذا لم يكن كذلك فليس هناك ما يدعو إلى تسيير القافلة .

كان الأستاذ يعرف تقريبا أن القيمة المطلوبة لهذه المهمة ستكون في حدود المبلغ الذي ذكره مصطفى، ولأنه كان يشك في أن رمضان لديه القدرة المالية على تجهيز هذا المبلغ فقد أقترح أنه بدلا من إحضار شحنة الأسلحة دفعة واحدة فمن الممكن إحضارها على دفعتين رغم أن هناك مخاطرة أكبر بشأن مسألة النقل على دفعتين، ولكنها طريقة تساعد على منحهم الوقت لتدبير المبلغ المتبقي لإحضار الشحنة الثانية من الأسلحة . بيد أن رمضان تدخل في الحديث بشكل تفاجأ به الأستاذ كثيرا لأنه قال إنه لا حاجة لتعريض المهمة للمخاطر الإضافية لأنه بإمكانه تدبير المبلغ كاملا دفعة واحدة . نظر الأستاذ ومصطفى إلى بعضهما البعض وهما لا يكادان يصدقان ما سمعاه، وكانا يشكان في دقة ما قاله رمضان، لكن رمضان بحصافته المعهودة ولكي يبدد كل الشكوك أستأذن الحضور واتجه صوب غرفته وخلال دقائق قليلة عاد ومعه كيس به المبلغ المطلوب من المال حيث جلس وفتح الكيس ببطء، وأخذ يعد المبلغ مما أثار دهشة ضيفيه ثم قال لهما : هذا هو مبلغ مليون ومائة ألف ليرة بين أيديكم، وإذا ما حدث أن احتجتم لمبلغ إضافي آخر فأرجو ألا تتحرجوا في إبلاغي . وهكذا تبددت بشكل مطلق شكوك الأستاذ ومصطفى، وشعرا بنوع من الخجل لسوء تقديرهما لإمكانات رمضان المالية قائلين لرمضان إنهما يقسمان بالله أنهما لم يكن لهما أي مقاصد سيئة عندما تبادلا النظرات بينهما على اثر سماعهما استعداده لدفع المبلغ، بل كانا مندهشين كيف أن رمضان يمكن أن يتوفر لديه هذا المبلغ الكبير من المال .

وبعد ان انتهوا من إيضاح تلك المسألة بجلاء شرعوا في وضع خطة الرحلة لكي تنفذ على أفضل وجه وبأسرع وقت ممكن، خاصة وأن المبلغ المطلوب قد أصبح جاهزا لديهم من أجل شراء المواد الغذائية والإبل واختيار الأشخاص المناسبين لتأدية هذه المهمة . أما رمضان فقد أصر على معرفة ما إذا كان بإمكان سليمة أن تكون ضمن القافلة، حيث كانت

سليمة حاضرة لكنها ملتزمة الصمت أثناء هذا الحوار احتراما للرجال المتحدثين حسبما تقتضيه التقاليد الليبية حيث أجاب مصطفى أنه ليس هناك ما يمنع من حضورها، بل إنه من الأفضل وجودها ضمن القافلة لإعطاء الانطباع بأن القافلة ليست سوى قافلة لاحدى القبائل أثناء ترحالها، لأنه كثيرا ما كانت تعترض طريقنا دوريات الجيش الايطالي أو الشرطة الايطالية .قال مصطفى هذا الكلام ثم نهض حاملا معه مبلغ مائة ألف ليرة حسب تقديراته لتجهيز القافلة، ثم ودع الحاضرين بلطف قائلا لهم إنهم سيتلقون في القريب العاجل المعلومات اللازمة من طرفه حول القافلة .

غادر مصطفى وبقي الأستاذ ورمضان وسليمة بالمنزل حيث كانت سليمة مسرورة جدا لحصولها على الموافقة بأن تكون ضمن القافلة . أما رمضان فقد بدت عليه علامات الانشغال، وأخذ يفكر في كيفية تجنب المخاطر التي يمكن أن تواجه مهمتهم الوطنية . أما الأستاذ فقد كان ولا يزال يعيش صدمة الذهول إزاء السهولة التي أخرج بها رمضان ذلك المبلغ الكبير المطلوب لتأدية هذه المهمة . وهكذا بقي كل واحد من الثلاثة غارقا في أفكاره الخاصة إلى أن تحدث الأستاذ بلطف موجها حديثه إلى رمضان قائلا : يا ولدي ! أنت صغير جدا في السن وكذلك سليمة، وليس هناك ضرورة لأن تكونا ضمن القافلة لأن مصطفى مناضل وطني كبير وبإمكانه التعامل مع أية مخاطر قد تواجه القافلة دون أن تكون هناك ضرورة لتعريضكما للخطر خاصة وأنكما قدمتما لهذه المهمة الكثير بتدبيركما المبلغ الطائل من المال لتأديتها . يا ولدي ! إنكما تدركان بشكل كامل ما يمكن أن تتعرض له هذه القافلة وأرجو ألا تخدعا نفسيكما، بل يجب أن تعرفا ما يمكن أن يحدث .

بيد أن رمضان وسليمة أكدا للأستاذ الكهل أنهما تناقشا حول هذه المسألة وأنهما حسما أمرهما بشأن المشاركة في هذه القافلة، ثم علق رمضان بقوله إنه هو وكذلك سليمة لديهما ما يكفي من الأسباب من أجل أن يعقدا العزم على أن يكونا ضمن القافلة . وعندما حُسم هذا الأمر أرادوا جميعا أن يخلدوا إلى النوم، حيث بقي الأستاذ لقضاء تلك الليلة أيضا في منزل رمضان وذلك لأن الوقت كان متأخرا جدا لعودته إلى بيته . وكالعادة تم تجهيز غرفة بها سرير ملائم للأستاذ لكي يستريح في نومه راحة تامة .

الجُزْءُ الثَّالِثُ

الفَصْلُ الأَوَّلُ

العودة إلى الصحراء

بعد خمسة أيام من الاتفاق الذي تم مع مصطفى جاء هذا الأخير إلى منزل رمضان لكي يبلغه أن يكون على استعداد للسفر خلال يومين، وأنه سوف يحضر اليه شخصيا يوم السفر قبل حلول الفجر . لم يشأ مصطفى أن يطيل البقاء عند رمضان رغم الإصرار الذي أبداه رمضان لاستضافته حيث شرح له الموقف قائلا : سأمضي معكما وقتا طويلا وممتعا أثناء السفر، بيد أنني لدي أشغال كثيرة لابد لي أن أنجزها قبل السفر، والنصيحة الوحيدة التي أريد أن أبديها لكما هي عدم اصطحاب أمتعة كثيرة معكما لأن هذا قد يربك عملية النقل . ثم ودع مصطفى رمضان الذي لم يكن بحاجة إلى إبلاغ سليمة بهذه الأخبار لأنها كانت موجودة في الغرفة المجاورة تستمع بوضوح تام لكل ما دار بين الرجلين من حديث .

اتفق رمضان وسليمة على تجهيز نفسيهما للسفر وقررا استشارة معلومة في أمر الأمتعة باعتبارها أكبر عمرا وأكثر خبرة، حيث جهزت لإبنيها كل اللوازم الضرورية للسفر وهي حزينة لفراقهما، ولكنها حاولت أن تتصرف بشكل اعتيادي كي لا يلاحظا عليها الحزن ولا يشعرا بالأسى إزاء فراقهما لها . وهكذا انقضى اليومان في عمليات تجهيز الأمتعة والاستماع إلى نصائح معلومة وإرشاداتها . وعندما حانت ساعة السفر حضر مصطفى في الموعد المحدد أي قبيل الفجر ومعه جملان مجهزان بشكل جيد بكل اللوازم الضرورية، ثم انطلق الجميع نحو وجهة سفرهم بقلوب ملؤها الفرح والسعادة .

التقى مصطفى ورمضان وسليمة مع باقي أعضاء القافلة في مكان فسيح مسقوف تم استئجاره لهذا الغرض . والى جانب القافلة الرئيسية كانت قافلة أخرى جاهزة للانطلاق، وهي كما علما فيما بعد سوف ترافق القافلة الرئيسية إلى نقطة معينة ثم تفترق عنها إلى وجهة أخرى . وكما هو متوقع فقد كانت الحركة في هذا المكان المسقوف كبيرة جدا بحكم أنه تتواجد به قافلتان، كما أن الحيوانات المجهزة للسفر أصبحت أقل هدوءا بفعل الضجيج والحراك الدائم الذي كان عليه الجميع بغية التأكد من تجهيز كل ما يلزم للسفر . كانت هناك أصوات تحتج على بعض الترتيبات، وصرخات بالتعليمات الصادرة من أولي الأمر في هذه القافلة إلى جانب أصوات أخرى تتحدث عن هذه الرحلة، وعن مغامرات

حدثت في رحلات سابقة إلى أماكن غريبة وعجيبة يصعب فهمها في تلك الصحراء ذات الطبيعة المتقلبة . وحين اقترب موعد الرحيل اصطف رمضان وسليمة خلف باقي المسافرين الذين وصلوا قبلهم، ثم أعطى مصطفى أوامره للقافلة بالانطلاق .

كانت القافلة تتكون من مصطفى كرئيس لها ومعه مرشد مختص في السفريات الصحراوية وستة جمالين حيث كانوا جميعا ومصطفى على وجه الخصوص من العارفين بشئون الصحراء، وكلهم ممن خاض معارك القتال من أجل تحرير الوطن، وواجهوا في قلب الصحراء المخاطر تلو المخاطر في سبيل هذه القضية . كان كل واحد من الجمالين يقود الجمل الخاص به إضافة إلى بعيرين آخرين بغرض استخدامها في عملية نقل الأسلحة والذخيرة، مما جعل العدد الإجمالي للقافلة تسعة رجال وامرأة واحدة ومعهم واحد وعشرون بعيرا .

أما القافلة الأخرى فقد كانت أكبر حجما من حيث عدد الرجال والنساء والجمال. كان شعاع الشمس لا يزال على وشك اختراق الظلام الدامس الذي اتسمت به الليلة السابقة عندما عبرت القافلتان البوابة الرئيسية للخروج من هذا المكان وسط رغاء الإبل ومواويل الرجال . وعندما لاح نور الصباح كانت القافلتان قد غادرتا ببطء تلك البوابة حيث كانتا تبدوان معا وكأنهما جسد يتلوى لحية تسعى بشكل متموج وسط شوارع المدينة المقفرة في تلك الفترة المبكرة جدا من النهار . وضمن القافلة التي كان بها رمضان كان الجمل الوحيد الذي يحمل هودجا هو الجمل الذي يحمل سليمة باعتبارها المرأة الوحيدة في تلك القافلة، وقد كانت تلك مبادرة من مصطفى من أجل جعل الرحلة أكثر راحة بالنسبة لها ولكي يحميها الهودج من شمس النهار الحارقة والغبار الملتهب الذي تقذف به الرياح العاتية على وجوه المسافرين في الصحراء .

عبرت القافلتان بوابة الجمالين عندما كان نور الشمس يغمر ذلك المكان ثم اجتازا سيدي حسين والبركة باتجاه الطريق الرئيسية المؤدية إلى اجدابيا التي تقع على أطراف الصحراء . وبعد حوالي ساعة وصلت القافلتان إلى مكان متسع تخيم فيه عادة القوافل المسافرة، حيث انتهز رمضان الفرصة لكي يطمئن على سليمة التي كان بعيرها يسير أمام بعيره أثناء الرحلة . وبالنظر إلى أنه لم تعد هناك حاجة للقافلة الآن للسير في طابور فقد اقترب رمضان من سليمة التي حيته بابتسامة مشرقة، ولوحت بيدها نحوه متساءلة عن أحواله حيث رد رمضان بقوله : كدت أنسى أنني على ظهر البعير طيلة الفترة الماضية لأنني شعرت بأنني عدت إلى الطفولة من جديد وتذكرت الزمان الذي كان فيه أهلي يرحلون من مكان إلى آخر في الصحراء . وردت سليمة بدورها قائلة : كان لدي نفس

الشعور تماما ولذا فإنني سعيدة أنني جئت بصحبتك يا صديقي رمضان حيث أنني لا أطيق فراقك، ولم تعد قواي تسمح لي بمواجهة الحياة بمفردي، وهو ما يجعلني أحتاج إلى من يحميني لكي لا أغرق في الغم . أصبح لابد لي أن أشد عضدي بشخص ما من أجل أن أشعر بالأمان، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تهدأ بها حياتي وأعود من خلالها إلى نفسي أو تعود نفسي إلي .

استمع رمضان إلى هذا الكلام وكان رده مختصرا مفيدا : إنني لا أستطيع أن أقدم لك سوى القليل، لكن جميع ما أملكه فهو تحت إمرتك، وأنا لا أعني هنا مجرد النقود . وهكذا بقي الاثنان يتحدثان بسرور بينما كانت القافلة تعبر سهولا قاحلة شبه صحراوية كانت تبدو في أعينهما متماثلة ومتسعة . وحين حان موعد الغداء لم تتوقف القافلتان بل أكل الجميع التمر، واستمر مسير القافلتين نحو الهدف المقصود إلى أن غربت الشمس، حيث اختار مرشد القافلتين مكانا ملائما لقضاء فترة من الراحة . كان هذا المكان مليئا بمخلفات شتى تركتها قوافل عددها لا يحصر سلكت ذات الطريق عبر مئات من السنين، حيث كان الباعث الرئيسي وربما الوحيد للتوقف بهذا المكان المتميز هو وجود بئر يحتوي على كميات كبيرة من الماء وهو بيت القصيد لمختلف القوافل التي تعبر الصحراء . أما المكان نفسه فهو قاحل مترب تحيط به جبال صخرية تحمي المسافرين من عصف الرياح الرملية أثناء عملية إشعال النار حين يقومون بإعداد وجبة عشاء خفيفة لهم .

كانت القافلتان تسيران واحدة قرب الأخرى، ولكنهما كانتا منفصلتين، حيث قامت كل منهما بنصب الخيام من أجل قضاء الليل بها . وسرعان ما عمت الحركة أرجاء المكان ؛ هذا ينادي ذاك، وذاك يحتج على ما قاله غيره، وآخرون يتنافسون في سباق محموم على الحصول على الحطب، وغيرهم يجلب الماء من البئر من أجل الاحتفاظ بقرب الماء التي لديه دونما استهلاك، وفريق آخر يقوم بتجهيز طعام العشاء، وباختصار كانت حركة تعم كل ركن في هذا المكان، تبدو في ظاهرها وكأنها فوضى عارمة، لكنها في الحقيقة كان مرتبا لها مسبقا أن تكون هكذا لحاجة في نفس يعقوب حيث أنه ضمن هذا الخضم كان كل فرد من أفراد القافلة لديه مسئولية محددة، وقد بدا ذلك واضحا جليا من خلال الانضباط الصارم بخصوص مواعيد العشاء والنوم .

وفي أثناء ذلك عكف رئيس القافلة والدليل المرشد لها على نصب خيمة كبيرة لإيواء رمضان وسليمة التي قامت بكل سرور بإعداد طعام العشاء لجميع الأشخاص الأربعة مستحضرة في ذلك - وهي إبنة الصحراء - ذكريات الطفولة، وكيف كانت أمها تجهز الطعام

وتعمل على إيجاد حلول لأية مشكلة قد تعترض تنفيذ تلك المهمة . وبعد أن تناول أربعتهم طعام العشاء في تلك الليلة التي تزينها النجوم الزاهرة شرعوا يتجاذبون أطراف الحديث أثناء فترة إعداد الشاي، متطرقين إلى أبرز أحداث ذلك اليوم من أيام السفر . وشيئا فشيئا بدأت تخفت أصوات المسافرين إلى أن اختفت تماما بحيث أمسى لا يُسمع سوى عواء الذئب الجائع الذي تتخلله بين الفينة والأخرى زمجرة مفاجئة لأحد الضباع التي تأتي على خلفية صوت خفيف تحدثه الجمال وهي تجتر طعامها بحيث يبدو المشهد كاملا وكأنه سيمفونية افريقية تعزف موسيقاها في تلك المنطقة الصغيرة شبه الصحراوية . نام الجميع مدركين أن اليوم التالي سيشهد استئناف القافلة لرحلتها لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة، رتيبة وثقيلة . وبطبيعة الحال كانت هناك حراسة بالمناوبة طوال الليل للقافلة . وعندما لاح أول شعاع للفجر وسط الظلام الدامس بدأ أفراد القافلة يستيقظون، حيث كانت ألسنة لهب النار التي اشعلت في مختلف أركان ذلك المكان تبدو وكأنها صفائح لامعة وسط الظلام، وشرع الجميع في إعداد طعام الإفطار بكميات كافية لمواجهة يوم جديد من السفر ملؤه المشقة والتعب والإنهاك .

وقبل أن تشرق شمس النهار كانت القافلة جاهزة للتحرك أو تكاد، وعندما أعطى رئيس القافلة أوامره بالتحرك فتح الدليل المرشد الطريق مشيرا إلى الجميع أنه بإمكانهم استئناف السفر .

انطلقت القافلة، وانطلق معها ضوء النهار ليغمر تلك المناطق السهلية القاحلة، وهكذا بدأ يوم جديد وطويل ورتيب من أيام الرحلة بما يحمله من حر وعطش . كان رمضان وسليمة المسافرين الوحيدين اللذين لم يسبق لهما السفر في قافلة من هذا النوع، ولهذا بدا عليهما الإرهاق الذي استطاعا التغلب عليه بسهولة بالنظر إلى صغر سنهما حيث عوض حماسهما للسفر عن قلة الخبرة لديهما . وهكذا بقيا يسيران بالقرب من بعضهما البعض، يتبادلان أحيانا كلمات التشجيع والطمأنة بغرض تقوية العزيمة لديهما في هذا السفر الشاق .

كان الوقت أواخر المساء عندما كانت القافلة تحوم حول خليج سرت، حيث بدأت تبرز بعض الكثبان الرملية التي تشير إلى أن القافلة بصدد الدخول إلى المنطقة الصحراوية . ومع بداية حلول الليل ضربت القافلة خيامها قرب بئر ماء تماما مثلما حدث في الليلة السابقة حيث تكرر نفس الروتين السابق دون أي تغيير يذكر . وفي صباح اليوم التالي، وعندما لاحت شمس النهار بين الكثبان الرملية كانت القافلة منطلقة في سيرها وهي ترزح بين فكي أشعة الشمس الحارقة والرمال التي تبدو كموج البحر مما يدل على أن مرحلة

صعبة في هذه الرحلة أوشكت أن تبدأ : إنها مرحلة السير عبر الصحراء بكل ما تحمله من أسرار وتحديات ومخاطر، وهو ما أيقظ لدى رمضان وسليمة شجون فترة الطفولة التي قضياها بالصحراء، ولهذا أصبحا يشعران بالسعادة تجاه الصحراء ؛ ذلك الصديق القديم لهما الذي لم يرياه مذ كانا صبيين، وإذا بهما يلقيانه من جديد بنوع من الشوق والحنين يشدهما إلى فترة عمرية بعيدة سابقة .

كان نهار ذلك اليوم من السفر شاقا وثقيلا بسبب الحرارة الشديدة التي لابد من تحملها مضافا اليها رياح المساء التي رغم أنها لم تكن عاتية إلا أنها كانت تحمل معها غبار الصحراء الملتهب وتقذف به على وجوه المسافرين . كان بعير سليمة مزودا بهودج منذ بداية الرحلة من أجل حمايتها من شرور الطبيعة الصحراوية . أما بعير رمضان فقد تم تزويده صباح يوم السفر عن طريق رئيس القافلة بمظلة حيث تذكر أن رمضان - رغم أنه ولد في بيئة صحراوية - إلا أن بعده لسنوات عدة عن حياة الصحراء ربما أفقده قدرته على التكيف مع ظروفها وعلى تحمل السير فيها إثنتي عشرة ساعة متواصلة تحت نار الشمس الحارقة . ولقد كان رئيس القافلة على حق لأن الشمس - خاصة عندما تتعامد أشعتها منتصف النهار - تبدو وكأنها تقذف لهبا، كما أن الرمال الملتهبة التي تقذف بها الرياح وكأنها ذرات من معدن ذائب أسهمت في استكمال المشهد الصعب لهذه الرحلة .

لم يتحادث رمضان وسليمة في تلك الآونة لأن كل واحد منهما كان محتميا من تلك الظروف المناخية الرهيبة داخل الطوق الذي اصطنعه رئيس القافلة لهما على ظهر كل من البعيرين اللذين كانا يركبانهما، واكتفيا بتناول رشفة من الماء بين حين وآخر، والتي كانت رغم سخونة الماء كافية لإطفاء نار العطش في ذلك اليوم من الجحيم . وقبل حلول الليل توقفت القافلة عند أحد الكثبان الرملية الهائلة لكي يتم الاحتماء بها من الرياح المتربة، ثم شرع المسافرون في ضرب خيامهم وإعداد طعام العشاء بسرعة كي لا يتأخر موعد النوم . كانت تلك الليلة هادئة هدوءا مطبقا، حيث لم يسمع للحيوانات البرية صوت، وساد فقط صوت هادئ للإبل وهي تجتر طعامها . وبمجرد الانتهاء من طعام العشاء وشرب الشاي خلد جميع المسافرين إلى النوم حيث أنهكهم التعب الشديد بعد فترة قاسية من السفر الشاق .

وعندما لاح نور الفجر في تلك الصحراء كانت القافلة تتحرك مواصلة لرحلتها ومجابهة بشجاعة يوما آخر من جحيم الشمس الحارقة التي تلفح ذلك المكان المقفر . جاء اليوم الثالث من السفر عبر الكثبان الرملية الملتهبة، وفي المساء توقف المسافرون عند مفترق طرق للقوافل تتناثر فيه بقايا أمتعة ومقتنيات قديمة بالية خلفتها مختلف القوافل عبر

القرون، وأصبحت وكأنها شواهد تقول للاحقين من المسافرين : لقد مررنا قبلكم من هنا، ولعل الباعث الوحيد على اختيار القوافل لهذا المكان كنقطة استراحة وجود بئر لم يكن به الكثير من الماء، لكنه كان كافيا لكي لا تستهلك القوافل احتياطيها المنقول من ماء الحياة . أقامت القافلتان الخيام على شكل مثلث حيث انفصلت كل قافلة تماما عن الأخرى . وهكذا أصبح دور الدليل المرشد لكل قافلة ذا أهمية حيوية فيما بعد لأنه لن توجد شواهد أو علامات أرضية يمكن من خلالها تمييز الموقع الذي تسير عبره القافلة خاصة وأن بحر الرمال المتحركة قادر دوما على إخفاء معالم المكان بحيث لا يقدر على تمييزه سوى الأشخاص الذين يخبرون الصحراء . انطلق المسافرون من جديد يعبرون الصحراء في جو ساخن خانق ثم توقفوا وسط أحد المواقع من الصحراء لا يرى فيه سوى الرمال التي تمتد حتى منتهى البصر نحو الأفق . لقد بدا منظر غروب الشمس في هذا المكان أشبه بطاووس يختال بريشه حيث يمتلئ الأفق بحزم من شعاع الشمس اللامع أخذت تنطفئ تدريجيا إلى أن اختفت تماما مع حلول الليل، حيث انقلبت الحرارة المرتفعة فجأة إلى برودة كان صعبا على الأجسام التي اعتادت الحرارة أن تتكيف سريعا معها .

بيد أن الخيام التي نصبوها سرعان ما داهمها دخان النيران الذي كانت له رائحة مميزة ـ تلك النيران التي أشعلها الجمالون والدليل المرشد ومصطفى رئيس القافلة ومعه رمضان وسليمة . كان طعام العشاء الذي تناولوه هذه المرة متميزا لأنه لم تكن هناك حركة ضخمة للمسافرين مثلما سبق، بل ساد نوع من الهدوء والأحاديث الحميمية التي تجاذبوا أطرافها حينا من الوقت ثم غادر الجمالون لكي ينالوا قسطا من النوم استعدادا لاستئناف السفر . أما الباقون فقد ظلوا يتحادثون خلال تناولهم للشاي، متطرقين إلى أبرز أحداث ذلك اليوم من السفر، والتخطيط لبرنامج سفر اليوم اللاحق .

بيد أن المكوث في هذا المكان المفتوح ليلا حيث تتلألأ النجوم فوق رؤوسهم كان يحمل معه احتمالات التعرض لمخاطر المجهول . اقترح مصطفى باعتباره رئيسا للقافلة أنه اعتبارا من تلك الليلة فصاعدا يتوجب توفير حراسة للقافلة طوال الليل بحيث يتناوب المسافرون على هذه الحراسة كل ساعتين لأنه من الممكن أن يحدث أي شيء غير متوقع في مثل هذا المكان . وهكذا تناوب الرجال على الحراسة كل ساعتين مزودين ببندقية قديمة ذات سبطانة طويلة ومعهم خنجر معقوف إلى جانب حربة صغيرة، وكل ذلك كان بهدف تجنب التعرض لمفاجآت غير سارة أثناء خلود زملائهم للنوم .

الفَصْلُ الثَّانِي

عصابات قطاع الطرق

في اليوم الرابع من وصول القافلة إلى الصحراء وقعت أول حادثة سيئة جدا كادت أن تؤدي إلى كارثة حقيقية لولا حصافة رئيس القافلة مصطفى . كان ذلك خلال الدورية الأخيرة من الحراسة الليلية التي كان مكلفا بها مصطفى نفسه والدليل المرشد للقافلة، حيث تعرضوا للهجوم من قبل إحدى عصابات قطاع الطرق ؛ بيد أنه لحسن الحظ كان الشخصان المكلفان بالحراسة أثناء الهجوم أكثر أعضاء القافلة خبرة ومعرفة بالحيل التي يلجأ اليها عادة وحوش الصحراء من عصابات قطاع الطرق .

كان مصطفى أول من انتبه إلى أن هناك شيئا ما غير طبيعي، وذلك بحكم أنه لديه موهبة طبيعية للرؤية في الظلام، حيث لاحظ شيئا ما يتحرك حول القافلة، لكنه لم يستطع تحديد طبيعة هذا الشيء بدقة، إلا أن تحرك هذا الشيء خلسة وبشكل هادئ يوحي بأن أمرا ما يدبر ضد القافلة . زحف مصطفى ببطء نحو الدليل المرشد للقافلة وأبلغه بما لاحظ حيث وجده هو الآخر قلقا لأنه رغم أنه لم ير شيئا في الظلام إلا أن خبرته الطويلة في السفر عبر الصحراء طورت لديه ما يشبه الحاسة السادسة التي ولدت لديه الشعور بأن خطرا ما يوشك أن يداهم . وهكذا شعر الاثنان بضرورة مضاعفة جهد الحراسة لمواجهة ما قد ينشأ من مخاطر .

أوعز مصطفى للدليل المرشد بأن يوقظ الرجال المسافرين ضمن القافلة، وأن يوزع عليهم الأسلحة ثم يتخذوا مواقعهم الدفاعية بأفضل ما يمكن وفي أسرع وقت من أجل توفير الحماية للقافلة ضد هؤلاء المهاجمين . اتجه الدليل المرشد في هدوء تام وقد أحنى ظهره داخلا أول خيمة قريبة حيث أيقظ أول ثلاثة رجال، وسلحهم بشكل جيد، ثم قام بإيقاظ الآخرين مبلغا إياهم بالخطر الذي قد ينجم إذا ما فاجأهم رجال العصابة بالهجوم . تسلح جميع الرجال في القافلة واختاروا أفضل المواقع الدفاعية لهم . اطمأن مصطفى عندما وجد جميع الرجال قد أكملوا استعداداتهم الدفاعية، ثم اتجه نحو رمضان وسليمة حيث أيقظهما وشرح لهما بإيجاز ما يجري ؛ بيد أن هاذين الشابين اللذين تعرضا في طفولتهما لمواقف مشابهة لم يتفاجأ أي منهما كثيرا بما يجري، لكن

مصطفي أحاطهما بكثير من أمتعة القافلة في شكل طوق مشيرا لهما بعدم الخروج من هذا المكان الذي يتمترسان فيه مهما كانت الأسباب . أمسكت سليمة بيد رمضان ثم طلبت من مصطفى أن يسلمها الحربة الصغيرة التي لديه قائلة له إنها تفضل الموت على أن تقع مرة أخرى في نفس الهم الذي وقعت فيه في الماضي، ولهذا فهي مستعدة لأن تنهي حياتها بنفسها باستخدام تلك الحربة إذا ما تطلب الموقف ذلك، وقد وافق مصطفى بقوة على تسليمها الحربة لأنه كان يعرف المصير المحزن الذي ستؤول اليه إذا ما نجح المهاجمون في تحقيق النصر على أعضاء القافلة .

خرج مصطفى من الخيمة زاحفا في هدوء تام مثلما دخل، ثم رفع رأسه قليلا ونظر حوله بغية تقييم الموقف حيث لاحظ أن القوة المهاجمة كانت مقسمة إلى مجموعتين أخذت كل واحدة منهما تتقدم نحوهم من اتجاه مختلف من أجل مفاجأة القافلة ووضع رجالها الذين كانوا يظنونهم من المسافرين العاديين بين فكي كماشة . لكن الحقيقة كانت مختلفة عن اعتقاد رجال العصابة لأن الجمالين الستة والدليل المرشد ومصطفى كانوا من المتمرسين في حرب العصابات ضد القوات الايطالية المحتلة لليبيا الذين يجيدون ببراعة مختلف أنواع القتال، وهؤلاء الثمانية تم اختيارهم في القافلة من بين أفضل عناصر المجاهدين .

كان المهاجمون حوالي عشرين شخصا في مجملهم، اقتربوا من القافلة زاحفين في هدوء من أجل الانقضاض بشراسة على المسافرين في غفلة منهم . أما مصطفى فقد قسم جماعته إلى مجموعتين : ثلاثة للحراسة مثلما كان الأمر بينما بقي هو وثلاثة آخرون في موقع مختلف . وبطبيعة الحال كان عدد رجال العصابة يفوق عدد أفراد القافلة، لكن خطة مصطفى ركزت على ضرورة مفاجأة المهاجمين قبل أن يبادروهم بالهجوم مع التركيز على استخدام أفضل أنواع القتال من أجل ضمان النصر عليهم .

وفجأة قام رجال القافلة المتمرسون على استخدام مختلف أنواع الأسلحة بإطلاق نار كثيف ومتزامن أودى بحياة ثمانية من رجال العصابة الذين اقتربوا كثيرا من القافلة حيث اختار كل واحد من رجال القافلة الهدف الذي يريد أن يطلق النار تجاهه . وهكذا كان عنصر المفاجأة في صالح رجال القافلة بدلا من أن يكون في صالح رجال العصابة حيث استمر رجال القافلة في إطلاق النار باتجاه المواقع التي تصدر منها الطلقات النارية، ثم قاموا بأقصى سرعة بتعبئة أسلحتهم بمزيد من الذخيرة، وغيروا مواقع تمركزهم وعاودوا إطلاق النار بكثافة نحو المواقع التي كان رجال العصابة يطلقون منها النار مما أدى إلى

إيقاع إصابات كثيرة في صفوف المهاجمين بين قتلى وجرحى.

أما عناصر القلة الباقية من المهاجمين فقد حاولوا الانسحاب بسرعة بعد أن أدركوا حجم الخسائر التي وقعت في صفوفهم اعتقادا منهم أن وضعهم القتالي ضعيف من البداية . وهكذا كان عنصر المفاجأة حاسما في تحقيق الانتصار على رجال العصابة الذين كان موقفهم القتالي أسوأ من ذلك بكثير ؛ ذلك أن مصطفى توقع بذكاء المكان الذي ترك فيه المهاجمون إبلهم، حيث ترك إثنين فقط من رجاله للدفاع عن القافلة، وسار هو والآخرون على عجل باتجاه أحد الكثبان الرملية الكبيرة جدا، حيث وجدوا خلفها هذه الأبل التي كانت تبدو وكأنها كتلة سوداء في ذلك الليل المظلم .

بقي مصطفى ورجاله مختفين قريبا من إبل رجال العصابة، حيث قدم الناجون من القتال من رجال العصابة بغية أخذ الإبل والهروب سريعا من موقع القتال . كان الناجون من بين العشرين رجلا من رجال العصابة مجرد سبعة أشخاص، إضافة إلى إثنين من الجرحى، وعندما اقتربوا من إبلهم ظانين أنهم ضمنوا النجاة تعرضوا لإطلاق نار كثيف عن قرب من قبل مصطفى ورجاله أفقدهم أي أمل في النجاة، حيث قتل أربعة منهم على الفور، ولم يستطع الباقون الدفاع عن أنفسهم عندما لاحظوا إطلاق النار الكثيف نحوهم من جهات عدة مما جعلهم يدركون أن نهايتهم قد أوشكت .

وهكذا كان النصر حليف رجال القافلة الذين لم تحدث في صفوفهم أية خسائر باستثناء جرح اثنين من الجمالين جروحا طفيفة . وعقب هذه المعركة قام مصطفى ورجاله بتمشيط المكان من أجل معرفة ما إذا كان هناك ناجون في صفوف المهاجمين حيث وجدوا ثلاثة عشر شخصا مبعثرين في مكان المعركة : أحد عشر قتيلا، وإثنين من الذين كانت جراحهم بليغة لدرجة أنهم لم يستطيعوا الانسحاب . أمر مصطفى رجاله بإحضار بعض الأنوار لكي يستكشفوا المكان بجلاء، حيث حضر معهم أيضا رمضان وسليمة مستبشرين بتجاوز القافلة لهذا الخطر، وليكتشفا أنه في مثل هذه الظروف، وفي مثل هذا الموقف ليس هناك شفقة ولا رحمة بين الناس ؛ فإما قاتل وإما مقتول، وإذا ما استطاع أحد النفاذ بجلده فالموت أهون له من الوقوع أسيرا في يد الأعداء .

وعندما أحضرت الأنوار أعاد مصطفى ملاحظة جثث القتلى، ثم اتجه نحو الجرحى الاثنين من أجل استجوابهم حول بواعث قيامهم بالهجوم على القافلة ؛ بيد أن كليهما رفضا الإدلاء بأية معلومات مؤثرين الصمت المطبق ؛ لكن مصطفى باعتباره المسئول عن القافلة وعن التصرف في مثل هذه الظروف، كان لابد له أن يكون حازما في أمره من أجل

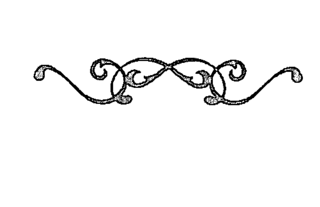
ضمان نجاح المهمة الصعبة للقافلة . لاحظ مصطفى أن الطرق السلمية لم تجد نفعا لجعل الجريحين من رجال العصابة يدليان بمعلومات، وحينها استل الحربة التي أعادتها اليه سليمة وغرس رأسها في عنق أحدهما آمرا له للمرة الأخيرة بالإجابة عن السئوال الذي طرحه عليه، ثم كرر السئوال مرة أخرى وعندما لم يتحدث هذا الرجل بشيء أجهز عليه مصطفى وجز عنقه بالحربة فاصلا رأسه عن جسده مما أحدث اندفاعا هائلا للدم من جسده .

قام مصطفى بعد ذلك بغرس رأس الحربة في رقبة الجريح الثاني من رجال العصابة لكي يستفيد من الصدمة النفسية للموقف في إرغامه على الحديث . وبالفعل عندما رأى بأم عينيه المصير المأساوي لزميله على يد من كان يظنهم من المسافرين العاديين سارع بالحديث وهو يرتعد خوفا من أن يحدث له ما حدث لزميله قائلا إنه مستعد للإدلاء بكل المعلومات شريطة أن يعده مصطفى بعدم قتله . وعندما وافق مصطفى على هذا الشرط انطلق رجل العصابة يورد سردا كاملا للمعلومات قائلا : مجموعتنا كبيرة جدا، إلا أن أحد جواسيسنا الذي استطلع طريق القافلة لاحظ أنها تتكون من قافلتين مشت كل واحدة منهما في اتجاه مختلف، ولهذا قسمنا انفسنا إلى مجموعتين من أجل القضاء عليكم في الحال . وبالنظر إلى أننا عرفنا بالتفصيل عدد أفراد كل واحدة من القافلتين، فإن أغلب رجالنا ذهبوا باتجاه القافلة الأخرى، ونحن جئنا إلى هنا من أجل مهاجمتكم والقضاء عليكم حيث كانت خطتنا تقضي بأن يلتقي رجالنا المهاجمون للقافلتين بعد ثلاثة أيام في مكان محدد متفق عليه سلفا . هذا كل ما لدي، ولذا أرجو أن توفوا بعهدكم لي . وعلى إثر ذلك رد مصطفى بكبرياء قائلا : نحن أصحاب كلمة، ولذا سنتركك هنا لقضاء الله، وإذا كان جل جلاله يريد لك أن تعيش، فنحن لن نعترض على إرادة الله . وخلال ذلك كان الفجر قد طلع حيث لا حاجة للأنوار التي جلبها رجال مصطفى، لأن حزمة من الضياء اللامع قد أعلنت عن وجودها من ناحية الشرق، ثم ما لبثت الشمس أن سطعت بنورها الذي ملأ الأفق لكي يهزم نهائيا جحافل الظلام التي سادت طوال الليل .

بذا دقت ساعة السفر من جديد لكي تشق تلك القافلة الصغيرة طريقها وسط الصحراء، لكن قبل ذلك كان لابد من تناول إفطار دسم لكي يعين رجال القافلة على تحمل مشقة الرحلة، خاصة عقب تلك المعركة الطاحنة التي خاضها رجال القافلة بنجاح مستحق . بقي مصطفى حينا من الوقت يتفكر في ما قاله أحد أفراد العصابة الجريح، حيث كان هذا الموضوع يسيطر على فكره طيلة الوقت الذي كانوا يتناولون فيه الشاي،

ثم اتجه بالحديث نحو الدليل المرشد لكي يبلغه بهذا الموضوع الذي يشغله حيث أنه كان يعتقد أن المجموعة الكبيرة الثانية من عصابة قطاع الطرق سيبحثون عن رفاقهم في المجموعة الأولى عندما لا يجدونهم في المكان الذي اتفقوا على اللقاء فيه، وعندما يعلمون أنهم قتلوا في المعركة مع رجال القافلة التي يرأسها مصطفى فإنهم سيلاحقون القافلة بغرض القصاص لمقتل زملائهم وتعويض الهزيمة التي لحقت بهم . ولما كانوا يعرفون من خلال جواسيسهم خط سير القافلة فإنهم سيحاولون بلا شك اللحاق بها وإبادة رجالها وبعد التفكير مليا في هذه المسألة، ورغم أن الأفكار التي دارت بذهنه كانت مجرد تخمينات إلا أنه قرر تغيير خط سير الرحلة من أجل تبديد الشكوك حول أية مخاطر محتملة، وفي كل الأحوال فإن القافلة ستصل إلى هدفها، ولكن من طريق آخر مختلف تماما عن السابق . استمع الدليل المرشد لآراء مصطفى التي أيدها بشكل كامل لأنه أيضا شخص حذر وذو خبرة طويلة ومعرفة بعقلية رجال العصابات . وهكذا أعطى الدليل المرشد إشارة الانطلاق للقافلة لكي تسير في الطريق الجديد الذي سيكون أطول نسبيا من الطريق السابق إلا أنه أكثر أمانا وبهذا القرار استطاعت القافلة خداع عصابة قطاع الطرق وتجنيب نفسها احتمال تعرضها لهجوم آخر .

كان تقدير مصطفى أن رجل العصابة الذي عاهدوه على الإبقاء على حياته مقابل إعطائهم المعلومات لن تكتب له الحياة لأنه ليس لديه مقومات البقاء حيا خاصة وأن حرارة الشمس عالية جدا، وهو ليس لديه ما يقيه منها، وسيتعرض للعطش، ولهذا لن يكون بمقدوره أن يعيش لأكثر من يوم واحد أخذا في الاعتبار أيضا جروحه البليغة التي تجعله أقل قدرة على المقاومة . وهكذا اتخذت القافلة نفس طريقها السابق لبضعة كيلو مترات، وبعد ساعتين من السفر قام الدليل المرشد بتغيير خط سير القافلة كي يجعل من المستحيل على رجال العصابات تعقب آثارهم، وسارت القافلة في طريق دائري تسبب في إطالة مدة السفر لمدة أسبوع على الأقل، ولكنه في المقابل كان بديلا مهما أسهم في تحقيق سلامة أفراد القافلة .



الفصل الثالث

الإعصار

استمرت القافلة في رحلتها عبر الصحراء لمدة أسبوع كابدت خلالها بصبر شديد حر جهنم وكافة مشاكل الصحراء الأخرى حيث توفر لديها الماء والمواد الغذائية الكافية، إضافة إلى أن القافلة أصبح لديها عشرون بعيرا آخر بكل ما تحمله من أمتعة وهي التي أخذت غنيمة بعد القضاء على عصابة قطاع الطرق . وفي اليوم السابع وصلت القافلة إلى هضبة صغيرة من الأحجار الرملية كانت تبدو بارزة وسط بحر الرمال لأنها كانت تعلو باقي الكثبان الرملية بحوالي مائة متر . كان هذا المكان يبدو غير مطروق، وليس مؤهلا للإقامة به خاصة وأنه لا يوجد به بئر للماء الذي يعتبر بيت القصيد في كل رحلة عبر الصحراء . بيد أن الدليل المرشد أكد أن هذا المكان يعتبر مثاليا للإقامة به بضعة أيام خاصة وأن القافلة لديها كميات كافية من الماء والمواد الغذائية لأن هذه الهضبة الصغيرة تشكل حماية للقافلة حيث يستطيع أعضاؤها الاستراحة هم وبعرانهم التي أنهكتها أيام من السفر المتواصل .

وهكذا ضربوا خيامهم في هذا المكان القاحل تحميهم تلك الهضبة من عنف الرياح المثيرة للأتربة التي تشكل في كثير من الأحيان عنصر خطر كامن يترصد المسافرين عبر الصحراء . إنها رياح القبلي الشهيرة، وهي رياح عنيفة قد تتحول أحيانا إلى إعصار ترابي يودي بحياة الكثيرين . قام أعضاء القافلة بنحر أحد الجمال التي غنمت من رجال العصابة من أجل توفير اللحم الطازج، وقد كان من حسن حظ القافلة أن بعران العصابة كانت تحمل على ظهرها مواد غذائية وماء . اقامت القافلة ثلاثة أيام في هذا المكان كانت كافية لاستعادة نشاطها بعد الرحلة الشاقة التي قطعوها . وفي اليوم الرابع كان مقررا أن تستأنف القافلة سيرها لكن مصطفى كانت لديه شكوك حول مدى ملائمة الجو لمواصلة المسير . ورغم أن الجميع كانوا جاهزين للانطلاق مع فجر اليوم الرابع إلا أن مصطفى طلب مشورة الدليل المرشد والجمالين الستة وكلهم خبراء في شئون الصحراء، حيث اتفقوا جميعا على أفضلية الانتظار حتى اليوم اللاحق من أجل رصد الأوضاع الجوية بعد انقضاء الفترة الحالية التي كانت غير ملائمة للسفر .

وحين بدأت الشمس تطلع صباح ذلك اليوم لم يكن نورها ساطعا كباقي الأيام، بل بدت وكأنها كتلة من وهج أحمر . وكما توقع رجال القافلة بدأت الرياح العاتية تهب في اندفاعات متوالية محدثة صريرا مما يشير إلى أن عاصفة قوية تسود المكان وقد تستمر على نفس الدرجة من العنف إلا أنها في حالة تحولها إلى إعصار فإن الآثار الناجمة عن ذلك ستكون مأساوية بالنسبة لجميع الأشخاص الذين لا تتوفر لهم حماية كافية منه . ولهذا قرر جميع أعضاء القافلة اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة لضمان عدم الوقوع ضحية لهذه العاصفة، حيث بدأوا أولا بتأمين المكان الذي تتواجد به الإبل كي لا تتأذى أو تهرب، ثم اختاروا مكانا ممتازا تودع فيه المياه والمواد الغذائية، وهو عبارة عن كهف يوجد في أحد جوانب تلك الهضبة الصغيرة من الأحجار الرملية . ولحسن الحظ يقع هذا الكهف في ظل الرياح التي تهب من الاتجاه المقابل، وكانت مساحته ملائمة أي حوالي أربعة أمتار عرضا وارتفاع يقدر بمترين ونصف وتسعة أمتار طولا، ثم قام رجال القافلة بنصب الخيام الثلاث أمام الكهف كي تكون محمية من عصف الرياح ثم قاموا بتأمين أطناب الخيام وأوتادها كي لا تقتلعها الرياح القوية رغم أنها إلى حد كبير تقع في حماية أحد الجوانب البارزة للهضبة .

لم يكن رجال القافلة قد أكملوا استعداداتهم بعد عندما بدأت أول هبات ذلك الإعصار الرملي تحدث صريخا هائلا وكأنها وحش جائع يتطلع إلى تدمير ما يقف في طريقه من أجل التهام جثث ضحاياه . لقد كانت توقعات مصطفى ورجاله صائبة حيث أنه بعد مضي بضع دقائق ارتفعت حدة تلك العاصفة من الرياح الترابية إلى درجة مفزعة تهدد كل من لا يحتمي منها بشكل جيد بسلسلة متصلة من الكوارث الطبيعية . وبعد ساعة كان صفير الرياح المحملة بالرمال الصحراوية قد وصل إلى درجة من القوة جعلت جميع أعضاء القافلة يعيشون حالة من الهلع رغم كل إجراءات الحماية التي اتخذوها لأن ما يوجد خارج ذلك الكهف كان جحيما حقيقيا لإعصار ذي طنين هائل جعل من غير الممكن أن يستمع رجال مصطفى لحديث بعضهم البعض حتى ولو صرخوا بالكلمات صراخا، ولذا سادت لغة الإشارة بينهم للحديث عن الرعب والهلع الذي أحدثه ذلك الطوفان من الرياح الترابية العاصفة .

بيد أن المكان الذي آووا اليه كان محميا إلى درجة كبيرة، ولهذا كانوا مطمئنين بعض الشيء على السلامة الشخصية لهم لكن الخوف الحقيقي كان بشأن الإبل التي تتعرض في الخارج لهذه العاصفة العنيفة والتي من المحتمل أنها قد تضطر للهروب وهو ما يعني

الكارثة بالنسبة لهم جميعا، لكن العزاء الوحيد لديهم كان متمثلا في أن المكان بمجمله يقع في حماية تلك الهضبة العالية من الأحجار الترابية .

أما رمضان وسليمة فقد نصبا بمساعدة الرجال الآخرين خيمة لهما في مدخل الكهف تماما، وهكذا استطاعا أن يوفرا الحماية لهما ذلك أن سليمة كانت خائفة جدا، وكان وجهها مصفرا وهي جالسة تمسك بيد رمضان من أجل أن تمنح لنفسها بعض الثقة . أراد رمضان أن يبلغها بعض الكلمات من أجل بث روح الطمأنينة لديها رغم أنه أيضا انتابه بعض الخوف إلا أن ذلك لم يكن ممكنا لأنه كان من الصعب أن يستمع أي إنسان إلى كلام إنسان آخر بسبب الصفير المدوي لتلك الرياح المزمجرة . وفي ذلك الحين كان مصطفى يتولى تفقد الأمور وتنظيمها، حيث اطلع على وضع الحيوانات ثم أبلغ رجاله باستخدام خليط من الكلام والإشارة أن المكان الذي يتواجدون فيه يعتبر آمنا حيث أوقد نارا من أجل إعداد الشاي للجميع وهو ما أعطى الانطباع للباقين، وخاصة رمضان وسليمة، بأن الوضع مطمئن وعليهم أن يهدؤا من روعهم، ثم أقبل الرجال واحدا تلو الآخر يجلسون متحلقين حول النار التي أوقدها مصطفى استعدادا لشرب الشاي المنعش حيث كان تواجدهم جميعا مبعثا للاطمئنان ونبذ القلق الذي كاد أن يتبدد تماما رغم أنه لم يكن بالإمكان أن يدور أي حديث بينهم بفعل صرير الرياح العاتية التي تجعل من غير الممكن سماع ما يقال أو فهمه . وبعد شرب الشاي استلقوا في الخيام ؛ إذ أنه لا يمكن لهم فعل أي شيء آخر وحاولوا أن يناموا، لكن عصف الرياح كان يتزايد قوة شيئا فشيئا طول اليوم . وحينما أقبل الليل لم تهدأ الرياح بل ازدادت قوتها ضراوة إلى أن بلغت أوجها مما جعل رجال القافلة ينظر كل منهم إلى الآخر وهم مرتعبون إزاء ما يجري .

وعلى حوالي الساعة التاسعة ليلا حاول مصطفى أن يخرج من الخيمة لكي يلقي نظرة على الحيوانات التي لم يكن يعرف عنها شيئا منذ بداية العاصفة، إلا أنه عاد بسرعة دون أن يراها لأن شدة الرياح والرمال التي تتناثر في الهواء على إثرها حالت دون ذلك رغم محاولته الخروج زحفا . لقد كان بالفعل جحيما ذا زفير لا يمكن معه للإنسان أن يرفع رأسه فوق مستوى سطح الأرض، ولا يستطيع أن يفتح عينيه، بل لا يستطيع حتى الصمود واقفا وسط تلك الرياح العاتية التي تحمل ما شاء الله من الرمال التي تقذف بها على كل ما يعترض طريقها . وفي خلال الدقائق القليلة التي كان خلالها مصطفى يحاول الخروج امتلأ جسده بالرمال مما جعله يضحي بقليل من الماء من أجل تنظيف جسمه مما علق به من تراب، حيث كان وجهه على الخصوص قد تلبد بطبقة ترابية وبدا وكأنه يلبس قناعا

يجعل الآخرين غير قادرين على معرفة هويته . وهكذا استسلم مصطفى للأمر الواقع قائلا بصوت عال : الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله . وعلى الرغم من أن زملاءه لم يسمعوا ما قاله إلا أنهم توقعوا أن يتلفظ بشيء من هذا القبيل ورددوا هم كذلك قائلين : توكلنا على الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد كان رجال القافلة في مأمن من هذه العاصفة ؛ بيد أن أمنهم مرتبط بأمن بعرانهم لأنه إذا حدث أن رُدمت الإبل بالتراب أو هربت من العاصفة، فإن وضعهم سيكون حرجا ومليئا بالمخاطر إن لم يكن قاتلا . أمضوا يوما آخر في هذا المكان لم يتناولوا خلاله أي طعام لأن الخوف الذي تسرب إلى نفوسهم كان شديدا، وفي الاجمال أمضوا ثلاثة أيام وثلاث ليال يعانون ويلات تلك العاصفة القاتلة دون أن يتمكنوا من القيام بأي عمل، وكانوا جميعا في وضع كئيب لأنهم كانوا يتوقعون دائما أسوأ الأمور .

أراد رمضان أن يتحدث مع سليمة لأنها كانت قلقة جدا، نادمة على أنها شجعت رمضان على أن يسير في هذه الرحلة . وفي اليوم الثالث من إقامتهم في هذا المكان كان التوتر النفسي شديدا لديهم وارتأوا أنه لابد من الخروج لتفقد وضع الإبل والقيام بأية أعمال تساعد هذه الحيوانات التي ترتبط حياتها بحياتهم على الخروج بسلام من هذه العاصفة . ولحسن الحظ فإنه بعد منتصف الليل خفت حدة هذه العاصفة بشكل ملحوظ، وبعد مرور حوالي ساعتين تأكد لهم أن الخطر كاد أن يزول، وبذا خفت حدة التوتر خلال الساعات الأخيرة من الليل مما دفعهم إلى شرب الشاي وتجاذب أطراف الحديث حول ما يمكن أن يكون قد حدث للإبل خارج المكان الذي كانوا فيه .

لقد كان التوتر شديدا لدى هؤلاء الأشخاص طيلة الأيام الثلاثة الماضية لأنهم قوم تعودوا على العيش في الأماكن المفتوحة، وحين اضطروا للبقاء في مكان مغلق كان توترهم النفسي شديدا . ومع حلول الفجر خرج جميع هؤلاء الأشخاص من الخيام بما في ذلك رمضان وسليمة لأنه لم يعد هناك خطر يواجههم، حيث وجدوا أن أكثر من نصف الإبل لا تزال رابضة في مكانها لكن الباقي منها اختفت هربا من هول العاصفة . بيد أنهم اكتشفوا أنهم على كل حال لا يزال لديهم العدد الكافي من الإبل لمواصلة رحلتهم وذلك بسبب استحواذهم على إبل عصابة قطاع الطرق . وعلى الفور قاموا بتقديم الأعلاف للإبل وكذلك الماء الذي كانوا يحتفظون به في قرب خاصة مصنوعة من جلد الماعز، وهي ولله الحمد متوفرة لديهم بشكل كاف .

وبالنظر إلى المشقة التي عاشوها طيلة الثلاثة الأيام الماضية هم وإبلهم قرروا عدم

السفر في هذا اليوم والخلود إلى الراحة للتخلص من التوتر الذي كان قد انتابهم، ولا بأس من القيام ببعض الاستعدادات اللازمة لمواصلة الرحلة من جديد . وعند بروز شفق اليوم الجديد معلنا انتصاره على جيوش الظلام أعطى مصطفى أوامره التي طال انتظارها للقافلة بالتحرك، حيث سارت عبر الكثبان الرملية وكأنها أفعى طويلة تتلوى بشكل يعطي الانطباع الخاطئ ببراءتها . لقد كانوا جميعا مسرورين لاستطاعتهم تجاوز محنة العاصفة، ومرت الأيام اللاحقة من السفر دون أحداث ذات أهمية تذكر فيما عدا الحر الشديد الذي كان يلفح الأجسام عند النهار . وبعد مرور عشرة أيام رتيبة خانقة، وبعد أن أصبح احتياطيهم من الماء يقل بشكل ملحوظ أفاد الدليل المرشد للقافلة بالخبر المنتظر المشهود وهو أن القافلة ستصل في اليوم التالي إلى وجهتها النهائية وذلك بمشيئة الله تعالى .

الفصل الرابع

بائع الأسلحة

كان آخر مخيم استراحة للقافلة قد أقيم في مكان متسع حيث كان الجميع في حالة من المزاج الرائق جدا ما عدا رمضان وسليمة اللذين كانا منزعجين، ولربما كان ذلك يرجع إلى كونهما شابين صغيري السن لم يتمرسا في تجارب حياة الترحال الصحراوية بشكل كافٍ بعد . بيد أن الحقيقة أن الآخرين أيضا كانوا قد عانوا من جراء العاصفة رغم أنهم من ذوي التجارب الثرية في الترحال عبر الطرق الصحراوية . وعندما سيطر نور الفجر على الظلام كانت القافلة قد باشرت السير حثيثا في آخر مرحلة من مراحل سفرها نحو الهدف الذي تقصده . كما أن الجمال كانت تبدو أنها تسير بشكل أفضل مما كانت عليه . ولربما كان لديها شعور ما بأنها على وشك الوصول . أما أعضاء القافلة فقد استبشروا خيرا بقرب الوصول واستشعرت الإبل ذلك أيضا بحكم خبرتها في السير عبر الصحراء .

وخلال الساعات الأولى من المساء بانت من على بعد بعض أشجار النخيل، ثم أصبح يُرى أيضا بعض الأكواخ والزرائب البيضاء المصنوعة من الطين . كانت بيوتا منخفضة الارتفاع بشكل ملحوظ ويبدو عليها كثير من البؤس ربما بفعل الحرارة الشديدة التي تلفح المكان حيث بدت وكأنها تنحني خجلا وخضوعا لشعاع الشمس الساطعة، كما كان يرى عدد قليل من الأشخاص وسط ذلك التجمع السكني البائس، أما أشجار النخيل المتناثرة فلم تستطع أن تضفي على هذا المكان أي بعد إيجابي .

وبمجرد أن وصلت القافلة شرع المسافرون في نصب خيامهم في أحد أطراف هذا المكان بالقرب من بئر به ماء قليل، لكن هذا البئر إلى جانب بئرين مماثلين يقعان على الطرف الآخر من المكان يمثلون المبرر الذي حدا بالعدد القليل من السكان إلى الإقامة في هذا المكان البائس ..وعندما تم ترتيب كل شيء بخصوص الخيام اتجه مصطفى نحو التجمع السكني من أجل الاتصال بالشخص الذي تم معه ترتيب اللقاء بشكل مسبق . وعندما وصل إلى أحد الأكواخ وسط هذا التجمع السكني أخذ يطرق بقوة باب هذا الكوخ الذي كان نصفه مخلوعا، كما قام في نفس الوقت بمناداة صاحب الكوخ بصوت عال، حيث أجابه شخص ما بشكل بشوش، مناديا له باسمه قائلا : مصطفى ! اللهم صل على

النبي . لقد كنت منشغلا جدا بشأنك . فتح الرجل الباب حيث بدا في مظهر شخص في الخمسينات من عمره، مستقيم القد، نحيفا وله ملامح دقيقة وملابس تميل إلى الاخضرار، له قامة طويلة وكان أسلوب تعامله بسيطا وكريما حيث استطرد يقول : لقد كنت منشغلا جدا بشأنك لأنني علمت من المسافرين في قوافل أخرى أن العاصفة كانت رهيبة جدا، بل كانت كارثة بالنسبة لبعض المسافرين وكانت موتا بالنسبة لبعضهم الآخر . حيث أجابه مصطفى قائلا : نحن أيضا كان يمكن لنا أن نلاقي حتفنا لولا رعاية الله لنا . ثم أخبره بإيجاز كيف استطاعت قافلته أن تنجو من خطر العاصفة بأعجوبة، ولكنه لم يفصح له عن المكان الذي تواجدت به القافلة أثناء العاصفة، ولا كيف استطاعت أن تنقذ نفسها من هول تلك العاصفة .

دخل مصطفى إلى البيت حيث حيا الموجودين من أصدقائه مثلما حيوه هم كذلك لأنه كانت بينه وبينهم معزة واضحة، وأعقب التحية والسلام شرب الشاي باعتباره مظهرا بروتوكوليا مبدئيا قبل الدخول في صلب موضوع النقاش، حيث بدأوا بعد لحظات في تناول الموضوع الذي كان الدافع لقدومهم إلى هذا المكان . ولأن مصطفى كان يعرف الشخص الذي يتحدث معه فلم يشأ أن يطيل الكلام قائلا لصديقه تاجر الأسلحة إنه استطاع توفير مبلغ مليون ليرة إيطالية، وأنه يثق بقدرة صديقه التاجر على شراء الأسلحة ذات المعايير الجيدة، وكان رد التاجر أن مليون ليرة مبلغ معتبر، ولذا فإنه خلال ثلاثة أيام سوف يحضر له شخصيا كميات الأسلحة المشتراة بهذا المبلغ، كما أنه سيحضر له مواد غذائية كافية لتوفير التموين أثناء عودة القافلة . ودع الرجلان كل منهما الآخر بكل مودة حيث بدا كلاهما راضيا عن الصفقة التي أبرمت للتو، رجع مصطفى بعد ذلك إلى المخيم وأخبر رمضان بكل تفاصيل صفقة الأسلحة التي انتهى من عقدها منذ قليل مع تاجر الأسلحة .

وأخيرا وبعد مضي وقت طويل أصبح بإمكان الشابين رمضان وسليمة وكذلك باقي أفراد القافلة استعمال المواد الغذائية والماء دون تقشف وكانت سليمة أول من انتهز مثل هذه الفرصة للاستحمام جيدا دونما حاجة للاقتصاد في الماء ثم حذا رمضان حذوها، أما باقي رجال القافلة، وهم رجال من حديد ممن خبروا الصحراء وخبرتهم فقد كان استهلاكهم للماء بغرض الاستحمام معتدلا دائما . وهكذا أمضى الجميع هذه الأيام لغرض النقاهة بعد أن عانوا الأمرين أثناء هبوب العاصفة، ولم يقوموا بأي أعمال تذكر فيما عدا الأعمال الروتينية المتعلقة بشئون المخيم الذي يقيمون فيه . كما أن القرية

الصغيرة التي كانوا بها لا يوجد بها ما يستحق المشاهدة مما جعل حياتهم بها محصورة في أعمال المخيم دونما تغيير .

وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم الثاني حضر تاجر السلاح باحثا عن مصطفى الذي بمجرد أن سمعه يناديه ركض لاستقباله مرحبا به، وبعد عبارات الترحيب التقليدية اصطحبه معه إلى خيمة رمضان وأخذ يناديه من أجل أن يعرفه على صديقه التاجر، ثم قال : هذا هو جبريل تاجر وصديق لي منذ وقت طويل، وهذا هو رمضان الذي حباه الله بالحكمة وأسبغ عليه الخير والحب لوطنه ليبيا . لكن جبريل استغرب أن يُقحم شاب صغير مثل رمضان في شئون تجارة خطيرة كتجارة الأسلحة، كما أن مدى استغرابه قد ازداد عندما قيل له أن رمضان أحضر كل المبلغ اللازم لشراء الأسلحة وتغطية نفقات سفر القافلة ولذلك تساءل جبريل قائلا : كيف يمكن لشاب صغير السن أن يكون لديه مبلغ كبير بهذا الحجم ؟ وأجابه مصطفى قائلا : أن حكمة الله تكمن تحديدا في هذا الأمر ذلك أن الله أسبغ عليه القدرة على جمع هذا المبلغ الكبير بينما نحن الرجال الكبار لم نستطع جمع مثله، ولم تتوفر لدينا إمكانية القيام بذلك .

كانت سليمة تستمع لكل الحديث الذي دار بين الرجال الثلاثة دون أن تتدخل بأي كلام وفق ما تقتضيه الثقافة الاجتماعية الليبية، لكنها باعتبارها مضيفة جيدة فقد سارعت إلى إعداد طعام العشاء، وبعد العشاء حان موعد شرب الشاي ومعه بدأ الحديث في شئون هذه الصفقة، حيث عرض جبريل قائمة المشتريات التي سوف يسلمها لهم خلال اليوم اللاحق . اشتملت هذه القائمة على قنابل يدوية وبنادق ورشاشات عادية ورشاشات ثقيلة وبنادق أوتوماتيكية وكميات هائلة من الذخيرة .

وفي اليوم التالي عاد جبريل ومعه عدد من الجمال المحملة بالسلع المشتراة، وكل جمل كان يقوده جمال حيث استطاع التاجر أن يوفر كل الأسلحة والذخيرة التي طلبها مصطفى . وعندما استلم التاجر قيمة الصفقة من يد رمضان أخرج من جيبه مسدسا أوتوماتيكيا ومعه الطلقات الست وأعطاه لرمضان من أجل أن يحمله معه بشكل دائم لمواجهة أية ظروف طارئة لأن المسدس سلاح خفيف وعملي، وهكذا لم يبق أمام التاجر إلا أن ودع الجميع بالتحية المعتادة : السلام عليكم، ثم أعطى مصطفى أوامره بأن تكون عودة القافلة صباح اليوم التالي حيث بمجرد أن لاح نور النهار قاهرا ظلام الليل كانت القافلة قد ابتعدت مسافة لا بأس بها عن تلك القرية الصغيرة في طريق العودة عبر هذه الرحلة الشاقة .

كان رمضان وسليمة يسيران دوما بجانب بعضهما البعض، وقد سرهما أن القافلة قطعت رحلة الذهاب بسلام رغم الصعاب والمخاطر التي واجهتها . وفي أول ليلة من رحلة الإياب قام مصطفى عقب تناول طعام العشاء بترتيب مناوبة الحراسة مثلما كان في السابق، وكان الفارق الرئيسي أن رجال الحراسة تم تزويدهم ببنادق ورشاشات بدلا من الأسلحة التقليدية القديمة ذات الطلقة الواحدة التي كانوا يستعلمونها في السابق والتي لم تكن ذات فعالية كبيرة رغم دقتها في التصويب خاصة عندما يحتاج الموقف إلى إطلاق نار متواصل عن قرب مثلما يحدث في حالات التعرض لهجوم مفاجئ من قبل قوة كبيرة معادية . وهكذا تم تعويض ما كانوا يحتاجونه سابقا من خلال الأسلحة الأوتوماتيكية التي تعطيهم قدرة أكبر على مواجهة الأخطار المحدقة في تلك الأماكن التي تصبح فيها الأشياء المستحيلة الوقوع ممكنة التحقق .

ومع بداية وقت الحراسة تم فتح علبة من القنابل اليدوية من أجل أن تكون تحت تصرف الحراس حيث كان شعار مصطفى الذي يردده دائما : أفضل لك أن تكون حذرا من أن تأسى على ما أصابك، ولهذا اتخذ كافة الاحتياطات الممكنة في كل ظرف من أجل تفادي حصول كوارث سببها الإهمال . لقد مرت خمسة أيام من رحلة العودة عندما حدث ذات مساء قبل حوالي ساعة واحدة من إقامة القافلة لمخيمها أن لاحظ مصطفى وميض شيء ما يتحرك بين إثنين من الكثبان الرملية كان يبدو جملا، لكن مصطفى بسبب بعد المسافة وسرعة الحركة لم يستطع أن يتبين ما إذا كان الجمل يحمل راكبا على ظهره أم لا، ولهذا توجه بسرعة نحو الدليل المرشد لكي يبلغه بالأمر ثم عاد وأبلغ الباقين أن القافلة لن تتوقف تلك الليلة بل ستواصل المسير إلى أن يتم التأكد أن احتمالات حدوث الخطر المحدق قد زالت . وبعد فترة من التدبر غيرت القافلة من خط سيرها على أمل أن الرياح سوف تخفي آثار أقدام الإبل من على الرمال كي يتم خداع أعدائهم المتربصين بهم . واصلت القافلة سيرها طوال الليل في طريق مظلم وصعب دونما توقف، وفي اليوم التالي لم يتناول أعضاء القافلة أي طعام سوى بعض التمر والماء حيث كان ذلك اختبارا عمليا لأفراد القافلة على مدى جلدهم وللإبل على مدى قدرتها على التحمل .

وعند حلول الليل أخذوا يبحثون عن مكان يتوفر به قدر كافٍ من الحماية في حالة تعرض القافلة لهجوم من قبل عصابات قطاع الطرق . نصبوا خيامهم الثلاث قريبا من بعضها البعض على هيئة مثلث من أجل ضمان إمكانية الدفاع الجيد عنها، كما أمر مصطفى رجاله بأن يملؤا أكياسا بالرمل لوضعها على رأس كل جانب من جوانب المثلث،

وأن يتمركز واحد من الرجال على كل واحد من هذه المواقع الثلاثة التي تم إعدادها على شكل خندق بدائي . وهكذا أمضوا ليلهم دون أن يجرؤ أحد منهم على إشعال النار حتى لا يعطوا الفرصة لأعدائهم لاكتشاف مكان تواجدهم . مرت الساعات الأولى من الليل دون مشاكل وهو ما ولد ارتياحا لدى أعضاء القافلة . نام مصطفى ثلاث ساعات فقط، لكنه بحكم قدرته الفائقة على التحمل استيقظ وهو يشعر أن جسده قد نال القسط الكافي من الراحة، خاصة وأن القلق الذي انتابه باعتباره المسئول الأول عن القافلة جعله يصحو من النوم بسرعة ويتولى مراقبة الموقف شخصيا في ضوء قدرته الاستثنائية على الرؤية في الظلام التي تجعله أفضل من يتابع تطور الأمور في تلك الليلة المظلمة جدا والتي لا يوجد بها قمر . زحف مصطفى بهدوء وكأنه أفعى ضخمة متجها نحو الحراس لرفع معنوياتهم والتأكيد على قيامهم بواجباتهم بشكل أمثل، وضرورة إبلاغه بأية شكوك أو هواجس عن أي شيء يرونه غير طبيعي .

لم يتبق على حلول الفجر سوى حوالي ساعة وبضع دقائق عندما لاحظ مصطفى أن شيئا ما غير طبيعي كان يحوم حول المخيم في ذلك الظلام الدامس، ولربما كان شيئا ما أكثر إظلاما يتحرك أو شخصا ما يزحف باتجاه المخيم أو صوت اجترار الإبل لطعامها، ولكنه كان مختلفا عن صوت اجترار الإبل الذي يكون دائما هادئا، أو أن ذلك كله كان مجرد حدس من مصطفى حول ما يمكن أن يحدث، لكن الأكيد هو أن كل هذه الاحتمالات أزعجت مصطفى وجعلته يستعد لمواجهة العصابات الشريرة لقطاع الطرق . نبه مصطفى رجاله إلى الخطر الذي يوشك أن يداهم، وخلال دقائق قليلة كانوا جميعا جاهزين للدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم الغادر . لقد كان الأسلوب الوحيد الذي يستطيع به العدو هزيمتهم يتمثل في عنصر المفاجأة، بيد أنه إذا ما تم استبعاد هذا العنصر، فإنه من الممكن تحقيق النصر على المهاجمين من خلال الثبات في القتال وتوفر الأسلحة الكافية لهم .

بدأت الظلال الخفيفة وغير الواضحة للمهاجمين تظهر شيئا فشيئا بشكل أكثر وضوحا، وبعد بضع دقائق زادت كمياتها بشكل كبير، ولذا كانت المعركة التي توشك أن تندلع تبدو أكثر صعوبة بالنسبة لرجال القافلة، ومن أجل تحقيق النصر فيها كان لابد من توفر الدهاء وبرودة الأعصاب والأسلحة الكافية، وهذه مسألة محسومة بالنسبة لهم . وبالنظر إلى أن العناصر المهاجمة كانت تتحرك ببطء ملحوظ فقد أتاح ذلك لمصطفى الوقت اللازم لكي يجعل رجاله يتمركزون بشكل جيد وأن يتسلحوا بالبنادق والرشاشات مع توفر كميات كافية من الذخيرة، إضافة إلى عدد كافٍ من القنابل اليدوية، حيث قام

كل واحد من رجال مصطفى بشجاعة وثبات بالإمساك بقنبلتين يدويتين جاهزتين لنزع فتيلهما، إضافة إلى تجهيز اثنتين إحتياطيتين بالقرب منه لاستعمالها في المرحلة الثانية من الهجوم، وقد كان هذا استعدادا قتاليا عاليا واستثنائيا اتسم به رجال مصطفى .

وعندما لاحظ مصطفى أن ظلال الأشخاص المهاجمين أصبحت على بعد حوالي عشرة أمتار زمجر بصوت عال، ومع زمجرته اشتعل جحيم النيران التي كان يطلقها رجاله من أسلحتهم مبددا السكون الذي كان يسود الصحراء حيث تم خلال أربع ثوان رمي اثنتين وثلاثين قنبلة يدوية على المهاجمين من قبل العدد البسيط من رجال القافلة ومن خلال الإضاءة التي أحدثها انفجار القنابل اليدوية بدا عدد كبير جدا من الأشخاص يصرخون في ذهول جراء هول المفاجأة التي تعرضوا لها، إلا أنهم بدلا من أن يهربوا أرادوا التحلي بقيم الشجاعة واستمروا في القتال متمسكين بأمل يائس في أن يغيروا مجرى المعركة لمصلحتهم وذلك في ضوء تفوقهم العددي على المدافعين، لكنهم لم يحسبوا حساب الأسلحة الأوتوماتيكية لدى أعدائهم لأن جهلهم بهذه الأسلحة كلفهم خسائر كبيرة حيث كان رجال مصطفى أثناء توقف المهاجمين عن القتال للتجهيز لهجوم جديد يمطرونهم بوابل من القذائف أحدثت دمارا كبيرا في صفوفهم . حاول الناجون من المهاجمين وبشجاعة الأسود أن يقتحموا بشكل عشوائي خط الدفاع عن القافلة الذي كان يتمركز خلف الأكياس الترابية مستخدمين حرابهم إلا أنه تمت إبادتهم بفعل الأسلحة السريعة الطلقات التي توفرت لرجال مصطفى وأصبحت قذائفها تمزق أجساد المهاجمين دون رحمة ولا شفقة مما جعل المهاجمين يدفعون حياتهم ثمنا لسوء تقديراتهم لظروف المعركة .

أما بالنسبة لرجال مصطفى فقد جرح اثنان جروحا بليغة أثناء الهجوم اليائس الأخير لرجال العصابة الذين لم يبق منهم أحد واقفا على قدميه لأنهم إما قتلى وإما جرحى، وهكذا كانت نهاية العصابة المهاجمة للقافلة . وأخيرا لاح صباح اليوم التالي بعد كرم الضيافة الكبير الذي وفرته القافلة لمهاجميها، وانطلق شعاع الشمس وكأنه آخر إطلاق للنار في تلك المعركة، أو كأنه أصبع اتهام مزق حجب الظلام لكي يعلن للملأ تفاصيل مسرح الأحداث التي شهدت رقصة الموت، ويزيح اللثام عن أجساد القتلى والجرحى التي تناثرت في مختلف الأماكن حول الخيام التي ضربها رجال مصطفى، وهكذا كانت المعرفة البشرية قد مهدت السبيل للبشر بأن يتولوا تدمير أنفسهم بأنفسهم . ثم عم نور الصباح، ولكن إلى متى ؟

قام الدليل المرشد للقافلة بإسعاف الجريحين من زملائه باعتباره الأكثر خبرة في التعامل مع مسألة الجرحى، أما الأربعة الآخرون بالإضافة إلى مصطفى ورمضان فقد

قاموا بتفقد المخيم وما حوله لمعرفة ما إذا كان لا يزال هناك أي جرحى من بين الأجساد المتناثرة لرجال العصابة . كان أغلب أفراد العصابة المهاجمة قد قتلوا بينما كان الجرحى منهم في حالة حرجة جدا حيث كان اثنان من هؤلاء الجرحى فقط لديهما احتمالات البقاء على قيد الحياة حيث تم تقييدهما ووضع أحد رجال مصطفى حارسا عليهما إلى حين الانتهاء من تفقد مكان المعركة من أجل معرفة المكان الذي تركت به إبل رجال العصابة، حيث اكتشفوا وجودها خلف أحد الكثبان الرملية وكان عددها الإجمالي مائة وعشرة بعيرا وهو ما يعني عند مقارنة عدد الإبل بعدد رجال العصابة أن هؤلاء المهاجمين كانوا يمثلون المجموعة الأخرى من رجال العصابة الذين هاجموهم في رحلة الذهاب .

استمر مصطفى ورمضان في تفقد حمولة الإبل حيث وجدوا كميات كبيرة من المواد الغذائية والنقود والمجوهرات التي كانت ضمن الأشياء التي اغتصبها قطاع الطرق من المسافرين عبر الصحراء والتي تصل قيمتها جميعا إلى رقم كبير . وهكذا عندما تأكد مصطفى من تدمير تلك العصابة بنجاح تيقن بأن القافلة ستواصل طريقها بأمان ملحوظ . وبعد أن تم حصر كل الممتلكات التي كانت على ظهور الإبل تم اقتيادها إلى المخيم وإلحاقها ببعران القافلة بحيث أصبح لديهم عدد ضخم من الحيوانات المحملة بالمواد الغذائية والمياه وثروة مالية معتبرة . أما الجمالان الاثنان اللذان أصيبا بجروح بليغة في المعركة ضد العصابة فقد توفيا بعد عدة ساعات مما جعل غمامة من الحزن تلف القافلة وخاصة أحد الجمالين فيها لأن أحد الشخصين اللذين توفيا كان شقيقاً له .

مر ذلك اليوم مرورا ثقيلا على القافلة، وبقي كل واحد من أفرادها غارقا في صمته، ولذا قرروا بعد حين التوقف للاستراحة ولإعادة تنظيم شئون القافلة لأنهم وجدوا صعوبة في اقتياد عدد كبير من الإبل عن طريق عدد قليل من الأشخاص . وعندما لاح الفجر كانت القافلة تواصل المسير الذي بدأته في اللحظات الأخيرة من الليل . وعندما قام مصطفى بمراجعة أوضاع القافلة لاحظ أن الأسيرين الاثنين من جرحى رجال العصابة غير موجودين مقيدين على ظهور الإبل، وعندما اقترب أكثر اكتشف أن الأسيرين تم إعدامهما بلا رحمة، وقد تصور مصطفى من يكون الشخص الذي أقدم على هذا الفعل الشنيع حيث ناداه بصوت عالٍ، وعندما حضر أكد لمصطفى أنه هو من قام بقتلهما انتقاما لمقتل أخيه من قبل رجال العصابة، ولأنه يعرف تماما استقامة مصطفى بشأن التعامل مع الأسرى لذا قرر قتلهما بنفسه دون إبلاغ مصطفى لكي يضعه أمام الأمر الواقع ويتفادى وجود خلاف مع مصطفى حول كيفية التعامل معهما .

كان مصطفى يرغب في إبلاغ زميله ذي العقلية الانتقامية برد شاف على ما قاله بشأن تصرفه غير الإنساني، لكنه آثر الصمت لأن أي كلام قد يقوله حول هذا الموضوع لن يفيد شيئا بل قد يقود إلى نتائج سلبية . بيد أن مصطفى عندما فكر في هذه المسألة بهدوء فيما بعد تبين له أن ما قام به زميله بقتل الأسيرين أسهم على كل حال في إسدال الستار على هذا الموضوع لأنه لن يستطيع أن يحل مشكلة هاذين الأسيرين بشكل مرضٍ لجميع الأطراف . تجاوز مصطفى بتفكيره هذا الموضوع، وعندما لاحظ أن كل شئون القافلة جاهزة أعطى أوامره لها بالاستمرار في المسير .

وهكذا كان يمكن أن تكون شئون القافلة على أتم وجه لولا مقتل اثنين من أفرادها، خاصة في ضوء الأموال التي غنموها بعد أن انفقوا ما لديهم في شراء الأسلحة، وإضافة إلى مغنم المجوهرات التي وجدوها في أمتعة رجال العصابات فقد أعطى مصطفى أوامره بفحص الأمتعة التي استولوا عليها منهم بشكل أكثر دقة، وقد كان محقا في ذلك لأن الفحص الدقيق لها كشف عن وجود نقود أخرى مخبأة في أماكن ليس من السهل اكتشافها، إضافة إلى اكتشاف مزيد من المجوهرات بحيث أصبحت هذه النقود والمجوهرات التي اكتشفوا وجودها حديثا إضافة إلى ما وجدوه في أمتعة رجال العصابة سابقا تمثل ثروة ذات قيمة هائلة، وهي تدل بكل تأكيد على العدد الكبير من القوافل التي تم سلب هذه الغنائم منها .



الفَصْلُ الخَامِسْ

الواحـــة

بعد أسبوع من الترحال وصلت القافلة ذات مساء إلى واحة صغيرة للالتقاء بالمجاهدين الليبيين ضد الاستعمار الايطالي وتسليمهم شحنات الأسلحة التي تم جلبها حسب الاتفاق . ولقد كانت مفاجأة كبرى لرمضان أن رأى أستاذه عميد المدرسة من بين المستقبلين للقافلة والذي بمجرد أن رأى رجال القافلة سجد لله شكرا له على عظيم قدرته بأن مكنه من أن يرى أصدقاءه من جديد ويضمهم إلى صدره .

وبمجرد أن رأى رمضان أستاذه سارع إلى لقائه وقبل يده، لكن الرجل العجوز ضم رمضان بين ذراعيه وشده إلى صدره بقوة بينما كان يرتعش من شدة التأثر بهذا المرقف . لم يتحدث الشيخ بعض الوقت بسبب شدة انفعاله العاطفي، وعندما تأكد أنه يستطيع الحديث دون أن ترتبك الكلمات في فمه قال مخاطبا رمضان : يا بني ! لم أستطع أن أمكث طويلا في بنغازي، ولذا خرجت مع أول قافلة مغادرة إلى هذا المكان لكي ألتقيك لأن القلق مزق قلبي، ولم يعطني مجالا للراحة، ولذا قررت ترك كل شيء في بنغازي من أجل أن أكون أول من يقدم لك التهاني على نجاح تلك الرحلة .

وعندما كان رمضان وأستاذه يتحادثان وصلت القافلة، وأخذ الرجال يودعون الأمتعة التي غُنمت من رجال العصابة في خيمة كبيرة أنيقة، بينما انهمك رجال مصطفى في إنزال حمولة الإبل يساعدهم في ذلك عدد كبير من زملائهم المجاهدين، حيث كادت تلك الخيمة الكبيرة أن تمتلئ بالغنائم التي تم الحصول عليها بشكل غير متوقع رغم أن رجال القافلة دفعوا ثمنا كبيرا في المقابل بفقدانهم اثنين من زملائهم في المعركة التي دارت مع العصابة .

وعند إنزال هذه الحمولة وإيداعها الخيمة قام المجاهدون بفرز محتوياتها وتصنيفها في مجموعات منفصلة وذلك وفقا لقيمتها ونوعيتها . وعندما انتهوا من ذلك واجتمع رجال القافلة مع زملائهم من جديد قام مصطفى بإحضار كيس من النقود وآخر من المجوهرات، وهي تمثل الغنائم التي تحصلوا عليها من العصابة ووضعها فوق منضدة عالية على مرأى من الجميع، ثم قص للأستاذ العميد باختصار كل الأحداث التي تعرضت لها القافلة موضحا له حجم الغنائم والأسلحة التي أصبحت بحوزتهم ثم أضاف قائلا

: لقد أحضرنا كل هذه الأشياء اليكم، وباعتباركم رئيسنا نضعها بين يديك لكي تتولى بنفسك توزيع ما تريد توزيعه منه على الرجال الذين أنجزوا مهمة القافلة بنجاح، ثم أخذ مصطفى في حصر الغنائم وعند الأنتهاء من ذلك تحدث الأستاذ العميد بكل هدوء وإقناع قائلا : يا بني ! لقد كان الله رحيما بنا . الله أكبر . لقد وهبنا الله هذه الثروة من أجل أن نستغلها في مهمتنا المقدسة في تحرير ليبيا، وحرمها من عصابات قطاع الطرق الذين كانوا يريدون استغلالها في إشباع رغباتهم الأنانية الحقيرة . إن الله يرزق عباده المؤمنين من حيث لا يحتسبون، كما أن وقوع كل هذه الغنائم في أيدينا يدل بوضوح على أن قضية شعبنا وبلادنا تحميها يد الله علام الغيوب، ولهذا فإنه يتعين علينا نحن أن نعرف كيف نستخدم هذه الثروة التي وضعها الله بين أيدينا لمصلحة البلاد والعباد .

وبعد أن انتهى الأستاذ العميد من حديثه الشافي الوافي تناول كيس النقود بغرض دفع مبالغ منها لرجال القافلة مقابل جهدهم إلا أنهم رفضوا جميعا استلام أي مبلغ قائلين انهم استلموا من مصطفى أجرة عملهم ولذا فهم لا يريدون الحصول على المزيد، لأن دفاعهم عن القافلة كان جزءا من واجبهم . تأثر الأستاذ العميد بهذا الموقف كثيرا، ثم شكرهم على موقفهم الوطني، وشرع في توزيع باقي الغنائم من البضائع قائلا لهم ان كل واحد منهم يستطيع أن يأخذ ما يحتاجه منها لنفسه وعائلته . أما النقود والمجوهرات فقد سلمها إلى رمضان من أجل الاحتفاظ بها كرصيد لدفع قيمة شراء شحنات جديدة من الأسلحة والمواد الغذائية .

قام الأستاذ العميد بعد ذلك بتسليم رمضان قطعا من السجاد الفاخر والمنسوجات الرفيعة التي كانت من ضمن البضائع التي غُنمت من العصابة مما وضع رمضان في موقف صعب لأنه من ناحية كان مصمما على عدم استلام أي شيء من هذه الغنائم ولكنه من ناحية أخرى ما كان يريد أن يحرج أستاذه بأن يرفض على الملأ وبشكل فج استلام أشياء منه . وأخيرا قام الأستاذ العميد باستدعاء سليمة واختار لها من بين المجوهرات أفضلها وأغلاها وقدمها لها . سليمة هي الأخرى لا تريد استلام أي شيء من هذه الغنائم ولكنها ضعفت كامرأة أمام بريق تلك المجوهرات وقبلتها شاكرة عندما ألح عليها الأستاذ العميد بالقبول قائلا لها بإصرار : خذي يا مبروكة . وهو الاسم الذي كان يعرفها به الآخرون منذ زواجها من خليفة، لقد من الله علينا بهذه الخيرات بإرادته العظيمة، وبفعل قيام رمضان بتمويل القافلة ودفع قيمة الأسلحة، ولقد كنت أنت أيضا جزءا لا يتجزأ من العمل الوطني الجليل الذي قام به رمضان، وقد أديت دورك فيه على أكمل وجه . وهكذا

كان جميع أعضاء القافلة راضين كل الرضا بالمقابل الذي تلقوه لأنه في كل الأحوال كان أكثر مما كانوا يتوقعون الحصول عليه . أما عن الجمالين الاثنين اللذين استشهدا في المعركة مع رجال العصابة فقد تم تسليم حصة أحدهما من الغنائم إلى أخيه، بينما سلمت حصة الثاني إلى أحد أصدقائه المقربين من أجل أن يتولى كل منهما تسليمها إلى عائلة الشهيد في أقرب وقت ممكن .

وعندما أطل الليل جاءت مجموعات أخرى من المجاهدين من أجل استلام أسلحة ثم المغادرة سريعا دون ترك آثار لوجودهم بالواحة، مر على رجال القافلة يومان بالواحة كانا كافيين للاستراحة المستحقة بعد عناء الرحلة ثم واصلوا المسير نحو بنغازي التي مضى على خروجهم منها وقت طويل . استفسر رمضان عن حال جميع أصدقائه في بنغازي وخاصة عن معلومة حيث أخبره أستاذه العميد أن كل أصدقائه هناك بخير، ثم أضاف قائلا : كلهم بخير ومشتاقون لرؤيتك يا عزيزي رمضان، إذ لا يمكن لك أن تتخيل عدد الأشخاص الذين سألوني عنك قبل أن آتي إلى الواحة لاستقبالكم، وهو ما يدل يا بني على أنهم جميعا يقدرونك كثيرا وأنا أولهم.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي غادرت القافلة متجهة إلى بنغازي، حيث وصلتها بعد خمسة أيام من السفر المتأني وبدون أية أحداث تذكر . وأثناء أمسية هادئة عبرت القافلة البوابة الرئيسية للمكان المسقوف الذي خرجت منه عندما غادرت بنغازي لكي تخوض رحلة المغامرة عبر الصحراء المليئة بالمخاطر . تُركت الإبل في ذلك المكان المسقوف الذي تتوفر به حراسة، ثم قام رمضان وسليمة صحبة الأستاذ العميد بتأجير سيارة لنقلهم مع أمتعتهم وهم في أقصى درجات السعادة إلى منزل معلومة لمفاجأتها بقدومهم . لقد كانت الفرحة الغامرة لهذه السيدة بوصولهم سالمين غانمين في مستوى من الانفعال العاطفي يعجز وصفه وخاصة إزاء ابنها العزيز رمضان الذي بمجرد أن رأته قادما سجدت لله حمدا له على سلامة عودته، وكانت عيناها تشعان نورا والسعادة تغمر كل أرجاء المنزل بمناسبة قدوم الشخص الذي أرسله الله لكي يخرج عائلتها وعائلات كثيرة أخرى من مأساة الفقر من خلال دعمه وكرمه، ثم اتجهت نحوه قائلة : أطال الله عمرك يا بني ! أجل، هكذا أشعر أنك إبني، وأشكر الله على منحي السعادة لرؤية ابنتي العزيزة مبروكة . لقد وصلتما أولا لقلبي كأم لكما وثانيا لبيتي . ومع هذه الكلمات أجهشت معلومة بالبكاء وتساقطت دموعها بغزارة فوق خديها الذابلين اللذين سرعان ما أخذا يشعان احمرارا بفعل الانفعال العاطفي الشديد إزاء هذا الموقف الرهيب . لقد كان نحيبها علامة

أكيدة على المحبة الصادقة التي تكنها للشابين وعلى قلبها الطيب الحنون . تأثر رمضان كثيرا بالموقف واتجه نحو معلومة لاحتضانها، لكن سليمة كانت أسرع منه حيث ضمت معلومة إلى صدرها بقوة وهي تغمرها السعادة بأن تبادل تلك السيدة الفاضلة حبا بحب .

كان الشيخ العميد يتابع بسمعه وبصره تلك المظاهر العاطفية الصادقة، وحمد الله على أنه تعرف بهؤلاء الأشخاص الطيبين الذين يكن لهم كل محبة خاصة وأنه ليس لديه عائلة . بيد أن سعادة هذا الشيخ وصلت إلى ذروتها بعد ذلك بقليل عندما أخبره رمضان أنه يستطيع أن ينتقل للعيش معهم في المنزل طالما كان يعيش وحيدا دون وجود أقارب حوله ؛ ذلك أن شيخا في هذه السن المتقدمة من العمر لا يجب أن يعيش منعزلا بمفرده خاصة وأنه لديه الكثير من الأصدقاء ممن يستطيع أن ينتقل للإقامة معهم . وهكذا جاء عرض رمضان كريما حيث قال لأستاذه الشيخ : لدينا هنا بيت متسع، ولذا فنحن لن نسمح لأنفسنا أن نتركك تستمر تعيش وحدك دون وجود شخص قريب منك لمساعدتك إذا ما دعت الضرورة لذلك . كاد ذلك الشيخ الطيب أن يبكي انفعالا جراء هذا الموقف من رمضان الذي كان صادقا ورقيقا لدرجة أنه لم تكن لدى الشيخ الشجاعة للاعتذار عن قبول هذا العرض حتى ولو من باب المجاملة.

ومع حلول الليل جاء أبناء معلومة ويوسف والشبان الأربعة الذين كانوا دائما يتولون إحضار الإسهامات المالية الخاصة برمضان، وأعدت معلومة للجميع مأدبة عشاء فاخرة في البهو الذي يربط منزل رمضان بمنزل معلومة والذي تم تحويله منذ وقت إلى مساحة مشتركة من أجل الاستفادة منها في مناسبة كهذه . تضمنت وجبة العشاء أربعة جديان تم ذبحها وسلخها وإنضاج لحومها على نار هادئة، حيث تم توزيع اللحم بكميات كبيرة على الحاضرين، واستمر هذا اللقاء السعيد لفترة طويلة عبر الليل ملؤها السعادة والسرور . وعند الانتهاء من هذه المأدبة رافق رمضان وسليمة الأستاذ الشيخ إلى الغرفة الخاصة التي قاما بتجهيزها له، وعندما رأى عن قرب كل النعيم ووسائل الراحة التي تم توفيرها له، والتي لم يسبق له أبدا أن تمتع بمثلها، لم يستطع الأستاذ الشيخ أن يخفي تفاجؤه بما رأى فقال مخاطبا رمضان وسليمة : يا ابني ويا ابنتي ! لقد كانت معلومة على حق عندما قالت أن رمضان أرسله الله من أجل تحقيق أعلى درجات سعادتنا ؛ ذلك أنني لم أحلم حتى مجرد الحلم أن تكون لي غرفة بهذه المواصفات . وعندما قام رمضان باصطحابه إلى الحمام الخاص بهذه الغرفة المغطاة جدرانه بالفخار الأزرق المزركش لم يستطع الشيخ أن يجد الكلمات القادرة على التعبير عن شكره لهما .

خرج رمضان وسليمة بعد أن تمنيا للشيخ ليلة سعيدة، واتجها إلى غرفة رمضان لأن سليمة ـ رغم أنها لديها غرفتها الخاصة بها ـ إلا أنها كانت تفضل أن تقضي الليل قريبة من رمضان تتحدث معه إلى أن يغلبه النوم، ثم تبقى ساهرة بعض الوقت ترعى نومه بكل حنان وإخلاص . كان رمضان في أحيان كثيرة يتضايق من هذا الوضع لأنه لا يريد لها أن تتصرف وكأنها خادمة في بيته، بل إنه طلب منها مرة أن تقلع عن مثل هذه العناية المبالغ في أمرها بحقه، ولكنه وجدها تشرع في البكاء بصمت وتمسك بيده فتقبلها، ولذا آثر ألا يكرر مثل هذا الطلب منها لأنها كانت سعيدة بالوضع الذي هي عليه وهو أن تكون قريبة من رمضان متى استطاعت تغمره بعنايتها ورعايتها الحنونة وكأنها أم أو أخت له، وتفعل كل ذلك وهي شاكرة له على أفضاله عليها .

لقد كانت محبة سليمة لرمضان أكبر مما يُتصور ؛ فالزمن يمر ولكن الذي يبقى محفورا في أعماق الإنسان هو جمال المشاعر الصادقة خلال اللحظات السعيدة التي يعيشها .

عيسى أبو بيض الحريشي

عبد الرحمن الحمد الليبي

الفصل السادس

راحة واستجمام

انقضى شهران كاملان في هدوء تام حيث استطاع رمضان وسليمة خلالهما الاستراحة من عناء المتاعب التي واجهاها خلال شهور من مشقة السفر عبر الصحراء . آثر رمضان ألا يعود مباشرة إلى المدرسة خلال الأيام الأولى من رجوعه إلى بنغازي، لكنه بعد مضي أسبوع من عودته استأنف حياته الطبيعية المعتادة، حيث كان يستقل العربة صحبة أستاذه العميد كل يوم للذهاب إلى المدرسة مما جعل أستاذه الشيخ الجليل يشعر بالغبطة لأنه أصبح يعيش وسط عائلته الجديدة . ولأنه إنسان مثقف جدا ونبه وذكي فقد أسس علاقات طيبة ومتوازنة مع الجميع . وهكذا انقضت ثلاثة أشهر على الجميع كان ملؤها الهدوء التام دون أن يعكر صفو حياتهم أي مكروه .

وبعد مضي أسبوع من عودتهما إلى بنغازي قرر رمضان وسليمة زيارة السيد بيبيه الذي بمجرد أن رآهما أمامه بعد فترة طويلة جدا من الانقطاع انتابه شعور بالفرح الغامر إلى درجة أنه كاد أن يبكي من شدة الانفعال، حيث أصر أن يمكثا عنده فترة طويلة وأعد لهما طعام غداء فاخر وكأنه أعد لملك أو إمبراطور ؛ ذلك أنه كان يبحث عن أية وسيلة يستطيع بها أن يشكر لهما أفضالهما عليه، ثم رجاهما رجاءً حارا أن يبلغاه سلفا قبل غيابهما عنه لفترة طويلة كي لا تنتابه الهواجس بشأن غيابهما مثلما حدث في المرة الأخيرة، حيث اعتذر له رمضان عن عدم إبلاغه عن غيابهما ووعده بأن يحيطه علما بأي غياب لهما في المستقبل قائلا له بنوع من المزح : لا تشغل بالك يا سيد بيبيه لأننا حتى وان انقطعنا عنك لبعض الوقت فإننا نأتي في نهاية المطاف لازعاجك كما ترى ! حيث رد عليه السيد بيبيه قائلا : هذا هو ما أريده، أما أن تزعجاني أو لا تزعجاني فهذه مشكلتي أنا، لكن الذي أريده هو أن تأتيا لزيارتي .

انتهت هذه الزيارة إلى السيد بيبيه وعاد كل شيء إلى وضعه الروتيني المعتاد : هدوء وسعادة خلال فترة لا بأس بها من الزمان إلى أن حضر مصطفى في إحدى الليالي يبحث عن الأستاذ الشيخ لإبلاغه بأمر ما . تحدث مصطفى مع الأستاذ الشيخ على انفراد لفترة طويلة من الزمن، وعندما وصل بهما الحديث إلى نقطة معينة استدعيا رمضان لإبلاغه

بأخبار جديدة عن وجود شحنة أخرى من السلاح جاهزة لاستجلابها إلى الواحة الصغيرة مثلما كان الأمر خلال الرحلة الأخيرة، ثم أضاف الأستاذ قائلا : لقد تم ابلاغنا أن قيمة شحنة الأسلحة الجديدة والذخيرة تصل إلى مليون ونصف المليون ليرة، واذا أضفنا اليها تكاليف النقل فسوف نحتاج إلى مليوني ليرة لدينا منها مليون ومائتا ألف ليرة من النقود التي غنمناها من عصابة قطاع الطرق، حيث أننا لن نحتاج سوى ثمانمائة ألف ليرة من أجل انجاز هذه الصفقة .

أجرى رمضان مراجعة سريعة لمدخراته المالية حيث أسعده أنه لديه أكثر من القيمة المطلوبة، ولذلك قال لأستاذه الشيخ : يمكنكما اتخاذ كافة الاستعدادات لإتمام الصفقة لأننا هذه المرة نمتلك المبلغ اللازم من النقود، بيد أنه في المرات القادمة سيكون لكل حادث حديث لأنني على كل حال أستطيع أن أدبر المبلغ اللازم لشراء شحنة أخرى من السلاح والذخيرة ولكنني سوف أحتاج إلى حوالي عام للقيام بذلك . ثم أضاف مبتسما : يا للعجب ! مضى علي وقت طويل لم أكن أعرف خلاله كيف استثمر أموالي، أما الآن فليس لدي ما يكفي من المال لاستثماره فيما يجب علي أن أستثمره! قال ذلك وهو يشعر وكأن حملا ثقيلا أزيح عن كاهله ؛ إنه حمل الأموال التي توفرت لديه والتي كان يبحث عن أنبل قضية ينفقه فيها . أما مصطفى فقد أفاد بأنه يحتاج إلى أربعة أيام لتجهيز القافلة من حيث أفرادها والإبل والمواد الغذائية والماء .

وقبل مغادرة القافلة لبنغازي بيوم واحد ذهب رمضان وسليمة إلى السيد بيبيه لتوديعه تنفيذا للوعد الذي أعطياه له، وأبلغاه أنهما سيغيبان بعض الوقت حيث دعا لهما بالتوفيق وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع لدرجة أنه أدار بظهره نحوهما كي لا يلاحظان عليه حزنه الشديد لفراقهما فترة قد تطول . وقبل حلول فجر اليوم الخامس جاء مصطفى بحثا عن رمضان وسليمة وقد جهز لهما بعيرين خاصين لهما، وقد تفاجآ هذه المرة لأنهما لم ينطلقا صحبة القافلة من البداية بل سارا صحبة مصطفى غربا في طريق الخروج من بنغازي . لم يتحدثا مع مصطفى حوالي ساعة إلا أنه عندما وصل ثلاثتهم إلى منطقة سهلية اقتربا منه وسألاه عن سبب التغير في برنامج سير القافلة هذه المرة حيث تحدث مصطفى إلى رمضان قائلا له : يا صديقي الشاب. لقد رأينا هذه المرة أن تخرج القافلة في مجموعات عدة من أجل عدم إثارة الشكوك لدى الجواسيس أو لدى السلطات الايطالية بالمدينة لأن القوافل المكونة من مجموعات قليلة أمر لا يثير الانتباه، لكننا فيما بعد سوف نلتقي جميعا في الواحة الصغيرة حيث سنتزود جيدا بالأسلحة كي لا نكون

هدفا سهلا لرجال العصابات أو السراق الذين يحومون وسط الصحراء من أجل سلب ممتلكات التجار المساكين الذين يتعين عليهم عبور الصحراء لجلب بضائعهم .

وبعد مضي خمسة أيام من السفر السريع وصلوا إلى الواحة الصغيرة دون مواجهة أية عقبات فيما عدا شمس الغروب الساطعة التي تبهرالأبصار بألوانها اللامعة قبل أن تتحول تدريجيا إلى ما يشبه النيران الصغيرة المشتعلة التي سرعان ما تكتسحها جحافل الليل التي تلقي بغطائها الأسود فوق رمال الصحراء الممتدة . وفي تلك الواحة الصغيرة استقبلهم باقي زملائهم من أفراد القافلة، وكلهم سعادة بسلامة وصولهم وخاصة الدليل المرشد والجمالون الأربعة، حيث أصبحت القافلة تتكون هذه المرة من اثني عشر شخصا بالإضافة إلى مصطفى والدليل المرشد وسليمة ومعهم أربعة وثلاثون بعيرا . وهكذا استراح الجميع لمدة يومين في تلك الواحة من أجل الاستقواء على متاعب الرحلة الطويلة والصعبة التي سوف يقطعونها . وفي اليوم الثالث كانت القافلة جاهزة منذ الفجر للانطلاق من أجل تنفيذ مهمتها . ومثلما كان الأمر في الرحلة السابقة فقد كان بعيرا رمضان وسليمة هما الوحيدان اللذان تم تجهيزهما بطريقة تمنع عن راكبيهما شمس الصحراء الحارقة ورياح القبلي المحملة بالأتربة . أما باقي أفراد القافلة فهم من المتمرسين في السفر عبر الصحراء، ولا يحتاجون لمثل هذه الترتيبات التي أعدت للمسافرين الشابين . وفي أول ليلة من ليالي السفر الشاق، وبعد يوم من الحرارة الشديدة وهبوب الرياح الجافة الساخنة التي تلفح الوجوه وكأنها آتية من فرن، قرر الجميع نصب خيامهم خلف أحد الكثبان الرملية العالية لكي يحميهم من عصف الرياح، وخلدوا للراحة سعداء بأنهم لم تواجههم أية مشاكل خلال اليوم الأول من الرحلة .

ومنذ البداية قام مصطفى بتوزيع واجبات الحراسة على أفراد القافلة بحيث يتمركز الحراس في أربع نقاط رئيسية من المخيم، وقد آلوا على أنفسهم جميعا تأدية واجب الحراسة على أكمل وجه رغم أنهم أشخاص أهل ثقة ممن تعودوا على هذا النمط من الحياة الصحراوية . أمضى الجميع ليلة طيبة في ذاك المكان ثم استأنفوا مع الفجر مسيرة قافلتهم حيث تكرر نفس الروتين معهم ثلاثة أيام أخرى من السفر دون أن تصادفهم أية مشكلات .

وفي اليوم الرابع على حوالي الساعة التاسعة صباحا رأوا فجأة دورية للجيش الايطالي مكونة من عسكريين يستقلون جمالا، وهي من الفرق المجهزة خصيصا للمهام العسكرية الصحراوية . لم يكن لدى أفراد القافلة وقت للتفكير أو التدبير إزاء هذا الأمر لأن تلك الدورية التي يقودها نائب ضابط ايطالي استطاعت أن تكتشف وجود القافلة قبل أن ينتبه

أفراد القافلة لوجود الدورية، ولهذا تخفت تلك الدورية إلى أن أصبحت القافلة قريبة جدا منه ثم فاجأتهم بطريقة لا تتيح للقافلة أي فرصة للإفلات بحيث أصبح الطرفان وجها لوجه، وعندها لوح قائد الدورية بإشارة من يده للعشرين عسكريا من أفراد الدورية، وأصدر صوتا عاليا يأمرهم فيه بسد طريق القافلة، وهو ما قاموا به فعلا بحيث اصطفوا على جانبي طريق القافلة تاركين منفذا صغيرا جدا في الوسط لكي تمر منه القافلة المستسلمة فردا فردا .

أعطى مصطفى أوامره الصارمة لأفراد القافلة بالاستعداد التام والتصرف حسبما تقتضيه ظروف الموقف، ثم تقدم للتحدث مع الدورية الايطالية بغية إعطاء مزيد من الوقت لزملائه للاستعداد . وخلال ذلك قام الدليل المرشد للقافلة بإبلاغ رمضان وسليمة بأن يصطفا ضمن القافلة حسب الأوامر الصادرة من رئيس القافلة مصطفى، وأنه يتوجب عليهما تنفيذ كل ما تصدر لهما من أوامر منه لأن القافلة تمر بظروف طارئة . طلب رئيس الدورية من مصطفى إبراز وثائق القافلة والإذن الصادر لها من السلطات الايطالية بالسفر حيث أجابه مصطفى قائلا : لدينا كل المستندات المطلوبة، ولذا أرجو أن تنتظرني لحظة لكي أحضرها لك . وهو ما طمأن الدورية الايطالية بعض الشيء، وتظاهر مصطفى بالبحث عن هذه المستندات بين الأمتعة الموجودة على ظهر أحد الجمال لإبرازها لقائد الدورية من أجل السماح للقافلة بمواصلة السفر. عندها كان جميع رجال مصطفى قد جهزوا أنفسهم بالشكل الذي أبلغهم به وهو أن يقف كل واحد من أفراد القافلة خلف جمله ليتدرع به، وأن يصطفوا على شكل هلال من أجل مواجهة القوة المعادية في تمركز أفضل . أما رمضان وسليمة اللذان كانا في نهاية القافلة فقد بقي كل منهما على ظهر جمله من أجل إيهام الدورية الايطالية بأن الأمور عادية جدا . وبمجرد أن اجتاز مصطفى النقطة المتفق عليها لبدء الهجوم فتح هو وزملاؤه نار جهنم على الدورية الإيطالية مستخدمين رشاشاتهم الأوتوماتيكية التي كانوا يخبئونها وهو ما فاجأ الدورية الايطالية التي - رغم أنها كانت تتوقع أن تتم مهاجمتها - لكنها لم تتوقع أبدا أن تُهاجم بهذا النوع من الأسلحة الأوتوماتيكية الفتاكة .

أما قائد الدورية الايطالية وهو من المقاتلين المتمرسين فلم يملك أمام هذا الموقف إلا أن أعطى أوامره لأفراد الدورية بإطلاق النار بالمثل كي لا يكون عنصر المفاجأة الأمر الحاسم في تحديد سير المعركة بل قدرة كل طرف على الاستخدام الماهر للأسلحة التي في حوزته .

لكنه خلال دقائق معدودة تم إبادة تلك الدورية بالكامل رغم تفوق الدورية من حيث

عدد الأشخاص ونوعية الأسلحة، بيد أن الخبرة العسكرية لأفراد الدورية الايطالية من خلال مشاركتهم في مئات المعارك السابقة وانبطاحهم أرضا أثناء القتال محتمين بما يمكن الاحتماء به مكن هذه الدورية من إبداء مقاومة يائسة استطاعت أن تلحق خسائر بالجمال التي كان يحتمي بها أفراد القافلة حيث قتل حوالي نصف عددها في هذه المعركة . لقد تم كسب هذه المعركة بأعجوبة، ولكنه نصر تحقق بكل المقاييس، وإذا ما أخذنا في الاعتبار عدد أفراد الدورية الايطالية ونوعيات الأسلحة المتطورة لديهم فإن أفراد القافلة يحمدون الله ويصلون على نبيه لمنحهم هذا النصر . لم يكن هناك جرحى من الجانبين، ولكن إضافة إلى القتلى الايطاليين قتل أو جرح كثير من بعران القافلة وخمسة من بعران الدورية الايطالية، وكانت جروح الحيوانات التي لم تقتل بليغة إلى درجة لا يمكن معها استعمالها .

أما مصطفى باعتباره قائدا متمرسا لمجموعة أفراد القافلة فقد قام بتفحص الخسائر في جانب القافلة أولا ثم عكف على تتبع الخسائر في الجانب المعادي، وحاول أولا أن يعرف ما إذا كان هناك جرحى لا يزالون على قيد الحياة في الجانب الايطالي، ولما لم يجد أي جريح عمد إلى أخذ ما يفيد من الغنائم التي تركتها الدورية المبادة ومغادرة مكان المعركة في أسرع وقت ممكن تحسبا لوجود دورية أخرى قريبة من المكان . لم يكن مصطفى يحمل مشاعر انتقامية تجاه الأعداء، ولا مشاعر التأسي على الخسائر المادية التي تكبدتها القافلة بل كان ينظر إلى الأمور بطريقة واقعية تحقق لأفراد القافلة البقاء من أجل استكمال مهمتهم، ولذا سارع إلى مغادرة المكان تاركا القتلى الايطاليين في الأوضاع التي كانوا عليها .

وإتباعا لنفس النهج الذي اتخذه مصطفى سابقا أمر الدليل المرشد للقافلة بتغيير خط سيرها نحو منطقة الصخرة باعتبارها مكانا لا تطرقه القوافل إلا نادرا وذلك على أمل ألا يتمكن الايطاليون من تتبع آثار أقدام حيواناتهم . كانت الأيام الأولى من السير في هذا الاتجاه الجديد متعبة إذ لم تتوقف القافلة إلا لفترات قصيرة لغرض إراحة الإبل، وكانوا حريصين على عدم إيقاد النار لكي لا يتم اكتشاف وجودهم بفعلها . لكنهم اعتبارا من اليوم الثالث أبطأوا السير بسبب الريح القوية المواجهة لهم، وهي الريح التي رغم أنها كانت سببا في إبطاء حركة سيرهم إلا أنها كانت مفيدة جدا في محو آثار أقدام الإبل بسرعة مما جعل من الصعب معرفة خط سيرهم وتتبعهم . وعند المساء، وفي وقت أكثر تبكيرا مما اعتادوا عليه، نصب أفراد القافلة خيامهم للاستراحة وإراحة الإبل . وبعد

خمسة أيام أخرى من الرحلة الشاقة وصلت القافلة أخيرا إلى المنطقة الصخرية حيث تنفس الجميع الصعداء وبعد أيام طويلة من التعب والمشقة الشديدة في تلك الرحلة عبر الصحراء القاحلة .

لم يكن المكان الذي وصلت اليه القافلة جنة، ولكنه تميز بشيء هام جدا وهو توفر الأمن، حيث ارتأى مصطفى أن تمكث القافلة في هذا المكان أربعة أيام على الأقل للاستراحة، ثم قام رجال مصطفى بنحر أحد الجمال التي غنمتها القافلة من الدورية الايطالية من أجل أن تتوفر لديهم كميات كافية من اللحوم كمصدر للغذاء . وعندما أناخ رمضان وسليمة بعيريهما سارعا بمساعدة من مصطفى إلى نصب خيمتهما على مدخل الكهف الذي أنقذهم في الرحلة السابقة من خطر الإعصار الترابي، وهكذا توفرت لهما الحماية من هبوب الرياح التي رغم أنها لم تكن شديدة القوة إلا أنها كانت مزعجة .

وبعد أن تناول الجميع طعام العشاء حضر مصطفى لشرب الشاي مع رمضان وسليمة ولكي يشرح لهما الأسباب التي قادته إلى التصرف بالطريقة التي تصرف بها أثناء المعركة مع الدورية الايطالية كي لا يسيء أي منهما فهم مقاصده أو ينعته بالشخص المتوحش، وفي كلمات قليلة قال مصطفى مخاطبا رمضان : انظر يا رمضان، أعتقد أنه رغم أنك ولدت في الصحراء إلا أنه لم يكن لديك الوقت الكافي لتعلم كل الدروس اللازمة من أجل ضمان البقاء لأنك كنت لا تزال طفلا آنذاك . في مثل هذه الظروف يتوجب على المرء أن يحسب لكل شيء حسابه بتعقل وحكمة بعيدا عن المشاعر العابرة مهما كانت لأن أي خطأ بسيط في تقدير الإنسان للأمور يعني الموت بل الموت الشنيع . لذا لم أعط الأوامر لأفراد القافلة بأن يقوموا بإقبار الجنود الايطاليين الذين قتلوا في المعركة لكي لا نضيع على أنفسنا الوقت في الابتعاد عن ذاك المكان لأنه كان لدي إحساس بوجود دورية ايطالية أخرى قريبة لأنه من النادر أن يعمد الايطاليون إلى إرسال دورية في الصحراء منعزلة عن أي دعم من دورية أخرى . وهو ما أجبرنا على الإسراع في السير بعيدا عن مكان المعركة حيث اتبعنا خلال اليوم الأول نفس خط السير السابق لكي نعطي الانطباع لأعدائنا أننا مستمرون على نفس المنوال، وبعد فترة من التربص قمنا بتغيير خط سير القافلة لكي نصل إلى هنا لأن هبوب الرياح سيكون كفيلا خلال يوم واحد بمحو آثار أقدام إبلنا، وكل هذه الأمور تمثل احتياطات لابد من اتخاذها من أجل أن نضمن لأنفسنا هامشا معتبرا من الأمان الذي يساعدنا على البقاء في مثل هذه الأماكن المقفرة . لا أريد بهذه الكلمات أن أبرر لك ما قمت به، لكنني أردت فقط أن أجعلك تتفهم حقيقة أنه من الضروري اتخاذ

القرارات الصحيحة في الوقت المناسب لأن جميع ما قمت به كان ينطلق من واجبي المتمثل في أن أوفر الحماية الضرورية للقافلة . وعقب هذا اللقاء خرج مصطفى مودعا بلطف الشابين وهو يشعر بالرضا عن نفسه لأنه استطاع إيضاح هذه المسألة المعقدة جدا لهما لأنه كان حريصا على ألا يتزعزع تقدير رمضان له .

كانت فترة الاستراحة تلك مفيدة جدا للجميع حيث استطاعوا قضاء أوقات طيبة بفعل تلك الراحة ثم قرروا بعدها استئناف الرحلة خلال اليوم الثالث بدلا من اليوم الرابع كما كان مقررا من قبل وذلك بغرض الاستفادة من لطافة الجو في السفر خلال ذلك اليوم .بيد أنهم قبل أن يغادروا ذلك المكان تلقوا أوامر من مصطفى بضرورة إخفاء كميات من المياه والمؤن في حفرة صغيرة داخل ذلك الكهف وذلك بسبب توفر كميات كبيرة منها لديهم بعد أن غنموا ما كان لدى أفراد الدورية الايطالية من غذاء وأكثر من أربعين قربة من الماء . وكان مصطفى قد استشار الدليل المرشد للقافلة في هذه المسألة قبل اتخاذ القرار بالخصوص لأنه كان الشخص الأكثر دراية بشئون السفر عبر الصحراء .

استمع الدليل المرشد للقافلة إلى كل المعطيات التي قدمها له مصطفى، وفكر بشأنها مليا ثم وافق على الفكرة باعتبارها صائبة جدا مردفا بالقول : لدينا في هذا المكان المنعزل والبعيد عن طريق القوافل ملاذ آمن يمكن لنا تخزين كميات من المياه والمواد الغذائية به لأن هذه الأشياء في حالات الضرورة تعتبر أساسية لضمان الحياة في الصحراء خاصة وأنه يتوفر لدينا فائض من المياه يعتبر نقلها معنا عبئا إضافيا على الإبل لا ضرورة له . لذا يتعين علينا أن نترك خلفنا في هذا المكان كميات من المياه والمؤن لأننا في رحلة العودة سنسير عبر هذا المكان كذلك لأنه أكثر أمنا باعتباره بعيدا عن طرق القوافل رغم أنه يجعل الرحلة أطول مدة . لكن المهم هو أنه يساعدنا على تفادي خطر عصابات قطاع الطرق أو دوريات الجيش الايطالي . لقد كانت فكرة رائعة تلك التي اقترحتها علي يا مصطفى والتي تقضي بأن نجعل من هذا المكان نقطة انحراف عن الطريق الرئيسي للقوافل من أجل تجنب المخاطر، كما أننا في كل مرة نأتي إلى هذا المكان نستطيع تخزين المزيد من الماء والمؤن به لكي يبقى احتياطيا لنا .

وبعد أن تم حسم هذه المسألة قام أفراد القافلة بإخفاء المؤن الزائدة عن الحاجة، إضافة إلى حوالي عشرين قربة من الماء في المكان المتفق عليه، ثم عكفوا على برمجة خروجهم من ذلك المكان واستئناف الرحلة في اليوم التالي حيث سارت القافلة مع أول بزوغ لنور الفجر نحو مجموعة البيوت التي قاموا بزيارتها في الرحلة السابقة حيث

وصلوها بعد عدة أيام من السفر الشاق والمتعب . ولكنه لحسن الحظ كان خاليا من أية أحداث معرقلة . وعند وصولهم إلى تلك البيوت ذهب مصطفى يبحث عن صديقه تاجر الأسلحة من أجل إتمام الصفقة الجديدة معه حيث التقاه في نفس منزله السابق الذي يقع في وسط تلك البيوت، وبعد التحية والسلام أثناء شربهم للشاي كما هي العادة في الحياة اليومية الليبية انتقلوا للحديث عن عملية بيع وشراء الأسلحة حيث استطاعا الاتفاق سريعا حولها .

وبعد إتمام هذه الصفقة سأل مصطفى الدليل المرشد للقافلة حول ضرورة استبدال الجمال التي غنمت من الدورية الايطالية بغيرها لأن جمال الدورية الايطالية تحمل السمة أو العلامة الخاصة بالجيش الايطالي، ولهذا فإن استعمالها يجعل القافلة في حالة تعرضها للتفتيش من قبل دورية أخرى متلبسة بتهمة جاهزة، وقد اتفق الرجلان على القيام بذلك . وعلى حوالي الساعة الرابعة من مساء اليوم التالي حضر تاجر الأسلحة ومعه طابور طويل من الجمال محملة بالبضاعة التي تم الاتفاق على شرائها، حيث كان مصطفى ورمضان في انتظاره بالخيمة الرئيسية من المخيم الصغير الذي أعده رجال القافلة، وبمجرد اقترابه منهما تبادلا معه التحية والسلام ثم دعياه للدخول إلى الخيمة باستعمال الكلمة التقليدية « تفضل !»

كان رمضان حاضرا لجميع مراحل إتمام عملية البيع والشراء، وذلك بغرض استيعابه لكل جوانب الحركة التجارية لهذا النوع من البضاعة وفقا لما أوصى به أستاذه العميد لأنه في تقدير ذلك الأستاذ الشيخ فإن رمضان سيكون الشخص الذي سيخلفه في يوم ما في قيادة حركة الجهاد من أجل تحرير ليبيا من براثن الاحتلال الايطالي، وهكذا عمد مصطفى إلى تنفيذ توصية الأستاذ العميد الذي رأى أن رمضان يمتلك مواصفات استثنائية ولهذا لابد من العمل على إعداده إعدادا جيدا . لقد لاحظ مصطفى أنه في كل مرة تتعرض فيها القافلة لهجوم مسلح كان رمضان يحافظ على هدوئه ويتابع بدقة وعدم انفعال ما يجري من أحداث عاملا على إيجاد تفسيرات منطقية لما يحدث وما يجب أن يفعل بشأنه .

ورغم أن رمضان لم يشارك فعليا في المعارك أثناء تعرض القافلة للهجوم تنفيذا لشرط مسبق وضعه الأستاذ الشيخ زعيم حركة الجهاد من أجل السماح له بالسفر مع القافلة، إلا أن المواصفات المذكورة التي كانت لديه تبرهن على أنه شخص شجاع وهذا أمر أساسي لابد له أن يتوفر لدى أي زعيم .

وعند الانتهاء من صفقة الأسلحة استراحت القافلة يوما آخر وتزودت بالمؤن والماء لا لغرض سد احتياجات القافلة أثناء السفر فحسب بل أيضا من أجل زيادة كمية الاحتياطي من المؤن والماء في منطقة الصخرة التي خبأوا فيها كميات مماثلة من قبل . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي كانت القافلة تسير في طريق العودة حيث كان الجو معتدلا مما يبشر برحلة طيبة . وهكذا اتخذت القافلة طريقا مغايرا للطريق الذي تسلكه باقي القوافل مثلما تم إقراره سلفا من قبل أغلبية أفراد القافلة، حيث لم يلتقوا في أول أيام السفر أية قافلة أخرى أو أي مسافرين آخرين على الإطلاق .

وحين وصلوا إلى منطقة الصخرة كانوا فرحين لأنهم لم يواجهوا أية مشاكل في الطريق ولأنهم أيضا وجدوا هذا المكان مثلما تركوه تماما، مما يعني أن قرارهم باختيارهم له كان قرارا صائبا لأنه مكان غير معروف ونادرا ما تمر منه القوافل المسافرة بسبب عدم وجود بئر ماء ترد اليه القوافل وتتزود بالمزيد من الماء منه . وهكذا استراحت القافلة ثلاثة أيام بهذا المكان كان مصطفى خلالها على تواصل مستمر مع رمضان حيث اتفق مصطفى والدليل المرشد للقافلة على اغتنام هذا الوقت لكي ينقلا إلى رمضان كافة أسرار الحياة في الصحراء، وما يتوجب على المرء عمله من أجل التغلب على الصعاب التي تواجهه فيها .

وبهذه الطريقة استطاعا أن ينقلا خبراتهما شيئا فشيئا إلى رمضان الذي كان من جانبه مهتما جدا بمعرفة كل هذه الأمور لأنه كان يدرك أنه سيأتي يوم يتولى فيه قيادة أشخاص آخرين في هذه الصحراء المقفرة القاحلة وذات الطبيعة المتغيرة الخادعة، وخاصة فيما يتعلق بالكثبان الرملية والرمال المتحركة وهذه كلها مسائل لا تسمح للمسافر فيها أن يتجاهلها لأن تجاهلها يعني الانتحار . مكثت القافلة في راحة تامة بهذا المكان إلى أن جاء اليوم المتفق عليه لاستئناف السير في ذلك الطريق الطويل للعودة، حيث انطلقت في أواخر الليل واثقة من نفسها، متنقلة بين الكثبان الرملية فوق الرمال الناعمة نحو وجهتها الأخيرة . كان سيرهم هذه المرة بطيئا بسبب رمال الصحراء الممتدة التي بدت أمامهم متألقة ساحرة وكأنها موج البحر .

وبعد سفر دام اثني عشر يوما وصلت القافلة إلى الواحة الصغيرة التي لا يوجد بها سوى نبع واحد للماء الجوفي المتوفر بكميات قليلة وسبع نخلات أعطت لهذه الواحة اسم واحة النخلات السبع . كانت الخيام التي نصبت في تلك الواحة تتبع البدو الرحل الذين لم يكن يعرف عنهم الكثير، ولم يكن بها سكان مقيمون . كانت هذه الواحة الصغيرة معروفة بالدرجة الأولى لبعض المرشدين للقوافل المسافرة عبر الصحراء، وكانوا يطلقون عليها

أيضا واحة نخلات النبي السبع ؛ بيد أنه لا يعرف أحد متى وكيف أُطلق عليها هذا الاسم، وفي كل الأحوال فالاسم ليس مهما كثيرا لقافلة مصطفى لأن المهم أن هذه الواحة موجودة وهي مفيدة للتوقف بها بالنسبة لجميع أولئك الذين يعرفونها .

وصلت قافلة رمضان أخيرا، وكان جميع أفرادها سعداء ممنونين رغم أن القافلة لم تصل إلى نهاية رحلتها بعد، ولكنها وصلت إلى المكان الذي يتم فيه تسليم الأسلحة للمجاهدين، وكان هذا هو الشغل الشاغل للجميع لأنه إذا ما اعترضتهم دورية ايطالية فسيكون ذلك شرا مستطيرا . كان في انتظار القافلة منذ بضعة أيام رئيس حركة المجاهدين الليبيين ضد الاستعمار الايطالي الذي حضر من أجل استلام الأسلحة، وبمجرد أن وصلت القافلة تم دعوة أفرادها إلى خيمته من أجل إبلاغهم بأخبار هامة جدا . كان رئيس حركة الجهاد رجلا ليس طاعنا في السن، ولكنه في عمر متقدم حيث توجه نحو رمضان بكل احترام وسلمه رسالة موجهة له قائلا : هذه رسالة مفتوحة بعث بها اليك الأستاذ العميد الرئيس الأعلى لحركتنا، وكما يمكن لكم أن تقرأوا فيها فهو يقترح على جميع أعضاء حركة المجاهدين أن يتم اختيارك رئيسا أعلى لحركتنا لأنك في رأيه تمثل الشخص الوحيد القادر على الإحلال محله في هذا الموقع الهام رغم صغر سنك . لقد بعثت برسائل إلى قادة فرق المجاهدين من أجل الاجتماع هنا والتعرف بك واتخاذ قرار بشأن ما يمكننا أن نفعله بعد استشهاد رئيسنا الأعلى منذ حوالي اسبوعين . لقد كتب رئيسنا الأعلى هذه الرسالة قبل استشهاده ونقلها الينا خفية شخص ذو ثقة مطلقة يعمل سرا كضابط اتصال بنا من داخل السجن الايطالي الذي نقل اليه رئيسنا الأعلى بعد أن تم اعتقاله في المنزل هو وباقي الأفراد الذين يسكنون معه رغم أنهم لا يملكون أية أدلة تدين باقي سكان المنزل .

كما أقدم لك كشفا مرسلا اليك من يوسف يحمل تفاصيل كل واحدة من العمليات التجارية للمحلات مشفوعة بأسماء الأشخاص وقيمة كل معاملة تجارية والمبلغ المخصص منها لك شخصيا . لكن جميع الأشخاص الذين كانوا موجودين في منزل معلومة تم اعتقالهم من قبل السلطات الايطالية، بيد أن اعتقالهم كان تحفظيا لا غير لأنه عندما يصل الموضوع إلى المحكمة ويكتشف القاضي عدم وجود أدلة ضدهم فسوف يأمر بالإفراج عنهم . وعندما لاحظ رئيس حركة المجاهدين علامات الحزن على وجه رمضان قال له : لا يجب عليك أن تقلق كثيرا بشأنهم لأننا أصدرنا الأوامر لمساعدتهم في كل ما نستطيع المساعدة به . أما الشباب الأربعة الذين كانوا يتولون جمع المساهمات الخاصة بالأعمال

التجارية التي قمتم بتأسيسها لهم فقد استمروا في عملهم وهم يقدمون كشفا تفصيليا لكل أعمالهم إلى شخص موثوق به من جانبنا، وهو بانتظار الالتقاء بكم في الوقت الذي ترونه مناسبا لكي يقوم بتسليمكم نصيبكم من العوائد التجارية .

حاول بعد ذلك إبراهيم - وهو اسم رئيس حركة الجهاد - أن يقوم بتغيير الموضوع قائلا لرمضان : بالنسبة لي شخصيا أنتم الرئيس الأعلى لحركتنا بيد أنه لابد من احترام آراء جميع فرق المجاهدين التي سوف يصل قادتها إلى هنا خلال الأيام القادمة . قال إبراهيم هذا الكلام ثم قام بتقبيل يد رمضان تعبيرا عن احترامه للموقع الجديد الذي سوف يشغله رمضان، وعلى إثر ذلك قام مصطفى والدليل المرشد للقافلة وكل الحاضرين بتقبيل يد رمضان تعبيرا عن مبايعتهم له لكي يشغل موقع الرئيس الأعلى للحركة، حيث كان جميعهم يستمعون بانتباه إلى الكلام الذي يوجهه إبراهيم إلى رمضان .

أما رمضان نفسه فقد قام بإبلاغ الحاضرين وبكل قوة وعزم بالرأي الآتي : أجل، إنني أقبل مبايعتكم لي، بيد أنني أريد أن تكونوا بحكم خبراتكم الطويلة وتمرسكم في قضية الجهاد - مستشارين دائمين لي لأنكم كما تعلمون لا زالت معلوماتي غير كاملة بخصوص مختلف جوانب قضية بلادنا وشعبنا، وهي القضية التي سوف أتولى موقع الصدارة في خدمتها، حيث أنني بفعل مساندتكم لي وعون الله القادر سوف أبذل كل جهدي من أجل تحرير وطننا .

وفي أثناء هذا الحديث كان رجال إبراهيم يجهزون خيمة خاصة مريحة لرمضان تقديرا لشخصه والموقع الجديد الذي سوف يشغله كرئيس أعلى لحركة الجهاد . كانت سليمة مندهشة وفرحة بهذه الخيمة الجديدة وما تشتمل عليه من وسائل الراحة، إضافة إلى المعاملة المتميزة التي أصبحت تحضى بها من الجميع، لكنها عندما رأت رمضان مقطب الجبين ويبدو منشغلا بأمر عظيم حاولت أن تعرف منه ما هي الأمور التي تقلقه، حيث جلست إلى جواره ووضعت يده بين يديها وسألته عما يقلقه قائلة له : هل قمت بأي شيء عن غير قصد مني أثار غضبك علي ؟ إذا كان ذلك كذلك فإنني أرجو أن تغفر لي هذا الخطأ لأنني لا يمكن أن أبلغ درجة الكمال المطلق، ولذا من الممكن أن أخطئ، ولكن إذا أبلغتني بالخطأ الذي وقعت فيه فإنني سأقوم بتصحيحه فورا وأعدك بألا يتكرر مني ثانية .

لكن رمضان ربت على يدها قائلا لها : لدي أخبار سيئة أريد أن أنقلها اليك وهي التي تشغلني ورغم أنها ليست أخبارا بالغة السوء إلا انني أتمنى دائما أن أسمع أخبارا

طيبة . أريد أن أقول لك أن معلومة وأولادها ويوسف تم اعتقالهم من قبل السلطات الايطالية، لكن إبراهيم قال لي إنه سيتم إطلاق سراحهم لعدم توفر أدلة لإدانتهم، ولكن الخبر السيئ فعلا وهو الذي يقض مضجعي هو خبر استشهاد الأستاذ العميد، فأنت تعلمين مدى تقديري واحترامي له ولحكمته، حيث يبدو أن السلطات الايطالية كانت تتجسس عليه منذ وقت طويل، وتقوم بجمع أدلة كانت في رأيهم كافية لإعدامه منذ حوالي أسبوع، وهكذا فإننا لن نستطيع أن نعود إلى بنغازي لأنه سوف يتم اعتقالنا بكل تأكيد وستتم محاكمتنا، وسيدفعون بنا إلى نفس المصير الذي آل اليه أستاذنا العميد الشهيد . ولهذا السبب فإننا سوف نعيش هنا اعتبارا من اليوم بين صفوف رجالنا المجاهدين أسود الصحراء التي فيها ولدنا والتي تعبر عن أصالة وطننا .

مكثت سليمة تبكي في صمت إثر سماعها لتلك الأخبار المفجعة وخاصة خبر إعدام الأستاذ العميد الذي يكن له الجميع كل التقدير، بيد أن رمضان عندما لاحظ عليها ذلك خاطبها قائلا لها : لا تبكي يا سليمة، إنني أرجوك، لكنك الآن تعلمين سبب انشغالي رغم أنني كنت أود ألا أنقل اليك تلك الأخبار، لكنه من الضروري مواجهة كل صروف الدهر بشجاعة، هذا بالإضافة إلى أن أستاذنا العميد ترك خطابا قبل استشهاده يوصي فيه قادة فرق المجاهدين باختياري كرئيس أعلى لهم حيث أعتقد أن جميع الحاضرين حاليا في هذه الواحة زكوا هذه التوصية، ولم يبق سوى عقد الاجتماع العام لفصائل المجاهدين لمشاورتهم في مسألة هذه التوصية التي تقضي باختياري رئيسا أعلى لحركة الجهاد من أجل تحرير ليبيا . أما أنا فقد قبلت بهذه المهمة على الرغم من صغر سني لأنني واثق أنه بمرور الزمن ومن خلال مشورة أهل الرأي، وبفعل حماسي المطلق لقضية وطني وتوفر الإمكانات الاقتصادية لدي ـ كل ذلك قادر على أن يجعل مني واحدا من أفضل قادة النضال المستمر لشعبنا ضد طغيان المستعمرين . واستمر رمضان قائلا : لابد أن تصبح ليبيا بلدا حرا ذا سيادة شأنه شأن بلدان كثيرة أخرى، ولا يمكن لنا أن نسمح بأن تبقى بلادنا ترزح تحت حكم المستعمرين الذين يضطهدون شعبنا ويحتقرون ديننا وتقاليدنا . إنني لا أمارس الجهاد من منظور الانتقام من هؤلاء المستعمرين الذين قتلوا والدي ووالديك أنت وتركونا نعاني الهموم بفعل فقداننا للأهل، وبفعل الظروف التعسة التي أوقعونا فيها، لكني أمارس الجهاد من أجل صون كرامة شعبنا، ولأننا دولة مستقلة عنهم يجب أن تكون مسئولة عن تقرير مصيرها بنفسها . لذا يتوجب علينا أن نناضل كأشخاص ناضجين، ونسعى بعيدا عن روح الانتقام إلى أن نضع بلدنا في مصاف البلدان الأخرى

لأننا لا نريد أن نكون أفضل ولا اقل شأنا منها .

كانت سليمة تستمع بشغف إلى كلمات رمضان التي كانت تلج مباشرة إلى روحها، ولم يكن إعجابها بكلماته منطلقا من مجرد تقديرها الكبير لشخصه . أما مخيم المجاهدين في هذه الواحة الصغيرة فقد رفع هذا الخبر من همة رجاله الذين استبشروا خيرا به وأصبح محور حديثهم في مختلف الخيام التي نصبت في هذا المكان . ولكي يتجنبوا حدوث أية مفاجآت غير سارة فقد وضعوا برنامجا للحراسة حول المخيم وفي نقاط إستراتيجية أخرى تبعد بضعة كيلو مترات عن المخيم .

وخلال الثلاثة أيام اللاحقة وصلت إلى الواحة مجموعات صغيرة تمثل قيادات حركة المجاهدين المنتشرة في مختلف أرجاء التراب الليبي وبعض بلدان الجوار . وعند تكامل وصول أغلب المجموعات الرئيسية لحركة الجهاد الليبي اجتمعوا في الخيمة التي خصصت لرمضان، ورغم أنها كانت أكبر الخيام إلا أنه كان لابد من نصب خيمتين إضافيتين إلى جوارها من أجل استيعاب كافة وفود حركة المجاهدين . وقد بدأ مصطفى الحديث حيث قرأ بصوت عالٍ نص الخطاب الذي وجهه الرئيس الأعلى لحركة الجهاد الذي طالته يد الغدر الاستعماري والذي كان ينال من الجميع كل التقدير والاحترام، ثم أوضح للحاضرين بشكل واضح وجلي الغاية من هذا الاجتماع.

بيد أن الأسلوب البلاغي الرائع الذي صيغ به الخطاب، وطريقة الإلقاء الحماسية لكلماته من خلال مصطفى كانتا كفيلتين بإقناع الحاضرين بتوصية الأستاذ العميد الشهيد، وصفق الجميع تأييدا لهذه التوصية التي تقضي باختيار رمضان رئيسا أعلى لحركة المجاهدين الليبيين ضد الاستعمار الايطالي من أجل تحقيق حرية ليبيا والليبيين التي كانوا جميعا واثقين بمشيئة الله وعونه من تحقيقها في يوم ما، وعلى إثر هذا القرار الذي اتخذ بالإجماع قام مصطفى بتقديم خاتم الأستاذ العميد إلى رمضان كرمز لانتقال قيادة حركة الجهاد اليه، ثم قام قادة فصائل المجاهدين واحدا تلو الآخر بالمرور أمام رمضان لتقبيل يده تعبيرا عن تأييدهم لرئاسته لحركة الجهاد واستعدادهم لتنفيذ أوامره المتعلقة بمختلف شئونها .

ومن ناحيته أعلن رمضان في كلمات قليلة هادئة وواضحة عن اختياره لإبراهيم ومصطفى والدليل المرشد للقافلة واسمه حامد كمستشارين دائمين له لمعاونته في تحمل عبء المسئولية المعقدة وهو في مقتبل العمر، ثم أردف قائلا : أريد أن أقول أمامكم بشكل واضح وجلي أنني في عمر قد لا يؤهلني لإدارة حركة الجهاد بشكل واثق، حيث أنها حركة

متشعبة الأطراف وقيادتها تمثل مهمة جديدة تماما بالنسبة لي خاصة وأنها تعني أن أتولى شئون حركة المجاهدين في كامل التراب الليبي . لكني بعون من الله، ومن خلال المشورة الصادقة التي سوف يقدمها لي إبراهيم ومصطفى وحامد فإنني آمل أن أتمكن من أداء واجبي الوطني الذي هو جزء من الواجب الوطني لكل المجاهدين المجتمعين هنا .

صفق الحاضرون جميعا إعجابا بهذه الكلمات القليلة الراجحة التي نطق بها رمضان وبعد وقت قصير غادر الجميع مقر الاجتماع من أجل أن يجتمع كل واحد من الحاضرين بأفراد مجموعته لكي يبلغهم بما اتخذ من قرار .





الفصل السابع

بيعة رمضان

استطاع رمضان وهو ابن السادسة عشرة ربيعا أن يحصل على مبايعة المجاهدين له بشكل كامل، وإن كان ذلك أمرا يفوق قدراته وهو ما دفعه بسرعة إلى اختيار إبراهيم ومصطفى وحامد ليكونوا مستشارين دائمين له منذ اللحظة التي تمت فيها مبايعته . كما أن هؤلاء المستشارين الثلاثة بذلوا أقصى جهدهم لنقل معارفهم وخبراتهم اليه مثلما ينقل الأستاذ معارفه وخبراته إلى طلابه، وكان ذلك أمرا ضروريا من أجل ضمان أن تكون هذه البيعة تخدم قضية تحرير ليبيا والليبيين من براثن الاستعمار الايطالي .

لقد قام هؤلاء المستشارون بنقل خبراتهم ومعارفهم إلى رمضان بدءا من كيفية ركوب الخيل إلى طرق استعمال الأسلحة النارية والأسلحة البيضاء، إلى كل الأسرار والتفاصيل اللازمة لجعله من أفضل المحاربين الأشداء في صفوف المقاومة الليبية . وخلال فترة الاستراحة التي يتحلقون فيها حول النار تحت السماء الصافية المزدانة بالنجوم لشرب الشاي كان المستشارون يقدمون له دروسا نظرية تتضمن كل ما يتوفر لديهم من معارف اكتسبوها بحكم الخبرة .

وخلال ستة أشهر تحول رمضان إلى إنسان متكامل الرجولة، يعكس في فكره وسلوكه ما تلقاه من معارف وخبرات جعلته أكثر استعدادا لمواجهة كل التحديات التي تواجهه والتغلب عليها مهما كانت درجة صعوبتها . أما الأخبار القادمة من بنغازي فقد كانت أقل إزعاجا ؛ ذلك أن معلومة وأبناءها الثلاثة ويوسف قد تم إطلاق سراحهم وعادت المياه إلى مجاريها . أما سليمة فقد كانت السلطات الايطالية تبحث عنها باسمها المسجل في عقد زواجها من خليفة وهو مبروكة، ورمضان بحثت عنه السلطات الايطالية لأنه كان يقيم في نفس المنزل الذي كان يقيم فيه الأستاذ العميد الرئيس الأعلى لحركة الجهاد، وكل هذه المعطيات جعلت رمضان يقرر عدم العودة إلى بنغازي لتفادي أية مشكلات غير متوقعة، لكنه زود عناصر المجاهدين في بنغازي بخارطة تفصيلية توضح مكان النقود التي خبأها داخل المنزل وفي مقر إقامته القديم لكي تصبح هذه الأموال الملاذ الأخير الذي يمكن الرجوع اليه إذا ما تم استنفاد ما لدى الحركة في عمليات شراء الأسلحة حيث تم إرسال

هذه الأموال اليه إضافة إلى حصته المالية في المشروعات التجارية التي أقامها في بنغازي مما وفر لديه مبلغا كبيرا من المال يستطيع دون أدنى شك استثماره في قضية تحرير ليبيا وشعبها من الاستعمار الايطالي وهذه هي مهمته الأولى والأخيرة باعتباره الرئيس الأعلى الجديد لحركة الجهاد .

بيد أن هذه الحركة الكثيفة داخل تلك الواحة الصغيرة كان يبدو أن الايطاليين كانوا يراقبونها، حيث لوحظ ذات يوم اقتراب كتيبة عسكرية إيطالية كبيرة من الواحة كانت مزودة بأسلحة ثقيلة وتجهيزات متطورة، وهو أمر كان يمكن أن يؤدي إلى كارثة محققة لولا تنبه المجاهدين إلى ضرورة توفير حراسة في أماكن إستراتيجية خارج الواحة لأن أي مواجهة غير متكافئة مع هذه الكتيبة الضخمة تعني الانتحار .

وبمجرد أن أخذ المجاهدون علما بتقدم هذه الكتيبة الايطالية نحو الواحة قاموا في أقل من ساعة بتقسيم أنفسهم في مجموعات عديدة من القوافل وعمدوا قدر المستطاع إلى مسح كل الآثار التي تركوها في الواحة كي لا يستطيع الايطاليون تقدير عدد الأشخاص والإبل التي كانت موجودة في الواحة . إقترح رمضان أن تغادر قافلته هو باتجاه منطقة الصخرة لأنه من الممكن اختفاء آثار أقدام الإبل في هذا المكان، خاصة وأنه لا يمثل طريقا للقوافل . أما باقي مجموعات القوافل فقد اتجهت نحو مناطق مختلفة وفقا لما ارتآه قائد كل مجموعة . كان رمضان لا يعلم كم من الوقت سيمكث في منطقة الصخرة، ولذا قام باختيار اثنين من زملائه في القافلة السابقة لكي يذهبا إلى بنغازي باعتبارهما من أهل تلك المدينة ويخبرانها جيدا، وكانت المهمة المكلفان بها هي تحسس كل الأخبار والمعلومات عن تحركات القوات الايطالية ثم يقوم هو بإرسال شخص من منطقة الصخرة إلى بنغازي للاتصال بهما والاستماع إلى المعلومات التي قاما بجمعها ثم نقلها اليه في منطقة الصخرة بحيث يكون هناك تدفق دائم للمعلومات باتجاه مركز قيادة حركة المجاهدين، كما قامت كل مجموعة من فرق المجاهدين بإرسال مندوبين لمعرفة الطريق المؤدي إلى مركز القيادة الجديد للتواصل معها كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

كانت قافلة رمضان تتكون من ثمانين رجلا كان ثلاثون منهم يتبعون فرق المجاهدين أُرسلوا لمعرفة الطريق المؤدي إلى مركز القيادة الجديد لحركة الجهاد . أما الباقي فهم عماد القافلة يضاف اليهم بطبيعة الحال المستشارون الثلاثة لرمضان . كما كان ضمن القافلة أيضا عشر نساء كن إما زوجات وإما بنات للمجاهدين المسافرين في قافلة رمضان ممن فضلوا عدم الانفصال عن أسرهم أثناء تأدية واجباتهم الوطنية . امتطى رمضان هذه

المرة صهوة جواد عربي أصيل أهداه اليه الشيخ المجاهد إبراهيم مثلما أهدى جوادا آخر لسليمة التي رغم أنها تعلمت في الواحة ركوب الخيل إلا أنها فضلت أن تسافر على ظهر بعير لأنه بدا لها أكثر راحة واحتماء من الحر والرياح المحملة بالأتربة بفعل الهودج الذي وضع بعناية على ظهر الجمل لوقايتها من متاعب السفر عبر الصحراء .

كان رمضان بطبيعته حذرا، وهو ما حدا به أثناء فترة الإقامة بالواحة إلى التفكير في مسألة احتمال الاضطرار إلى الإخلاء السريع للواحة ومغادرتها إلى أماكن أخرى بفعل ظروف طارئة، ولذا أرسل وفدين واحدا إلى بنغازي والآخر إلى العاصمة الليبية طرابلس لغرض شراء كميات احتياطية من الأغذية والمؤن وإحضارها . تعمد رمضان إرسال وفدين إلى مكانين مختلفين حتى يتفادى تعرض رجاله لإشتباه السلطات الايطالية بنواياهم إذا ما قاموا بشراء كميات كبيرة من المواد الغذائية من مكان واحد . كان رمضان قد أفاد كثيرا في شراء الأغذية والمؤن من المبالغ المرسلة اليه من بنغازي والتي تمثل حصته من العوائد المالية للعمليات التجارية التي أسسها منذ زمن طويل هناك، ولحسن الحظ فقد عاد الوفدان من طرابلس وبنغازي محملين بالسلع المشتراة قبيل اتخاذ قرار الخروج من الواحة .

كانت قافلة رمضان محملة بكميات كبيرة جدا من الأغذية والمؤن لأنه قرر أن يجعل من منطقة الصخرة مركزا لقيادة حركة الجهاد لأنها منطقة غير مطروقة لا يؤمها المسافرون، وهي تمثل مكانا ملائما لهذا الغرض . حمل رجال مصطفى إبل القافلة بالأمتعة، لكنه بالنظر إلى ضخامة كميات الأغذية والمؤن والمياه فقد تم الاستعانة بستين بعيرا إضافيا لنقلها من الواحة إلى مقر القيادة الجديد .وبعد رحلة روتينية عادية وصلت القافلة إلى منطقة الصخرة حيث كان كل شيء على نفس الوضع الذي كان عليه في آخر إقامة لقافلة رمضان .

إختار رمضان ورجاله فجوة طبيعية موجودة بين إثنين من الكثبان الرملية الضخمة حيث قاموا بايداع المواد الغذائية والمؤن وقِرب الماء بها، ثم قاموا بتغطيتها بقطع من القماش، وردموها بكميات كبيرة من رمال الصحراء الناعمة لكي لا يستطيع أي شخص آخر غيرهم اكتشاف وجودها في هذا المكان ثم عادوا إلى حيث يوجد الكهف ونصبوا خيمة رمضان وسليمة أمام الفتحة الخارجية له مثلما كان الأمر أثناء فترة اقامتهم السابقة بهذا المكان لأن هذا الموقع بالتحديد هو أفضل مكان محمي وآمن . وبالنظر إلى أن خيمة رمضان كانت أكبر الخيام فقد بذلوا كل جهدهم ومهاراتهم لكي تنصب بأفضل ما يمكن، كما كان المستشارون الثلاثة قريبين جدا من رمضان وسليمة لغرض مساعدتهما في حالات الضرورة .

حاول رجال القافلة نصب خيامهم بطريقة تجعل الإقامة فيها مريحة وتجعلها في نفس الوقت مخفية عن الأنظار قدر الإمكان كي لا تثير انتباه الآخرين . وعقب الانتهاء من هذه المهمة جلس الجميع في خيمة رمضان للتباحث حول جميع المشكلات المتوقعة وكان أبرزها مشكلة صعوبة التزود من جديد بالماء حيث لا يوجد مكان قريب يمكن الورود اليه . بيد أنهم كانوا متعبين جدا من عناء السفر ولذا قرروا تأجيل البت في هذه المسألة إلى اليوم اللاحق عندما تكون أذهانهم أكثر صفاءً وقدرة على التفكير .

وبعد دراسة مختلف البدائل رأى رجال رمضان أن أنسب حل لمشكلة المياه يتمثل في تجهيز خمسة من الرجال وعشرة من الإبل كل أسبوع لكي يتم بشكل تناوبي الورود إلى أقرب بئر والتزود بالماء بحيث تكون هناك حركة إمداد دائمة للمخيم بالماء ؛ ذلك السائل الذي لا يقدر بثمن . وفي اليوم التالي رجع الثلاثون رجلا الذين جاءوا لمعرفة المقر الجديد لحركة الجهاد وعادوا للالتحاق بفرق المجاهدين التي يتبعونها بعد أن اتفقوا على أن يحضر كل واحد منهم مرة في الشهر إلى مقر القيادة لتزويدها بالمعلومات وتلقي التعليمات . وبهذا الإجراء تم حل مشكلتين في آن واحد : مشكلة التزود بالمياه ومشكلة التواصل بين مقر حركة الجهاد وفرق المجاهدين المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد، ولم يتبق سوى الاتفاق على موضوع الحراسة حيث أقروا تخصيص حراسة دورية تتمركز في أعلى المواقع من هذه المنطقة الصخرية من أجل التمكن من ملاحظة ما يدور على بعد عدة كيلو مترات، حيث قاموا باستخدام المناظير المقربة لكي يستطيعوا الحصول على رؤية أفضل وأشمل للبيئة المحيطة، وبالتالي الإسهام في حل مشكلة توفير الأمن للمخيم . ولزيادة تأمين مقر القيادة الجديد فقد تم نصب رشاشات ثقيلة مصوبة في اتجاهات استراتيجية، وكلف بها أفضل المجاهدين القادرين على استخدامها بالشكل الأمثل . وهكذا اتخذ رجال مصطفى كافة الاحتياطات الضرورية لتأمين المكان، وضمان عدم تعرضهم لمفاجآت غير سارة حيث أنه رغم أن هذا المكان ليس مطروقا إلا في ما ندر، لكنه أفضل للإنسان أن يحتاط لنفسه من أن يأسى على ما أصابه مثلما يتردد تكرارا على لسان مصطفى .

أقام رمضان وسليمة في الخيمة الخاصة التي أعدت لهما حيث تم تجهيزها أفضل تجهيز ضد حرارة الشمس القوية والرياح المحملة بالأتربة، لكنها كانت في كل الأحوال محمية بشكل جيد بفعل إطلالها على مدخل الكهف مباشرة، وهو ما جعل بالإمكان إيقاد النار داخلها ليلا دون أن يرى ضوء النار خارجها . أما بالنسبة لباقي الخيام فقد تم حظر

إشعال النار داخلها بعد مغرب الشمس حتى لا ينبعث منها نور أو يرى في الجو تصاعد الدخان الأبيض منها . وقد كان الإجراء المتبع يتمثل في أنه بعد العشاء من كل ليلة يجتمع المستشارون الثلاثة مع رمضان لمناقشة المستجدات التي تطرأ كل يوم، وكان رمضان قد وزع الاختصاصات في مركز قيادة حركة الجهاد على النحو التالي : رمضان هو الرئيس الأعلى لحركة الجهاد، وإبراهيم يمثل القائد العام لكل عناصر المجاهدين، ومصطفى مكلفا بشئون الدفاع والحراسة، وحامد مسئولا عن النقليات والتموين .

وبعد مضي بعض الوقت على الإقامة في هذا المكان عمد رمضان كعادته إلى إخفاء الاحتياطي من النقود التي كان يضعها في كيس من قماش كي لا تتعرض للتآكل بفعل عوامل الطبيعة ثم قام بحفر هوة بعمق حوالي متر داخل الكهف لكي يردم بها تلك النقود . لكنه لاحظ أنه في هذا العمق توجد رمال ناعمة رخوة تغوص فيها قدماه عندما يقف في هذه الحفرة لدرجة الشعور بأنه يكاد ينزلق نحو الأسفل مما حدا به إلى الشد بكلتا يديه في جوانب تلك الحفرة لكي يمنع عن نفسه مزيد الانزلاق في قاعها لكن بلا جدوى، حيث استمرت قدماه تغوصان إلى أن ارتطمتا بما يشبه الرصيف . كما لاحظ أنه يمكن من داخل تلك الحفرة رؤية النور المنبعث نحو فوهة الكهف، لكن ما عدا ذلك كان مظلما . لكن أغرب ما في الأمر ـ كما لاحظه رمضان ـ كان شعوره بأن ريحا خفيفة مشبعة بالرطوبة تهب في اتجاه الحفرة رغم أن المكان كله كان جافا .

مد رمضان بصره في مختلف الاتجاهات عله يجد تفسيرا لهذا الأمر، لكن كل شيء كان مظلما ما عدا فوهة الكهف . كان بوده أن يستمر في محاولة اكتشاف سر تلك الحفرة التي تعمقت وكأنها بئر، لكنه كان متعبا وجسمه يقطر عرقا . أراد الخروج من الحفرة والعودة إلى حياته الطبيعية، لكن حب الاستطلاع لديه جعله يتجه نحو الخيمة ويحضر معه مصباحا كان معلقا في ركيزة الخيمة احتياطا لأي طارئ . ربط رمضان هذا المصباح بحبل واتجه به نحو هذه الحفرة لكنه لم ير شيئا . لم ييأس رمضان حيث قام بربط حبل في ركيزة الخيمة، وربط طرفه الآخر في خصره، وأخذ معه المصباح ونزل داخل الحفرة التي كانت ترتبط بنفق صغير على هيئة قمع، وعندما وصل إلى القاع توقف وأخذ يدير ذراعه بالمصباح في اتجاهات مختلفة، لكنه لم يلاحظ شيئا . كان قاع الحفرة تحت قدميه ثابتا تعلوه رمال ناعمة متماسكة ولذا قرر أن يخطو قليلا داخل النفق عله يرى شيئا من خلال نور المصباح، لكنه لم يلاحظ أي شيء قد يشكل مصدر خطر على حياته ؛ بيد أنه لاحظ أنه كلما تقدم قليلا تزداد رطوبة الهواء المنبعث داخل الحفرة، ثم ما لبث أن سمع

بعد لحظات صوت خرير الماء، إلا أنه لم يستطع أن يتقدم إلى مسافة أبعد لأن الحبل المشدود بين خصره وركيزة الخيمة قد وصل إلى نهايته، وفي كل الأحوال اكتشف أن هذا المكان متسع لأن الحبل الذي كان يستعمله كان طوله يقرب من عشرين مترا ولم يصل إلى نهاية هذا المكان بعد، كما أنه لم ير جوانب هذا المكان أو سقفه، ولهذا كان حائرا في أمره لا يعرف ما إذا كان من الأفضل له أن يتقدم أو يتراجع .

استمر خرير الماء وكأنه ينحدر من شلال صغير وكان صوت وقع المياه هذه المرة أقوى من ذي قبل . بقي رمضان متمسكا بالحبل المشدود على خصره كي لا يضيع في هذا المكان المجهول، لكنه تذكر أن الحبل المربوط به المصباح كان يساوي طول الحبل المشدود على خصره رغم أنه أقل سمكا، ولذا قرر ربط الحبلين ببعضهما، واستمر يمشي بحذر من أجل استكشاف المكان الذي اتضح أن مساحته كبيرة نسبيا .

قرر رمضان أن يتجه بحذر شديد نحو المكان الذي يصدر منه خرير الماء حيث كان يدير بالمصباح قدامه لكي يكتشف المكان أولا ثم يدوس بإحدى قدميه على أرضية المكان الذي يريد أن يتقدم نحوه أكثر من مرة لكي يتأكد أنه ليس رخوا أو قابلا للإنزلاق في اتجاه آخر . وعندما تأكد أن كل شيء كان طبيعيا في هذا المكان وليس هناك ما يشكل خطرا عليه كانت المشكلة الأساسية هي أن المصباح غير قادر على توفير الإضاءة الكافية في هذا المكان الشديد الإظلام، لكنه في كل الأحوال لم يكن يرغب أن يستعجل الأمور بشكل قد يقود إلى الوقوع في أخطاء يمكن تفاديها .

كان أول الأشياء التي انتبه اليها أنه لا يجب أن يستمر لوحده مستكشفا هذا المكان العميق وغير المعروف، لكن كبرياءه الشديد أقنعه بالاستمرار ونبذ الخوف جانبا لكي يبرهن لنفسه أنه أصبح فعلا رجلا قادرا على الاعتماد على نفسه، وليس مجرد صبي يسعى إلى مساعدة الآخرين له لمواجهة أي موقف أو حل أي مشكلة قد تعترض طريقه . وهكذا استمر رمضان يخطو شيئا فشيئا وبثقة أكبر حاملا المصباح في مستوى أعلى من رأسه بقليل، وفجأة لاح له وميض نور من الجهة التي كان يسمع منها صوت وقع المياه، ولذا اتجه مباشرة إلى هذه النقطة، وبعد أن مشى بضع خطوات وجد نفسه ـ ويا للعجب ! ـ واقفا على حافة بركة ماء يبلغ قطرها ثلاثة أمتار تقريبا، وكانت مياهها تنساب من عين تتفجر وسط صخور توجد في أحد جوانب هذا المكان حيث كان انسياب المياه من أعلى هو الذي يحدث صوت وقع المياه الذي كان يستمع اليه . وبفرحة غامرة بدأ استكشاف معالم هذا النبع حيث لاحظ أن مجرى انسياب مياه النبع إلى أسفل كان قطره حوالي

ثلاثة سنتيمترات .

كانت سعادة رمضان بهذا الاستكشاف لا توصف لأنه إذا ما اتضح أن مياه هذا النبع صالحة للشرب فإن ذلك يعني توفر ثروة لا تقدر بثمن . وعند هذه النقطة لم يشأ رمضان أن يستمر في رحلة الاستكشاف بل قرر العودة بنفس الطريقة التي أتى بها متتبعا خطاه ومستعينا بالحبل المشدود إلى الخيمة وهو كله انشراح إزاء هذا الحظ السعيد الذي حالفه بمحض الصدفة . استطاع رمضان بسهولة العودة من حيث أتى، وبمجرد أن أطل برأسه خارجا من الحفرة وجد سليمة واقفة هناك وهي كلها انشغال إزاء ذلك الحبل المربوط بين الخيمة والحفرة، وكان همها أن تعرف ماذا يفعل رمضان في ذاك المكان، ولذلك بادرت رمضان بالقول : لقد انتابني الخوف عندما لم أرك ولم أر سوى هذا الحبل المتدلي داخل الحفرة، ولقد اطمأننت الآن بعد أن رأيتك تصعد من فوهة الحفرة، فهل لك أن تخبرني ماذا كنت تفعل في أعماقها ؟!

لكن رمضان رد عليها قائلا : إذا لم أكن مخطئا فإنني اكتشفت شيئا لا يقدر بثمن . حيث علقت سليمة وبنوع من المزاح قائلة : هل اكتشفت كنزا مخبأً تحت الرمال ؟! بيد أن رمضان رد عليها بنبرة جادة قائلا : اكتشفت ما هو أثمن من كنز، اكتشفت وجود الماء . وعندها رددت سليمة بشكل لا شعوري : الماء في هذا المكان يا صديقي العزيز رمضان ؟! ربما توهمت وجود الماء ! لكن رمضان كان مصرا على رأيه فقال لها : يمكن لك رؤية هذا الماء بأم عينيك إذا كنت ترغبين في ذلك . تعالي لترينه بنفسك ؛ إذ ليس هناك خطر في المرور عبر هذه الحفرة لأنني مررت منها بنفسي، حيث يمكننا أن نذهب سويا لرؤية المياه . وردت سليمة بفرح غامر : نعم، أريد أن أرى هذه المياه . ذلك أفضل خبر أستمع اليه منك لدرجة أنني لا أكاد أصدقه. لكن رمضان قال لها بإصرار : أتبعيني ولا تخافي، سوف أحمل معي المصباح إلى أسفل الحفرة، وعندما أناديك اهبطي إلى داخل الحفرة ولا تخافي لأنني سأكون في انتظارك . لكن سليمة كانت دوما تشعر بالأمان في أي مكان يوجد به رمضان، وبمجرد أن هبط رمضان إلى داخل الحفرة تبعته سليمة ممسكة بيديها ورجليها بجوانب الحفرة كي تنزلق بشكل بطيئ إلى الداخل، وخلال ثوان قليلة كانت إلى جوار رمضان الذي كان بانتظارها وبيده مصباح الإنارة . أمسك بسليمة من يدها ثم سار بها نحو نفس الوجهة التي سار فيها بمفرده، وكان هذه المرة أسرع في خطواته وأكثر ثقة لأنه خبر المكان .

لم يكن يُرى إلا القليل في بداية الأمر، لكن عندما وصلا إلى منبع الماء رأت سليمة انعكاس الضوء على الماء المنحدر من النبع حيث بدا ـ ويا للعجب ! ـ ماءً صافيا رقراقا مما

حدا بها إلى أن بسطت كفيها إلى الماء ونثرته في الهواء حيث بدا أمامها منظر سقوط الماء من علٍ منظرا جميلا خلابا امتلأت له نفسها فرحا، حيث خاطبت رمضان قائلة له : لديك كل الحق ! لقد اكتشفت ما هو أغلى من الذهب، ما هو أثمن من كل شيء وخاصة بالنسبة لنا في هذا المكان لأنه يوفر لنا الفرصة في أن نتزود بشكل دائم بالماء في هذا المكان المقفر . بقي لهما أن يعرفا ما إذا كان الماء صالحا للشرب أم لا رغم أن شكل الماء يوحي بأنه من أجود أنواع المياه، ولكن لمجرد التأكد من ذلك قررا أن يقدماه لبعض الإبل لكي تشرب منه خلال فترة احترازية لكي يتبدد الشك حول مدى صلاحية تلك المياه للشرب، كما اغترف رمضان بعض الماء وملأ به فمه ثم قال إن هذا الماء على أقل تقدير ليس مالحا، بل يبدو سائغا للشرب، لكنه من السابق لأوانه الآن إعطاء تقييم نهائي بشأنه .

والى جانب الماء اكتشف رمضان وسليمة وجود مغارة كبيرة الحجم يمكن استخدامها كمأوى للقافلة يقيها عصف الرياح الترابية وحرارة الشمس، بيد أنهما لم يقدرا على تحديد أبعاد هذه المغارة بشكل دقيق حيث ارتأيا أن الأمر يتطلب ضرورة إشراك مصطفى والمستشارين في عملية استكشاف دقيق لهذا المكان ؛ ذلك أنه على ما يبدو فإن هذا الاستكشاف لا يحل فقط مشكلة الماء بل مشكلة رجال القافلة وإبلهم كذلك . وهكذا قرر رمضان وسليمة العودة إلى المخيم من أجل نقل تلك الأخبار السعيدة إلى الآخرين .

كان رمضان أول من خرج من تلك الحفرة ثم أخذ يساعد سليمة في الصعود منها، وعندما وصلا الخيمة سمعا صوت مصطفى وهو ينادي رمضان الذي بادره بالسؤال عما إذا كانت هناك أخبار جديدة حيث أجاب مصطفى قائلا إن الأشخاص الذين بقوا لمتابعة حركة الجنود الايطاليين قرب الواحة قد جاءوا لأنهم لم يلاحظوا أية أمور غير اعتيادية في الواحة ولذلك تركوا اثنين منهم فقط لمواصلة مراقبة الموقف وعاد الباقون إلى هنا، واستطرد مصطفى قائلا : لقد جئت للبحث عنك لأنني استغربت عدم خروجك من الخيمة لاستطلاع ما يحدث بالمخيم رغم الحركة التي أحدثها به قدوم الثلاثين شخصا الذين تركناهم لمتابعة حركة الجيش الايطالي، كما أنني جئت لكي أبلغك أن رجالنا استهلكوا كميات كبيرة من الماء لأننا لم نقم بعد بإعادة التزود بالمياه، وهو أمر لابد لنا من معالجته لأن زملاء آخرين لنا في حركة الجهاد قدموا الينا للحصول على الماء نظرا لحاجتهم الماسة اليه .

لكن رمضان فاجأ مصطفى قائلا له : يا عزيزي مصطفى، إنني أعتقد أننا بحول الله قد توصلنا إلى شيء - رغم أنني لست متيقنا منه - كفيل بحل مشكلة المياه لدينا بشكل

نهائي . بيد أن مصطفى رد بصوت يحمل نغمة جادة قائلا : إن الموضوع الذي نناقشه الآن هو موضوع هام بالنسبة لنا رجال الصحراء، ولا يتوجب أن نتناوله بشكل مازح . ثم تساءل وعلى فمه ابتسامة ساخرة : وكيف لك أن تحل مشكلة المياه هذه ؟ لكن رمضان رد قائلا : أعتقد أن كلامي يستحق أن ينال منكم درجة عالية من المصداقية، لأنني أقوم بتأدية جميع التزاماتي بجدية ودقة، ولا أسمح لنفسي أن أتكلم عن موضوع حيوي كموضوع الماء بشكل ساخر . لكن مصطفى استمر في طرح تساؤلاته قائلا : وإذاً كيف يمكن لك أن تقول أنك تكاد توشك على حل مشكلة أنت تعرف تماما أن حلها ليس ممكنا ؟! وعندها رد رمضان بشكل غير انفعالي قائلا : أرجوك يا مصطفى أن تحضر إبراهيم وحامد وأربعة فوانيس للضوء وحبلا رقيقا ولكنه طويل، لأنني بمشيئة الله سوف أريكم أنه لا توجد مشكلة إلا ولها حل .

استمع مصطفى إلى حديث رمضان بانتباه، لكنه لم يشأ أن يستمر في مجادلته، حيث خرج لتنفيذ أوامر رمضان التي لم يكن مقتنعا تماما بها، ثم عاد بعد وقت قصير ومعه كل الأمور التي أمر بها رمضان . وعندما وصل إبراهيم وحامد تساءل إبراهيم : ما هو موضوع هذا الاجتماع الطارئ ؟ وعندما علم هو وحامد أن الأمر يتعلق بما ذكره رمضان من أنه استطاع أن يحل مشكلة التزود بالماء نظر كلاهما نحو رمضان وهما يبتسمان، ثم بادر حامد بالتعليق ساخرا : كيف لك أن تعتقد أنك استطعت حل مشكلة المياه ؟! هل قمت بحفر بئر بهذا المكان ؟! لكن رمضان رد بهدوء قائلا : أرجو أن تكفوا عن عبارات السخرية من كلامي أيها الرجال القانطون. إنني لا أريد أن أقول أي شيء يمثل استهزاءً بكلام أي واحد منكم، ولكن اتبعوني وسترون بأم أعينكم أن رحمة الله قريبة منا ومن قضية شعبنا . قال ذلك ثم أمسك بالفانوس طالبا من الثلاثة أن يمسك كل واحد منهم بفانوس مماثل من تلك التي أحضروها معهم .

سار رمضان نحو المكان الذي توجد به الحفرة، وأمسك بالحبل الذي كان معه ثم ولج إلى عمقها إلى أن غاب عن مجال رؤية الآخرين له، حيث مكثوا ينظرون في ظلام تلك الحفرة وهم غير مصدقين لما سمعوا . لكن رمضان خاطبهم قائلا لهم : تعالوا معي، لا تخافوا، حيث انزلق كل منهم في جوف الحفرة واحدا تلو الآخر ومعه الفانوس الذي يحمله في يده . لكن سليمة أحضرت لكل واحد منهم عصا طويلة من أجل ربط الفانوس بها لكي يتمكن كل واحد منهم من الرؤية إلى مسافة أبعد .

وعندما كانت كل الفوانيس المضاءة تشتعل وسط ظلام هذا المكان رأى الجميع أن

هناك تجويفا إلى أعلى في أحد مواقع هذا المكان بما يشبه القبة، لكنهم لم يستطيعوا بعد معرفة كل جوانب هذا المكان . كان رمضان يسير في المقدمة ومعه فانوسه المضاء والحبل الذي أحضره زملاؤه، وأخذ يسير بشكل أكثر ثقة لأنه سبق له أن دخل مرتين إلى هذا المكان من قبل . ولأن المكان بفعل الفوانيس الخمسة أصبح أكثر إضاءة من ذي قبل فقد وصلوا جميعا وخلال لحظات قليلة إلى النبع الذي كان صوت خرير مياهه يتردد بشكل متكرر لا يتيح مجالا لأي شك في وجود المياه . وعندما رأى ثلاثتهم ذلك اندهشوا جميعا دون أن يقدروا على التعبير عن اندهاشهم وكأن ألسنتهم قد انعقدت بفعل المفاجأة غير المتوقعة . نظروا جميعا في وجوم إلى المجرى الصغير الذي يتدفق وسطه الماء مثلما ينساب الماء من الإبريق ثم يصب في تلك البركة من المياه، لكن المياه داخل هذه البركة لا يرتفع منسوبها ربما بسبب امتصاص الرمال لها، وأخيرا انطلق لسان إبراهيم مجلجلا : والله لو أنني لم أر بأم عيني هذه المعجزة لما صدقت بها ! ثم أضاف حامد قائلا : بالتأكيد، لأن ما نراه يمثل أمرا غير مألوف ،وهو يذكرنا بما قاله المرحوم أستاذنا العميد، الرئيس الأعلى لحركة الجهاد من أنه يحمل تقديرا عاليا لرمضان، وأنه على يقين من أن عين الله ترعاه، وقد كان محقا في كل ما قاله . قال مصطفى ذلك ثم أخذ قليلا من الماء ووضعه في فمه، ولأنه شخص خبير بالصحراء وشئونها فقد قرر بعد ذلك أن يشرب من هذه المياه دون حذر قائلا لرفاقه : بإمكانكم أن تشربوا هذا الماء لأنه من أفضل إن لم يكن أفضل المياه التي شربتها في حياتي .

كانت سعادة الجميع بالغة، حيث قدموا تهانيهم لرمضان على هذا الاكتشاف عظيم القيمة، ثم علق مصطفى قائلا : لقد أنار الله طريق أستاذنا العميد عندما اقترح علينا أن تكون خلفا له، كما أنني أعتقد أنك بمشيئة الله تعالى ستكون الزعيم الذي يتم على يديه تحرير بلادنا . ثم اتجه نحو رمضان وواصل حديثه قائلا : أرجو أن تعذرنا عن تشككنا في مدى صدق كلامك في البداية، وهو ما لن يتكرر منا إطلاقا بعد الآن . أبدى مصطفى هذا الكلام وهو أكثر يقينا بما قاله المرحوم الأستاذ العميد الرئيس الأعلى السابق لحركة الجهاد من أن بعض الناس يولدون وهم ترعاهم عين الله، وبالتالي فإنهم يشقون طريقهم رغم كل الصعاب، ثم انحنى وأمسك بيد رمضان وقبلها تأكيدا على أنه سيكون صديقا لكل ما يتلفظ به رمضان، كما قام إبراهيم وحامد بتقبيل يد رمضان تأكيدا على نفس المعاني التي نطق بها مصطفى .

أما سليمة التي كانت تلاحظ الموقف عن قرب فقد أجهشت بالبكاء عندما رأت

صديقها العزيز رمضان ينال كل هذا التكريم من زملائه المجاهدين الثلاثة . وبعد انقضاء تلك الفترة المشحونة بالعواطف قرر الجميع استكشاف جميع جوانب هذا المكان من أجل أن يكونوا على بينة مما يحتويه من أسرار . سار مصطفى وحامد في المقدمة وهما يحملان المصابيح مربوطة على عصي حتى تكون إنارتها أوسع نطاقا، وسار خلفهما رمضان وسليمة ولحق بهما إبراهيم ذلك المجاهد الجاد والكبير في السن الذي كان يحمل مصباحا في يد وحربة في اليد الأخرى تحسبا لأي طارئ .

كانت أرضية المكان مسطحة ومتماثلة، حيث سار الجميع شيئا فشيئا بمزيد من الثقة حيث استطاعوا تقدير مساحة هذا المكان الذي يمثل امتدادا للكهف الذي حلوا به أولا وكان عرضه حوالي ثلاثين مترا وطوله حوالي خمسة وأربعين مترا، وكان سقفه على هيئة قبة تبدأ عند نقطة الصفر في الجوانب، وتصل في مركزها إلى ارتفاع يقدر بأربعة عشر مترا . وفي نهاية الحائط الخلفي لهذه المغارة لاحظوا وجود ما يشبه الرواق المتصل بها والذي يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أمتار وطوله حوالي خمسة أمتار وينتهي عند صخرة رملية يبدو ما وراءها مظلما .

أراد حامد ومصطفى مواصلة استكشاف المكان وهم على قناعة بأن مفاجآت أخرى يمكن أن تصادفهم في هذا المكان الغريب، واستمرا يخطوان داخل هذا المكان بكل حذر، وبالنظر إلى أن المكان كان صغيرا نسبيا فقد أصبح بالإمكان رؤية مختلف جوانبه بفعل المصابيح التي كانوا يحملونها معهم حيث لاحظوا أنه في نهاية هذا الرواق يوجد انحناءان بسيطان يقودان نحو مغارة أخرى كبيرة المساحة أو هكذا بدا لهم، لأن الإضاءة لا تصل إلى كل جوانب هذا المكان . وفي هذه المغارة أيضا كان يسمع خرير للماء ووجود هواء مشبع بالرطوبة .

اتجه مصطفى نحو المكان الذي يسمع به خرير الماء، حيث وجد أنه على بعد ثلاثين مترا تقريبا يوجد نبع آخر للماء مماثل تقريبا للنبع السابق الذي اكتشفه رمضان . كانت هذه المغارة التي وصلوا اليها أخيرا أكبر حجما من المغارة السابقة، حيث كانت مساحتها تقدر بخمسة وأربعين مترا عرضا وستين مترا طولا وارتفاع يصل إلى عشرين مترا . ورغم أن أجزاءها لم تكن متصلة تماما ببعضها، لكنها في مجملها تبدو متكاملة ولا توجد صخور تفصل بين مختلف أجزائها . أما أرضية هذه المغارة فقد كانت مغطاة برمال ناعمة ولكنها متماسكة . وحينما وصلوا إلى عمق المغارة لاحظوا أن الهواء أكثر رطوبة وإنعاشا، وحينما وصل حامد إلى الحائط الخلفي لهذه المغارة قال باقتناع أن هذا الحائط يمثل نهاية المغارة

لأنه يمكن بسهولة ملاحظة أن هواءً ساخنا ينبعث إلى داخل المغارة وهو ما يعني أن هذا الهواء يأتي من البيئة الصحراوية الخارجية .

كانت درجة حرارة هذا المكان معتدلة وأكثر رطوبة من الخارج، وإذا ما اتضح أن النبعين مياههما صالحة للشرب . وهو ما يبدو أمرا مؤكدا . فهذا يعني أنهم اكتشفوا شيئا ليس له مثيل في هذا المكان المقفر . وحينما خرجوا لم يخبروا الآخرين بما اكتشفوه ولكنهم سقوا أربعة من جمالهم من ماء النبعين من أجل التأكد من صلاحيته للشرب لكن مصطفى كان مصرا على أن هذه الإجراءات الاحتياطية لا لزوم لها، إلا أن إبراهيم ؛ ذلك الشيخ الحذر كان يريد أن يكون على يقين من الأمر تفاديا لأية نتائج سلبية على القافلة، بيد أن الجمال التي شربت من هذا الماء اتضح بعد يومين أنها لا تزال حية ترزق، بل وفي صحة جيدة مما يدل على أن الماء صالح تماما للشرب .

وفي أثناء ذلك قام حامد بعد أن عاين المغارة الجديدة بالحفر خلف الصخرة الترابية حيث وجد أنها تطل على رواق آخر صغير بعمق ثلاثة أمتار تقريبا يتصل بالمغارة الكبيرة . وهكذا قام الجميع بإنزال خيمة رمضان لكي يتمكنوا من إزالة كميات لا بأس بها من الرمال التي كانت توجد في المغارة، بحيث أصبح من الممكن الانتقال من الكهف الخارجي إلى المغارة الأولى بهذا المكان، وهو ما يعني أنه أصبح بإمكانهم التمتع بماء الشرب النقي، وفي نفس الوقت إيواء أنفسهم وبعرانهم داخل هذا المكان ذي الحرارة المعتدلة والمحمي من كل المخاطر البيئية الخارجية .

وفي ضوء هذا الاستكشاف الهام قرر رمضان ورفاقه تجهيز هذا المكان السعيد في أقرب وقت ممكن ليكون مأوى لرجال القافلة وللإبل معا، ثم حملوا المؤن ووضعوها في فجوة موجودة بأحد حيطان الكهف . أما قرب المياه فلم تعد هناك حاجة لتخزينها بعد أن توفرت لديهم كميات هائلة من المياه الرقراقة الصالحة للشرب . أما في المغارة الثانية فقد قاموا خلال بضعة أيام باستخدام الحجارة الجافة لبناء أحواض يتم فيها وضع الأعلاف اللازمة لتغذية إبلهم . وهكذا استفاد البشر مثلما استفادت الحيوانات من هذا الاستكشاف السعيد . وفي تلك الأثناء عاد إلى المخيم الرجال الخمسة الذين تم إرسالهم لجلب الماء، وقد كانت فرحتهم عظيمة بنبأ اكتشاف المياه في مكان المخيم لأن ذلك سوف يعفيهم من تلك الرحلات المضنية التي كان يتعين عليهم القيام بها من آن لآخر لاستجلاب المياه اللازمة لشرب البشر والإبل .

أمضى رمضان ورجاله الشهور اللاحقة في إعادة تنظيم صفوف المجاهدين الذين

تزايد عددهم بشكل كبير وذلك بفعل السمعة الطيبة التي كانت لدى رمضان الذي قضى وقتا ممتعا بين زملائه خلال تلك الفترة . ثم قام رمضان بحكم كونه المسئول الرئيسي عن حركة المجاهدين بإرسال وفود لإحضار كميات أخرى من المؤن وعلف الحيوان من أماكن مختلفة لسد حاجة المخيم من هذه المواد في ضوء وفود أعداد كبيرة من المجاهدين الذين أصبحوا وكأنهم جيش صغير يتمركز في هذا المكان . وهكذا لم يعد رمضان بحاجة إلى إخفاء نقوده لأنه أصبح يحتاجها للإنفاق منها على مختلف احتياجات المخيم ومرتاديه الجدد .

لكن رمضان أراد أن يكون الصرف على مختلف شئون حركة الجهاد في حدود الإمكانات المتاحة، ولذا كان يعقد جلسات تشاور مستمرة مع مستشاريه الثلاثة لإقرار أولويات الصرف ومداه، خاصة وأنه جلب معه كل نقوده والمجوهرات التي تركها له المرحوم أستاذه العميد وذلك للإنفاق منها في حالات الطوارئ . أما سليمة التي كانت تتابع كل ما يحدث بشكل دقيق فقد تخلت عن كل المجوهرات الشخصية التي كانت لديها ووضعتها مع باقي المجوهرات التي لدى رمضان وذلك لاستخدامها في تغطية أية نفقات طارئة، وأضطر رمضان ورفاقه إلى قبولها بعد كلمات الإصرار العنيد على تخليها عن مجوهراتها الشخصية لصالح حركة المجاهدين، ولم يجرؤ أي منهم في ضوء إصرارها على مخالفة رغبتها .

وعقب إجراء التقديرات والحسابات لمعرفة تكاليف ما تحتاجه حركة المجاهدين قرر رمضان ومستشاروه استخدام ما تبقى من النقود والمجوهرات لشراء ما يحتاجونه من مؤن وأسلحة بحيث يلبي احتياجات كل منتسبي الحركة ؛ ذلك أن عددا كبيرا من الأشخاص الذين التحقوا مؤخرا بحركة الجهاد لم تكن لديهم أسلحة، وبعض الذين قدموا بأسلحتهم كانت تلك الأسلحة من النوع القديم الذي لا يطلق إلا رصاصة واحدة في كل ضغطة على الزناد، ولذا فهي أسلحة - رغم أهميتها - إلا أنها أقرب إلى الطراز المتحفي .

تحول المخيم بفعل الاكتشاف الجديد إلى كهفين متجاورين يعجان بالبشر والحيوانات، حيث كان بهما حوالي مائتي رجل وستين امرأة وطفل، إضافة إلى ثلاثمائة جمل وخمسين حصانا . وهكذا بدا واضحا تزايد أعداد الملتحقين بحركة المجاهدين وتوالي قدومهم زرافات ووحدانا خلال الأشهر القليلة التي تلت الانتقال بمركز حركة الجهاد إلى منطقة الصخرة . وحين ازداد الازدحام في هذا المكان، اضطر رمضان وزملاؤه إلى إجراء تمهيد وتوسيع للنفق الذي يربط بين الكهفين والذي يبلغ طوله حوالي ثمانية أمتار لكن اتساعه

كان لا يكاد يسمح إلا بمرور شخص واحد، وهو لحسن الحظ مكان جاف وبه قدر معقول من التهوية يصلح كحل مؤقت لإيواء الأعداد المتزايدة من المجاهدين .

وفي آخر ذلك النفق تم حفر تجويف لتخزين المؤن والأعلاف، وهكذا أصبح هذا الممر ممهدا بشكل جيد وبه قدر أفضل من التهوية، ثم أعطى رمضان أوامره للجميع بعدم التجول خارج الكهف خلال النهار كي لا ترصدهم عيون الجواسيس، ولكنهم يستطيعون التجول خلال الليل بشرط ألا يوقدوا نارا تحت أي ظرف من الظروف . أما مصطفى فقد أخذ على عاتقه مسألة ترتيب شئون الدفاع عن مقر حركة المجاهدين وهو ما تضمن اختيار مواقع إستراتيجية هامة لنصب الرشاشات الثقيلة والخفيفة واختيار أفضل العناصر لتولي مهمة استعمالها، وقام بتوزيع المناوبة بينهم بحيث تكون هناك حراسة دائمة للمكان .

كان المائتان من المجاهدين الذين يشكلون نواة الجيش الصغير لحركة المجاهدين مزودين بثماني قطع من الرشاشات الخفيفة، وأربع أخرى ثقيلة، وثلاثين بندقية أوتوماتيكية، ومائة وخمسين بندقية متطورة، إضافة إلى بعض البنادق ذات الطلقة الواحدة، وبعض المسدسات، وأعداد لا بأس بها من الحراب والخناجر حيث بدا واضحا من هذه الأوضاع أن حركة المجاهدين لا تستطيع مجابهة الجيش الايطالي المنظم والمزود بأحدث أنواع السلاح، وليست لديها الإمكانات المالية لتجهيز نفسها بشكل أفضل بالسلاح رغم أن عدد المنتسبين اليها لا يزال قليلا نسبيا فما بالك بمسألة تسلحها حين يصل عدد أفرادها إلى آلاف الأشخاص .

كانت كل هذه المعطيات راسخة في أذهان قادة حركة المجاهدين، ولكن هذه الحركة لا تستطيع الانتظار إلى حين توفر ظروف أفضل للمقاومة لأن المهمة الأساسية لها تتمثل في أن تمارس من المقاومة ما يسمح بالحفاظ على الروح المعنوية العالية للشعب الليبي، وترسيخ مبدأ حبه لوطنه ولحرية هذا الوطن . أي أن الهدف الأساسي يتمثل في استمرار حركة المقاومة لكي يدرك الغزاة الطليان أن ليبيا ليست بلدهم، وأن حركة المجاهدين ستعبئ قواها لكي تنتزع لنفسها في اللحظة المناسبة الإمساك بزمام الأمور في البلاد بعيدا عن التدخلات الأجنبية في شئون الوطن ومصالحه .

استمر العمل المكثف من أجل تحويل منطقة الصخرة إلى قلعة حصينة قادرة على صد أي هجوم للعدو حيث تم وضع حراسة في المناطق الإستراتيجية وفقا للقواعد والأعراف العسكرية، كما تم شق ممرات متعددة لاستخدامها في حالة حدوث هجوم معادٍ، مثلما تم

تحصين الأفراد والحيوانات داخل الكهفين، وكان الإشكال الوحيد الذي واجههم يتمثل في عدم قدرتهم على إشعال النار داخل الكهف لغرض طهي الطعام كي لا يتعرضوا للاختناق بفعل الدخان، مما جعلهم مضطرين إلى الطبخ خارج الكهف وهو أمر لم يكن صعبا بالنسبة لرجال الصحراء الذين تعودوا على إعداد وجبات طعامهم بشكل اقتصادي وسريع .

كل تلك الإجراءات اتخذت بناءً على أوامر رمضان التي كانت تنفذ بكل دقة واحترام، وهكذا اكتسب رمضان خلال تلك الفترة تقديرا عاليا من قبل جميع زملائه المجاهدين بشكل لم يسبق لأي رئيس أعلى لحركة الجهاد أن اكتسبه، بحيث أصبح كل ما يأمر به رمضان ينفذ بشكل عاجل وبكل سرور . وبناءً على تعليمات رمضان أيضا قاموا بحفر تجاويف خارجية في منطقة الصخرة تستخدم لطهي الطعام وذلك تفاديا لاستعمال مكان متسع وواضح يكون من السهل اكتشافه من قبل الأعداء .وبهذه الطريقة استمروا في طهي الطعام في تلك الأماكن، وإذا ما اضطروا إلى طهيه خارجها فمن الواجب أن يتم ذلك بسرعة وأن يتم إخفاء كانون النار برمال الصحراء بعد الانتهاء من الطهي حتى لا يتركوا آثارا تدل على تواجدهم بالمكان، وكل تلك الإجراءات الاحترازية كانت تهدف إلى تجنب أن تتم مفاجئتهم من قبل الأعداء .

وهكذا تغيرت خلال ثلاثة أشهر من العمل الحثيث معالم ذلك المكان الذي تحول إلى قلعة حصينة خافية عن الأنظار بحيث يصعب على الآخرين تقدير عدد الأشخاص المتواجدين به، كما أن حركة الأفراد خارج هذه القلعة كانت محدودة جدا . وفي تلك الأثناء استمرت أخبار فرق المجاهدين في مختلف أنحاء البلاد تصل إلى مركز القيادة، وكان جلها يشير إلى مواجهتها لصعوبات جمة في مواجهة قوات الغزو الاستعماري التي تزايد عددها وتطور تسليحها، وأصبحت أكثر عدوانية . ولحسن حظ المجاهدين المتمركزين في منطقة الصخرة حضر ضمن إحدى المجموعات القتالية لفرق المجاهدين طبيب تونسي لا يُعرف كثيرا عن ظروف انتمائه لحركة المجاهدين، حيث لم يود أحد إزعاجه بالسؤال عن هذه المسألة ولم يخبر هو بنفسه شيئا عنها، لكن وجوده كان مفيدا جدا لحركة المجاهدين، وكان يحظى بتقدير واحترام كبيرين من قبل الجميع لأنه كان ماهرا جدا في أداء مهنة الطب .

وهكذا تم اختيار إحدى زوايا الكهف لكي تكون مستشفى ميدانيا يعالج به الجرحى حيث استطاع هذا الطبيب رغم قلة المعدات والأدوية لديه أن يؤدي عمله بأفضل ما يكون .

ومن جهة أخرى فقد نما مخيم المجاهدين في منطقة الصخرة بقدوم أشخاص جدد

يحملون معهم إبلهم حيث أصبح عدد المجاهدين حوالي أربعمائة رجل، وازداد عدد الإبل إلى حوالي ستمائة مما استدعى بناء خيام خارج الكهف لعدم اتساعه لاستيعاب كل المجاهدين وإبلهم، وقد حاولوا نصب هذه الخيام بطريقة تكون مخفية قدر الإمكان، بيد أن الحركة التي أحدثها وفود القادمين الجدد كانت واضحة وهو ما لم يكن يريده رمضان لأنه من المحتمل أن يرصد وجودهم أحد الجواسيس ويخبر الأعداء الايطاليين عن وجود أعداد كبيرة من البشر في هذا المكان الذي يعتبره الجميع مكانا قفرا .

ومن أجل تسريع عملية دخول المجاهدين الجدد تم توسيع بوابات الدخول، ثم سلم رمضان النقود التي كانت لديه إلى مصطفى بعد أن تشاور مع مستشاريه في الأمر وأعطاه الأمر بالسفر إلى حيث يقيم تاجر الأسلحة جبريل من أجل استجلاب كمية أخرى من السلاح والذخيرة . إضافة إلى المؤن والأعلاف لأن كمياتها أصبحت تتناقص بفعل قدوم أفواج جديدة من المجاهدين إلى المكان . تم تزويد مصطفى في مهمته تلك بأربعين رجلا مسلحين بشكل جيد، ومائة وعشرين جملا، إضافة إلى بعيره هو، وتم إعطاؤه الأمر بعدم الدخول في أي معركة إلا إذا تمت مهاجمة قافلته أو تعرضت لما يهدد حياة أفرادها أو ما يعرقل مهمتها . وعندما أدرك رمضان أن ما كان متوفرا لديه من النقود لن يكفي لمواجهة احتياجات جميع الأشخاص الذين تحت إمرته بمركز القيادة اقترح بيع المجوهرات، وعندما أقر مستشاروه هذه الخطوة تم استدعاء الطبيب التونسي لاستشارته في الموضوع لأنه من واقع انتمائه للوسط الحضري في تونس فلابد أنه يعرف عن مسألة المجوهرات أكثر من غيره .

كان الطبيب التونسي يدعى محمد، وهو الاسم الذي يناديه به جميع أفراد المخيم، وكان في حوالي الأربعين من عمره، طويل القامة مع انحناءة طفيفة في جسمه، كانت له نظرة ثاقبة تبدو للمتحدث معه وكأنها تريد أن تخترق جسمه لكي تعرف بواطن أسراره .

كانت له شوارب خفيفة الشعر مع وجود بعض الشيب بها، وهو شيب لم يسببه تقدم العمر بقدر ما هو بفعل الآلام والصعاب التي واجهها . استمع سيدي محمد إلى كل الشروحات التي قدمها له رمضان، ولأنه كان لديه قدر من الارتياب في كون تلك المجوهرات من الذهب الخالص، طلب أن يراها لمعاينتها من أجل أن يتأكد أنها تستحق فعلا عناء السفر الطويل من أجل بيعها، وبإشارة من رمضان أحضرت سليمة المجوهرات ووضعتها أمام الطبيب لكي يراها ويعاينها بشكل جيد عن قرب .

بدا واضحا أن الطبيب يعرف الكثير عن المجوهرات لأنه أخذ يتفحصها بدقة، حيث

وضع جانبا حوالي عشرين قطعة منها لكي يتولى فحصها بشكل أفضل فيما بعد . وبعد مضي بعض الوقت على ذلك الفحص الدقيق للمجوهرات اتجه الطبيب بالحديث إلى رمضان وقال مبتسما : إنني على يقين أنكم لا تعرفون القيمة الحقيقية لهذه المجوهرات التي اخترتها . أما تلك العشرون قطعة التي وضعتها جانبا فهي ذات قيمة أقل، ولكنها ذات قيمة على أية حال، أما الباقي فهي مجوهرات ذات قيمة عالية وخاصة هذه القطع الثلاثة التي أضعها الآن في يدي لأنها أكثر لمعانا وتحتوي على فصوص من الياقوت، وهي تساوي عدة ملايين من الليرات . وحسب رأيي الشخصي لا يجب أن تباع هكذا كما هي الآن، بل يجب فصل أحجار الياقوت عنها وبيع الذهب والياقوت كلا على حدة لأن بقاءها على حالها قد يجعل من السهل معرفتها . وفي كل الأحوال فإن احتمالات بيعها منفصلة أفضل وأسهل من بيعها كما هي عليه الآن . كما أنه من الممكن أن يباع جزء منها في طرابلس والجزء الآخر في تونس حتى لا يسهل تتبع من أين أتت تلك المجوهرات . إن مثل هذه العملية قد تفقد المجوهرات ثلث قيمتها الحقيقية أو ربما أكثر بقليل، ولكن من الممكن بيعها مقابل عدة ملايين من الليرات . إن نصيحتي فيما يتعلق بأمر المجوهرات تتمثل في أن بيعها يجب أن يتم بهدوء وروية لأن ذلك يحقق عائدا أكبر بكثير مما يحدث في حالة الاستعجال في بيعها بطريقة غير مدروسة .

وافق الجميع على رأي الطبيب سيدي محمد، وحيث أنه الوحيد الذي يفقه في شئون المجوهرات فقد تم إقرار أن يكون ضمن القافلة التي سيتم تجهيزها لغرض بيعها . كان رأي المستشارين أن يتم استعمال نصف قيمة المجوهرات في شراء الأسلحة والنصف الآخر لشراء المؤن، لكن رمضان لم يوافق على هذا الرأي لأن الأسلحة التي تم شراؤها وتلك التي سيشتريها مصطفى ستكون كافية في المرحلة الحالية، وبالتالي يمكن استخدام جزء من عائد المجوهرات في شراء المؤن والاحتفاظ بالمبلغ المتبقي لمواجهة أية نفقات أخرى طارئة في المستقبل ثم أضاف رمضان قائلا : إنني على قناعة تامة بالرأي الذي أبداه المرحوم أستاذنا العميد من أن الوقت ليس مناسبا بعد لإشعال ثورة كبرى ضد المحتلين الطليان لكن المهم هو أن نكون دائما على استعداد لاغتنام الفرصة المناسبة للقيام بذلك . وفي هذه الأثناء يتعين علينا أن نتحلى باليقظة، وأن نرفع درجة استعداد فرق المجاهدين انتظارا للحظة المناسبة، حين تكون فرص النجاح عالية أمام مهمة تحرير بلادنا ليبيا . إنه من المستحيل علينا أن نحقق نصرا ساحقا وسريعا ونحن لا نزال في هذه الظروف في مواجهة دولة لديها الكثير من الموارد التي لا تقارن إطلاقا بمواردنا . إن التكتيك القتالي

الذي أقترحه لحركتنا هو تأجيل المعارك الكبرى مع المحتلين وتأخيرها وتجنبها في الوقت الحاضر، وهذا أفضل توجه لحركتنا حاليا حسبما أرى .

كان الطبيب التونسي الذي استمع إلى كل حديث رمضان إلى زملائه أول من أثنى على كلام رمضان قائلا : ان رأيه يتطابق مع رأي رمضان ثم أضاف معلقا : إنني الآن أدرك سبب اختيار رمضان رئيسا أعلى لحركة الجهاد الليبية رغم أنه لا يزال شابا في مقتبل العمر . إن آراءه التي أدلى بها حول قضية الجهاد تعتبر صائبة تماما، وأنصح بقبولها تفاديا لمشكلات أكبر، أما مصطفى وإبراهيم وحامد فقد مكثوا بضع لحظات يفكرون في الأمر ثم أعلنوا اتفاقهم مع رئيسهم رمضان واعتبار أن المسألة حسمت ثم بدأوا الإعداد للرحلة القادمة، وخلال يومين من الترتيبات كان كل شيء جاهزا للسفر، وعندما غادرت قافلة رمضان منطقة الصخرة كان هذا المكان الذي يعج بالبشر والإبل يبدو وكأنه خالٍ لا حياة فيه .

كانت القافلة هذه المرة تتكون من ثمانين رجلا يمتطون ظهور جمالهم إلى جانب مائة وستين بعيرا إضافيا مجهزة لنقل المؤن، وعلى رأس هذه القافلة كان رمضان ترافقه سليمة والدليل المرشد حامد والطبيب التونسي . أما إبراهيم فقد بقي لتولي قيادة الأمور في منطقة الصخرة لأنه كان الأنسب لهذا الموقع من حيث قدراته في التخطيط الإستراتيجي وخبرته الطويلة في ميدان القتال . وقبل مغادرة مركز القيادة تم ترتيب مسألة الحراسة به لكي تتمركز على مسافة عدة كيلو مترات خارج المنطقة مزودة بمناظير مقربة قوية لكي يتمكنوا عن طريقها من مراقبة جميع أجزاء المنطقة بشكل جيد تحسبا لأي هجوم مضاد، ووضع الاستعدادات الدفاعية اللازمة لمواجهته في حال وقوعه .

كان رمضان راضيا عن كل الترتيبات الاحتياطية التي أعدت لحماية مركز القيادة، ولذا أعطى أوامره للقافلة بالانطلاق فجر اليوم الثالث من الاتفاق على تنفيذ هذه المهمة التي كانت تتمثل في تزويد مركز القيادة باحتياجاته من المؤن ؛ ذلك أن مهمة التزود بالأسلحة كانت قد أوكلت إلى مصطفى باعتباره الأكثر دراية بهذا الشأن . وعندما شقت قافلة رمضان طريقها وسط الصحراء بعيدا عن المخيم لاحظ رمضان وزملاؤه تحليق طائرة صغيرة فوق مكان تواجدهم . ورغم أن الطائرة كانت تحلق على ارتفاع شاهق إلا أنها استطاعت بكل تأكيد رصد وجود هذه القافلة الكبيرة . لم يعط رمضان أهمية كبيرة للموضوع في البداية، لكن حين فكر مليا في الأمر استخلص أن هذه الطائرة التابعة لجيش الاحتلال الايطالي لابد أنها أبلغت إدارة مركز قيادة قوات الاحتلال عبرالاتصال

اللاسلكي بوجود هذه القافلة الكبيرة في هذا المكان المنعزل غير المطروق الذي لا توجد به نقطة تفتيش للعسكرية الايطالية .

قام رمضان بإبلاغ تلك الشكوك التي انتابته إلى حامد، كما قرر العودة شخصيا من أجل إبلاغها إلى إبراهيم في مركز القيادة مؤكدا على ضرورة عدم القيام بأية أنشطة خارج الكهف خلال النهار، ثم أعطى أوامره بضرورة إرسال موفد خاص إلى إبراهيم لإبلاغه في حالة تعرض القافلة لأي هجوم لكي يكون هو ورجاله على دراية بالأمر، ثم ودع رمضان إبراهيم وأسرع في الالتحاق بالقافلة التي استمرت في سيرها ببطء وسط بحر من الرمال الحارقة . وحين وصل إلى القافلة وجد سليمة منشغلة بشأنه وسألته إن كان هناك أمر ما قد حدث بشكل طارئ لكنه أجابها بالنفي قائلا لها إنه كانت لديه مجرد هواجس عن احتمال حدوث شيء ما غير متوقع أراد إبلاغ إبراهيم بها من أجل اتخاذ الاستعدادات اللازمة تحسبا لحدوثها .

استمرت القافلة في رحلتها رغم الحرارة المرتفعة التي كان يتسم بها هذا المكان، بيد أن أفضل ما في الأمر هو انعدام وجود رياح الصيف القوية التي تحمل معها رمال الصحراء وتضرب بها على وجوه المسافرين . وعندما أقبل الليل اختار حامد مكانا ملائما لنصب الخيام للاستراحة حيث كان ذاك المكان له سمات طبيعية تسمح لأفراد القافلة بالدفاع الجيد عنها في حالة مهاجمتها، كما تم ترتيب مسألة الحراسة الليلية بحيث يتم التناوب عليها كل ساعتين كي يستطيع الجميع أن ينال قسطا كافيا من الراحة، وقد كانت مواقع الحراسة مختارة بشكل ممتاز يجعل من المستحيل تعرضها لأي هجوم مفاجئ من أي جانب من الجوانب .

الفصل الثامن

بيع المجوهرات

مضت بضعة أيام من الرحلة دون حدوث أي أمور مستجدة سوى متاعب السفر العادية في تلك الأجواء الصحراوية الحارة . وقبل أن تصل القافلة إلى مدينة طرابلس تم تقسيمها إلى عشر مجموعات متباعدة عن بعضها لكي تدخل إلى المدينة من أبواب متعددة كي يتم إيهام السلطات الايطالية بأنها عدة قوافل تفاديا لتعرضها للاستجواب ؛ ذلك أن سلطات الاحتلال كانت ترصد كل المظاهر غير الاعتيادية، وقد تقوم بتوقيف عناصر القافلة إذا ما راودتها شكوك بشأنها، لكن سير القافلة في مجموعات متعددة يساعد على مرورها بسلام، وحتى إذا ما تم استجواب عناصرها فلن يكون صعبا تبرير وجودها .

دخل رمضان وسليمة ومعهما الطبيب التونسي سيدي محمد في أول مجموعة إلى طرابلس يتبعهم حامد ومجموعتان صغيرتان تتكون كل واحدة منهما من خمسة أشخاص، حيث دخلت كل مجموعة على إنفراد وكأن أفرادها لا يعرفون بعضهم البعض، وكانت الأوامر الصادرة اليهم تقضي بأن يقيموا مخيمهم في مكان واحد بشرط أن يتصرفوا وكأنهم أشخاص غرباء عن بعضهم البعض . وخلال يوم الوصول خلد أفراد القافلة إلى الراحة عدا سيدي محمد الذي كان يعرف المدينة جيدا، حيث أخذ يجوب الميدان الرئيسي للبحث عن السبل الكفيلة ببيع جزء من المجوهرات التي كانوا يحملونها معهم .

زار سيدي محمد عددا من محلات تجار الذهب شارحا لهم بشكل ما نوع المجوهرات التي لديه والقيمة التي تحملها كل قطعة . وفي اليوم التالي قاموا بتأجير عربة خيول وأبلغوا السائق ضرورة أن تسير العربة بشكل بطيء حتى يتسنى لهم معرفة معالم المدينة . وبطبيعة الحال فإن الهدف لم يكن معرفة معالم المدينة ولكن الهدف كان إعطاء الفرصة لرجال القافلة المرافقين للعربة بدون علم سائقها بأن يسيروا بمحاذاتها دون إجهاد، وكانوا جميعا مسلحين بمسدسات وخناجر، وكانت مهمتهم تتمثل في صد أية محاولات للسرقة أو للسطو على وفد القافلة . وهكذا مروا بعدة متاجر واستطاعوا بيع أكثر من ثلث كمية تلك المجوهرات بقيمة تزيد على مليوني ليرة .

وفي المساء ذهب حامد لشراء الأغذية والمؤن والأعلاف من أجل حملها على ظهور الإبل

التي أحضروها لهذا الغرض . وفي اليوم التالي خرجوا دون حدوث أي عوائق والتقوا مع مجموعتين من مجموعات القافلة مكونتين من ستين رجلا بهدف حمل كل المؤن والأعلاف التي اشتروها على الإبل التابعة للمجموعتين والمغادرة إلى مركز القيادة لأنه ليس هناك ما يدعو إلى أن تعود القافلة كلها مجتمعة ..وهكذا تم انجاز الهدف الأول من الرحلة وهو تزويد مركز القيادة بالمؤن والأعلاف، وكان لابد من الإسراع في العودة لأن الإبل كانت محملة بالسلع التي اشتروها .

وفي اليوم التالي خرجت المجموعتان فجرا في قافلتين منفصلتين تسير كل واحدة منها في طريق مختلف، حيث تحدث رمضان مع حامد مبلغا إياه ضرورة الإسراع الحثيث في السير لأنه ليس هناك سبب لتعطيل حركة العودة .

وبعد ثلاثة أيام من السير قام حامد بإعطاء إشارة التوقف للقافلة . كان الوقت حوالي الساعة الثامنة صباحا، ولكن القافلة بناءً على هذا الأمر اضطرت إلى التوقف في طابور طويل في مواجهة شمس النهار الساطعة، والتي بدأت حرارة أشعتها تلفح الوجوه . أشار حامد إلى رمضان وسيدي محمد بيده من أجل أن يلتقي ثلاثتهم، وعندما اجتمعوا سمعوا بشكل واضح دويا لحركة إطلاق النار بكثافة، وهو ما يدل على أن معركة ما تدور رحاها لأن كثافة إطلاق النار كانت تشير إلى أن عدد الأفراد الذين يشكلون طرفي المعركة يزيد عددهم على المائة . وفي ضوء هذا الموقف تقرر أن يذهب حامد وإثنان من المجاهدين لاستجلاء الموقف، وعندما عادوا بعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة أفادوا بأن الجيش الايطالي يقوم بمحاصرة واحدة من مجموعات القافلة التي تتكون من أربعين رجلا، وأن هذه المجموعة بفعل الأسلحة الأوتوماتيكية التي يستخدمها الجيش الايطالي في نقاط مختلفة من الموقع لا تستطيع أن تفك عن نفسها الحصار .

عندها طلب حامد من رمضان الإذن له بالسعي لمساعدة زملائهم لأنهم سيتعرضون حتما للإبادة ما لم تتم مساعدتهم، وعند تلقيه موافقة رمضان قسم رجاله العشرين إلى ثلاث مجموعات يحمل كل واحد من أعضائها بندقية أوتوماتيكية وقنبلتين يدويتين وحربة حيث استغل حامد دوي إطلاق النار في الدفع برجاله إلى التمركز في أماكن قتالية ممتازة ثم زحفوا من ثلاثة محاور مختلفة خلف القوة الايطالية التي كانت منهمكة في القتال، وعندما تلقى رجال حامد الإشارة منه ألقوا عشرين قنبلة يدوية على أفراد الجيش الايطالي كما كان لديهم الوقت الكافي لإلقاء المزيد منها . ولأن القوة الايطالية تلقت تلك الضربة القوية بشكل مفاجئ وغير متوقع فقد اعتقد أفرادها أنهم يتعرضون لهجوم

من قبل قوة أكثر عددا من قوتهم، ولذا حاولوا الانسحاب . وعندما لاحظ أفراد قوة المجاهدين بدء انسحاب القوة الايطالية عمدوا إلى القيام بعمليات استشهادية ضدها، كما عمد حامد إلى القيام بنفس العمليات الاستشهادية ضد القوة الايطالية حيث أن القوة الايطالية وقوة المجاهدين لم تكن تتوفر لدى أي منهما معلومات عن حجم القوة المعادية ، وكان كل طرف يعتقد أن القوة المعادية له أضخم مما هي عليه في الواقع .

لقد أحدثت الرشاشات الحديثة المتوفرة لدى القوة العسكرية الايطالية خسائر جمة في صفوف كبار السن من أفراد حركة المجاهدين، لكنها لم تستطع أن تحدث أية خسائر بين رجال حامد الذين هاجموا القوة الايطالية بشجاعة الأسود، وزمجرت رشاشاتهم بشكل مستمر تدمر مواقع العدو مما أضعف فاعلية الرشاشات الايطالية، وأباد الجنود الذين كانوا يطلقون النار منها، لأنه لولا تلك الأسلحة المتقدمة لما استطاع الجنود الايطاليون أن يصمدوا كثيرا أمام قوة المجاهدين، وكانت المحصلة النهائية للمعركة أن تمكن خمسة عشر جنديا ايطاليا من اعتلاء صهوات جمالهم السريعة والهروب من موت محقق على يد المجاهدين الذين أرادوا ملاحقتهم، لكن حامد صاح في وجوه زملائه آمرا لهم بالامتناع عن تلك الملاحقة لأنه لديهم ما هو أهم من إضاعة الوقت في ملاحقة هؤلاء الجنود، وقد كان هذا تقديرا سليما من قبل حامد ينم عن ذكاء وحنكة لأنه كان يعرف أن هؤلاء الجنود الهاربين ربما قاموا بالتخابر لاسلكيا مع مركز قيادتهم حول ما يحدث، وهو يعني قرب وصول تعزيزات عسكرية إلى المكان مما سيحول النصر الذي أحرزوه على الجنود الايطاليين إلى هزيمة محققة قادرة على إضعاف معنويات المجاهدين، ولذا آثر حامد ودون تقديمه لأية تفسيرات أن يستشعر زملاؤه نشوة النصر المفاجئ على عدوهم بدلا من ملاحقة حفنة من الجنود الهاربين . كما كانت مفاجأة حامد كبيرة عندما علم أن قائد تلك المجموعة هو أحد رفاق السلاح والأصدقاء الحميمين لديه . وبمجرد أن التقيا تعانقا بحرارة وهما يستذكران الظروف التي جمعت بينهما من جديد خلال لحظات حاسمة من حياتهما النضالية .

وفي تلك الأثناء قدم رمضان حيث أراد حامد تقديم زميله اليه فقال : هذا هو ميلاد، أحد أصدقائي الأعزاء الذي أعانني الله عز وجل على مساعدته . ثم توجه نحو ميلاد قائلا : وهذا هو رئيسنا الأعلى الذي لابد أنك سمعت عنه الكثير، والذي أعطاه الله الحكمة لكي يقود حركة جهادنا في هذه الفترة العصيبة من تاريخنا، والذي بفضل حسن تدبيره تمكنا من أن نحمل أسلحة حديثة في قتالنا ضد الأعداء استطعنا بها أن نهزمهم.

فما كان من ميلاد إلا أن اقترب من رمضان وقام بتقبيل يده باحترام وإجلال، ثم كرر نفس السلوك المجاهدون العشرون الذين لم يُصب أحد منهم بأذى، لكن كان هناك عشرة من المجاهدين الجرحى الذين تولى الطبيب التونسي علاجهم . وفي ضوء المخاوف التي أبداها حامد من احتمال أن تكون هناك دورية ايطالية قريبة من المكان تقرر أن يقوموا بجمع أية غنائم من ممتلكات الجنود الايطاليين بسرعة ثم مغادرة مكان المعركة خلال دقائق قليلة .

واصلت القافلة سيرها الحثيث طوال اليوم ودونما توقف . وعند غروب الشمس نصب أفرادها خيامهم للاستراحة من عناء السفر المجهد خلال شمس النهار الحارقة، حيث كان الجرحى على وجه الخصوص يحتاجون لهذه الفترة من الراحة . وعند حلول الفجر غادر ميلاد ورجاله بما في ذلك الجرحى متجهين نحو مركز القيادة في منطقة الصخرة، حاملين معهم كل الغنائم التي تركها خلفه العدو . أما رمضان ورجاله فقد اتجهوا صوب الحدود التونسية من أجل بيع باقي المجوهرات وإضافة عائدها إلى ما توفر لديهم حتى الآن من نقود . وبعد عدة أيام من السفر الذي اتبعوا فيه جميع التكتيكات التي تأكدت فاعليتها في الرحلات السابقة وصلوا إلى مدينة تونس العاصمة، وهي مدينة كبيرة تتوفر فيها فرص بيع المجوهرات التي لديهم، وشراء ما يحتاجونه وما يستطيعون حمله من حاجيات .

وبمجرد انتهائهم من هذه المهمة قرروا مغادرة تلك المنطقة الحضرية نهارا بأقصى سرعة وفي هدوء تام حيث ساروا اثنتي عشرة ساعة متواصلة يوميا ولمدة أسبوع كامل عائدين إلى مركز القيادة . وعندما غربت شمس اليوم الثامن قرروا الاستراحة لمدة يوم واحد على الأقل حيث نصبوا خيامهم ووزعوا واجبات الحراسة، لكن الحراس أفادوا بأنهم لاحظوا اقتراب شخصين من المخيم بشكل سريع جدا . وبعد أقل من عشر دقائق سمع صوت هاذين الرجلين اللذين أفادا بأنهما من المجاهدين وأنهما رسولا مصطفى إلى رمضان . وعندما أصبحا بحضرة رمضان قاما بتحيته بكل احترام ثم أفادا بأن مصطفى أرسلهما لإبلاغه بضرورة القدوم لنجدتهم لأن مركز القيادة في منطقة الصخرة محاصر من قبل كتيبة ايطالية ضخمة . لقد استطاع إبراهيم بفعل التحصينات ومواقع الحراسة المتقدمة التي أقامها في أماكن إستراتيجية أن يجعل القوة الايطالية المعادية بعيدة نسبيا عن مركز القيادة، ولكي نستطيع مهاجمة هذه القوة من الخلف فإننا نحتاج إلى تعزيزات من قبل فرق المجاهدين القريبة من المكان والتي تستطيع أن تصل الينا في الوقت المناسب

. وهكذا ودون الحاجة إلى أي تفسيرات فقد طووا خيامهم خلال نصف ساعة، وانطلقوا سريعا من أجل نجدة إبراهيم . وبعد يومين من السفر المتواصل وصلوا إلى منطقة الصخرة حيث كان يسمع دوي المدافع التي كانت حسب إفادة الرسولين أكثر الأسلحة الايطالية إيذاءً للمجاهدين والحاقا للدمار والخسائر في صفوفهم .

اجتمع رمضان مع مصطفى وحامد وبعض فرق المجاهدين الذين تم إبلاغهم بالحضور لنجدة إبراهيم ورجاله في مركز القيادة، وقد استبشر الجميع خيرا بوصول رمضان الرئيس الأعلى لحركة الجهاد لكي يتدبر بنفسه ما يتوجب عمله إزاء هذا الوضع الخطير جدا . وبعد مشاورات قصيرة قرروا الانتظار إلى حين قدوم أحد المجاهدين الذي اخترق مرتين مواقع القوات الايطالية لكي يحضر معه معلومات من طرف إبراهيم حول الوضع القائم . وعند حوالي منتصف الليل وصل هذا الرسول القادم من طرف القائد إبراهيم المحاصر، حيث أبلغ رمضان مجريات الأمور حسب السياق الزمني الذي حدثت فيه حيث قال : عقب مغادرتكم بعدة أيام لاحظ الحراس تقدم قوة عسكرية ايطالية كبيرة باتجاه منطقة الصخرة، حيث أعلن إبراهيم حالة الاستعداد في مركز القيادة من أجل أن نكون جاهزين للتعامل مع أي طارئ . وبعد ساعتين حضر الينا رسول يحمل راية بيضاء يطلب منا الاستسلام للقوة الايطالية بدون أي شروط . وقد كان تقدير إبراهيم أن تقدم هذه القوة الايطالية الكبيرة بكل ثقة نحو منطقة الصخرة يدل على أنهم توفرت لديهم معلومات عن تواجدنا هنا عبر واحد من مصدرين : إما الطائرة التي لاحظ رمضان عند مغادرته للموقع تحليقها عاليا فوق المكان، وإما أن جاسوسا غير معروف أبلغ السلطات الايطالية عن التحركات التي لاحظها تحدث في تلك المنطقة . وسواء جاءتهم هذه المعلومات من هذا المصدر أو ذاك فإن المحصلة النهائية تتمثل في أن السلطات الايطالية قامت بالدفع بحجم كبير من القوات العسكرية لخوض المعركة ضدنا . هذا هو تفسير القائد إبراهيم للوضع . أما الرسول الذي أوفده الايطاليون الينا فقد ردد أمامنا طلب الاستسلام المطلق مرتين، وعندما لم يتلق جوابا من قبلنا غادر وهو غير راضٍ عن عدم قبولنا للاستسلام .

وبعد لحظات من مغادرة الرسول لموقعنا أخذت القوات العسكرية الايطالية تقترب شيئا فشيئا من نقاط تمركزنا وهي مدركة لتفوقها العسكري علينا . أما إبراهيم فقد أعطى أوامره بعدم إطلاق النار إلى حين وصول القوة العسكرية الايطالية على بعد حوالي عشرة أمتار من مواقعنا في مختلف محاور التماس وذلك من أجل التمكن من إلحاق أكبر الخسائر بصفوفهم أثناء انسحاب قواتهم . وعندما رأى قائدنا إبراهيم أن الوقت قد حان

للتعامل مع القوة المعادية أعطى أوامره بفتح نار جهنم على تلك القوات من مختلف المحاور مما أدى إلى اضطرارهم للانسحاب بسبب كثافة النيران التي تعرضوا لها فجأة، ثم تمركزوا على مسافة أبعد من مواقعنا وبدأوا يدكون هذه المواقع بأربعة مدافع استطاعت أن توقع بنا بعض الخسائر وهكذا استمر الأمر يتكرر على نفس المنوال منذ بداية اليوم الأول للمعركة .

استمع رمضان إلى كل تلك الأخبار ثم مكث يفكر محاولا استخلاص أسلوب العدو في ادارة المعركة، حيث دار في ذهنه احتمال أن يكون العدو يجهز لإرسال تعزيزات أخرى إلى المكان أو ربما يريد قصف المنطقة جوا بالطائرات وتدمير مخازن الأسلحة التابعة للمجاهدين، ولذا أوفد رمضان رسلا إلى مجموعات المجاهدين في مختلف مناطق تواجدها كي تتأهب للنصرة، كما أوفد رسولا إلى إبراهيم يبلغه بتخوفاته من احتمال استعمال العدو للطيران لتدمير مخازن الأسلحة، وأوصاه بتغيير أماكن تمركز نصف عدد رجاله ونصف عدد مواقع تخزين الأسلحة تحسبا لاحتمال القصف الجوي، كما أبلغه بضرورة تكثيف إطلاق النار على مواقع العدو خلال الليلة القادمة لمدة ساعة أو أكثر .

وبكل تأكيد كانت أوامر رمضان تقابل بالسمع والطاعة، ثم استدعى قادة الفرق العسكرية الموجودين معه وأبلغهم بخطة الدفاع عن مركز القيادة، والتي لخصها إجمالا بقوله : إن ما يشغلني في الوقت الحالي هو استعمال العدو للمدفعية الثقيلة التي تطلق قذائفها باستمرار نحو مواقعنا، حيث أن القصف المدفعي رغم أنه لم يلحق بنا خسائر كبيرة بعد، إلا أنه على المدى الطويل سوف ينهكنا . وإذا ما أضفنا إلى مسألة القصف المدفعي احتمال حدوث القصف الجوي فهذا يعني أننا سنكون معرضين لنوعين من القصف، وهو ما يهدد بإضعاف موقفنا العسكري بشكل كبير . إن ما أنصح به هو أن نعمل على تدمير المدفعية الثقيلة لأن عامل الوقت ليس في صالحنا، حيث أن الجيش الايطالي لديه فرق عسكرية كثيرة ومسلحة تسليحا ممتازا، وبإمكانها الحصول على غطاء جوي يستطيع أن يقصف مواقعنا ويدمرها خلال ساعات . إنني لست خبيرا عسكريا ولذا أود أن أسألكم : هل تستطيع مجموعة من مجاهدينا اختراق صفوف العدو وتدمير المدفعية الثقيلة لديه ؟

لم يجب أحد على سؤال رمضان لبعض الوقت لأن كل واحد من هؤلاء القادة كان يفكر في صمت حول خطة الرئيس الأعلى الشاب إلى أن كسر مصطفى هذا الصمت وتوجه بالحديث الهادئ إلى رمضان قائلا له : أعتقد أنك تناولت لب الموضوع بطرحك

لهذا السؤال لأن المدفعية الثقيلة هي أكثر الأسلحة خطرا على مجاهدينا، وهو ما يجعل تدميرها ضروريا، وأعتقد أن ذلك ممكن . فعندما يبدأ إبراهيم بإطلاق النار الكثيف على مواقع العدو منتصف ليلة الغد نقوم نحن بهجوم متزامن على مواقع العدو من محاور متعددة كي يتوهم هذا العدو أن عدد أفراد قوتنا العسكرية أكبر من عدد أفراده . وحين يتعرض العدو لهجمات كثيرة من مواقع متعددة فإنهم بسبب جهلهم بحقيقة قوتنا العسكرية سيقومون بنقل وحدات قتالية من مكان إلى آخر، وهذه هي اللحظة التي يتوجب علينا خلالها أن نركز جهدنا على تدمير مدفعيتهم الثقيلة . وعندما أقر الجميع خطة مصطفى قاموا باتخاذ التدابير العملية لتنفيذها .

وعندما أقبل الليل حضرت إلى موقع المعركة مجموعات جديدة من المجاهدين حيث أفاد أفرادها بأن أعدادا أخرى قادمة لتلتحق خلال ساعات قليلة بالمعركة . وبالفعل عندما أقبل نهار اليوم التالي كان عدد الملتحقين الجدد بالمعركة يزيد على مائتي مقاتل مجهزين بأسلحتهم، وهو عدد مهم جدا للهجوم الذي يعد له المجاهدون أثناء الليل . وعندما تم تجهيز كل ما يلزم لخوض المعركة المرتقبة بدأ المجاهدون قبيل منتصف الليل إطلاق النار الكثيف بشكل متزامن من قبل مجموعات متعددة منهم باتجاه صفوف العدو . ومنذ بداية المعركة هاجمت مجموعة رمضان القوات الايطالية من ستة مواقع مختلفة بإطلاق نار كثيف جدا من أجل إيهام الايطاليين بأن حجم قوات المجاهدين أكبر بكثير مما هو عليه فعليا وفق الخطة التي رسمها مصطفى .

أما الكتيبة الايطالية فقد ردت على إطلاق النار بجحيم رهيب من النيران المضادة خاصة وأنه لديها كل ما تحتاجه من الذخيرة وليست بحاجة إلى الاقتصاد في استخدامها كما هو الحال بالنسبة لقوات المجاهدين . كان الهدف الرئيسي من الهجوم الذي شنه المجاهدون هو تحديد موقع المدفعية الثقيلة للقوات العسكرية الايطالية بدقة باعتبارها أهم الأسلحة التي تؤثر في سير المعركة، والتي يمكن بلا شك تدميرها بشكل أسهل إذا كانت متمركزة في مكان واحد تطلق منه النار على قوات المجاهدين.

كان مصطفى الآمر الذي أخذ على عاتقه قيادة المجموعة المكلفة بتدمير المدفعية الايطالية الثقيلة، ولذا قام باختيار خمسة عشر رجلا من بين أفضل رجاله، وقام بتسليحهم برشاشات أوتوماتيكية، وكان بحوزة كل واحد منهم قنبلتان يدويتان وحربة، وكانوا جاهزين يتوقون بنفاذ صبر لتنفيذ مهمتهم . وقبل نصف ساعة تقريبا من بدء العمليات قام مصطفى ورجاله بالتسلل بين صفوف العدو مستفيدين من قدرة مصطفى

غير الاعتيادية على الإبصار وسط الظلام، وهكذا تقدموا بحذر وكأنهم أفاعٍ زاحفة في عمق الظلام وهم يدركون مدى أهمية المهمة المكلفين بإنجازها .

لم يكن الايطاليون يتوقعون قدوم مسلحين اليهم لغرض اختراق صفوفهم، ولذا لم تكن هناك مراقبة جيدة تحسبا لحدوث مثل هذا الاحتمال، وقد استفاد مصطفى ورجاله من سوء التقدير الايطالي لهذه المسألة، ولذا تقدموا بشكل بطيئ وواثق نحو معسكر الايطاليين، عاملين على تجاوز كل العقبات التي صادفتهم أثناء هذا التسلل . وعندما بدأت العمليات العسكرية كانوا قد تمركزوا على مقربة من المدفعية الايطالية الثقيلة منتظرين الوقت الأكثر مناسبة لتدمير تلك المدفعية .

وحينما بلغت المعركة أوجها أعطى مصطفى أوامره لأفراد مجموعته لإلقاء القنابل اليدوية التي كانت جاهزة في أيديهم على قطع المدفعية وعلى الجنود الذين كانوا يطلقون القذائف منها، ثم استمر مصطفى ورجاله في إطلاق النار من رشاشاتهم الأوتوماتيكية على من تبقى حيا من هؤلاء الجنود فأردوهم قتلى، وهكذا تم إلغاء مفعول تلك المدافع حيث ابتعدوا عنها قليلا من أجل تفجيرها قبل أن يقوم الايطاليون بشن هجوم معاكس ضد هذه المجموعة التي نفذت عملا قتاليا مفاجئا وغير متوقع . وبعد أن نفذ مصطفى ورجاله مهمتهم بنجاح انسحبوا نحو فجوة ضيقة تقع بين اثنين من الكثبان الرملية، ثم استمروا في انسحابهم زحفا فوق رمال الصحراء وبشكل هادئ إلى أن ابتعدوا عن المكان . أما حامد ورجاله فقد قاموا هم أيضا بإطلاق النار في اتجاه مواقع المدفعية لتوفير التغطية اللازمة لمصطفى ورجاله كي يتمكنوا من تنفيذ مهمتهم بأفضل ما يمكن . لكن موقع حامد تعرض بعد ذلك لقصف شديد الكثافة من قبل القوات الايطالية التي كان تفوقها من حيث نوعيات الأسلحة وكميات الذخيرة واضحا وهو ما شكل مصدر قلق لحامد ومجموعته .

كان رمضان في ذلك الحين متمركزا على تلة رملية عالية يراقب سير المعركة من خلال منظاره المقرب المزود بالتقنية للرؤية الليلية، حيث لاحظ أن حامد بذل كل جهد من أجل توفير غطاء من إطلاق النار الكثيف لكي يتمكن مصطفى ومجموعته من تنفيذ مهمتهم والانسحاب ؛ ولكنه الآن في وضع حرج بسبب كثافة النيران المركزة على موقع تواجده . من هنا أمر رمضان من أجل أن يبعد عن زملائه الخطر الذي يتهددهم بأن تتم إعادة تمركز خمسين مجاهدا لكي يتواجدوا في موقعين قريبين من مكان تمركز حامد لمساعدته على تجاوز الخطر الداهم، وبقي رمضان ينتظر بنفاذ صبر وصول باقي التعزيزات من فرق

المجاهدين لكي يستطيع فرض سيطرة حركة الجهاد على مجرى المعركة . وفي اللحظة المناسبة وصلت مجموعتان قويتان إلى ميدان القتال، ولكنهما كانتا متعبتين جراء السفر الطويل ليلا ونهارا دون توقف، لكن أفرادها أصروا رغم كل شيء على الاشتراك في القتال مباشرة بعد أخذ الإذن من رمضان، وتلى ذلك وصول فرق أخرى من المجاهدين قادمين من أماكن بعيدة جدا لكن رمضان ما كان ليطيل الانتظار إلى حين تكامل وصول كل الإمدادات، ولذا قسم رجاله إلى مجموعتين : واحدة انضمت إلى مجموعة حامد والثانية عمدت إلى اختراق صفوف القوات الايطالية من أجل تخفيف حدة الضغط الهجومي على فرقة حامد .

استطاعت الإمدادات البشرية الجديدة وقف تقدم القوات الايطالية التي عمدت بكل عناد إلى رفض الانسحاب من أي موقع تواجدت به، وهو ما جعل المعركة أكثر ضراوة وشراسة، حيث بدأ رجال رمضان في القيام بعمليات استشهادية شجاعة ضد القوات الايطالية دون التفكير في الخسائر التي قد تترتب على ذلك، وهو ما جعل المعركة شبه متعادلة بين الطرفين ما لم يكن هناك عامل خارجي آخر يغير من مجرى المعركة . كانت كل فرق المجاهدين في مختلف مناطق ليبيا قد أرسلت بتعزيزات إلى المعركة خاصة حين علمت أن رمضان الرئيس الأعلى لحركة الجهاد يقود العمليات بنفسه، وهو يحاول الآن تحسين الموقف القتالي لزميليه حامد ومصطفى، حيث قام حوالي مائة وخمسين مجاهدا يتقدون حماسا واستعدادا للشهادة بشن هجوم كاسح على أحد جناحي الجيش الايطالي استخدموا فيه الأسلحة البيضاء . وفي تلك الآونة قام رجال مصطفى باستدراج فرقة من الجنود الايطاليين إلى معركة جانبية ثم فتحوا عليهم نارا كثيفة من رشاشاتهم الأوتوماتيكية مما أجبرهم على الانسحاب كي لا تتم إبادتهم .

وبهذه الخطوة تمكن مصطفى من الالتقاء بزملائه المحاصرين وهو يمتلئ سعادة لأنه استطاع مساعدتهم بشكل فاعل . أما رمضان فبعد أن أنجز رجاله المهمة بنجاح أصدر أوامره لهم بالتوقف عن الهجوم والانسحاب من أرض المعركة واتخاذ موقف استعدادي على مسافة غير بعيدة . وهكذا حل الهدوء الحذر محل دوي الرصاص والانفجارات مع وجود إطلاق نار متقطع من قبل المجاهدين حسب أوامر رمضان وذلك من أجل إشعار العدو بالقدرة القتالية المستمرة للمجاهدين، وإبقاء الجنود الايطاليين في حالة توتر .

وعند حلول الليل اجتمع رمضان بكافة قادة فرق المجاهدين في خيمته التي نصبت لهذا الغرض، وباعتباره الرئيس الأعلى لحركة الجهاد بدأ الحديث مؤكدا على ضرورة

استمرار الهجمات على القوات الايطالية ولكن في مجموعات صغيرة لأنها تستطيع إلحاق أكبر الخسائر بالإيطاليين إذا ما هاجمت بشكل مفاجئ قوات العدو وذلك انتظارا لوصول التعزيزات القادمة من قبل فرق المجاهدين الليبيين من مختلف المناطق بغرض شن هجوم كاسح يكلل بالنصر الأكيد، كما أعطى أوامره لفرق المجاهدين بالانتشار كي لا تلحق بهم خسائر فادحة إذا ما استخدم الايطاليون الطيران في هذه المعركة .

وبعد فترة من النقاش الذي دار حول خطة رمضان أقر قادة فرق المجاهدين تلك الخطة التي اعتبروها واعية وذكية، ثم قضوا الأيام اللاحقة في اتخاذ التدابير العملية لتنفيذها من أجل قصم ظهر القوات الايطالية المهاجمة . وخلال ذلك الوقت استمر وصول التعزيزات القادمة من مختلف المناطق الليبية حيث وصلت فرق من المجاهدين وبأعداد غفيرة إلى مكان المعركة، ورغم أن تسليحهم لم يكن كافيا إلا أن وجود ما يقرب من ألفي مجاهد لديهم العزيمة والإصرار على دحر العدو وتحرير بلادهم كان أمرا في غاية الأهمية، وهو ما برهنت عليه مجريات القتال فيما بعد .

كان من بين فرق المجاهدين التي التحقت مؤخرا بالمعركة حوالي مائتي مجاهد مسلحين تسليحا جيدا وهو ما حدا برمضان باعتباره الرئيس الأعلى لحركة الجهاد أن يقرر مهاجمة الجيش الايطالي من جديد خلال اليوم اللاحق لأن احتمالات النصر بدت له عالية جدا . وبعد إجراء بعض المداولات حول خطة الهجوم التي اقترحها رمضان وأقرها قادة فرق المجاهدين بحماس شديد من الجميع بدأت إجراءات الاستعداد لتنفيذها . كانت هذه الخطة تقضي بأن تتقدم فرقة من المجاهدين في وسط الجبهة بغرض استدراج القوات الايطالية للتقدم نحو منطقة الصخرة حيث يوجد إبراهيم ورجاله، ثم تقوم مجموعات صغيرة أخرى بالهجوم في الأطراف كي تمنع وصول تعزيزات للقوة الايطالية المتقدمة نحو مركز القيادة في منطقة الصخرة، وهو ما سوف يتيح لإبراهيم ورجاله تحقيق أكبر قدر ممكن من الخسائر بهذه القوة الايطالية التي تقدمت دون أن يكون لها إمداد قتالي . بيد أن هذه الخطة الذكية أحبطت لأن الأمور لم تسر كما كان مخططا لها، إذ أنه على حوالي الساعة التاسعة صباحا حلقت ست طائرات ايطالية فوق سماء المعركة وقصفت مواقع تواجد قوات المجاهدين مما أسفر عن استشهاد وجرح ما يربو على مائة مجاهد، ولم ينج منها سوى مجموعة رمضان .

وبعد أن كادت تلك الطائرات تلقي بكل قنابلها توجهت إلى منطقة الصخرة لإلقاء ما تبقى لديها من قنابل بغرض تدمير الأسلحة الأوتوماتيكية الثقيلة التي كانت في حوزة

المجاهدين . لكن تحسب رمضان لهذا الاحتمال وإعطائه الأوامر من البداية بضرورة تمركز تلك الأسلحة الثقيلة في أماكن مرتفعة تستطيع منها التصدي للطيران المعادي كان له دور كبير في إحباط المساعي الايطالية ؛ ذلك أن المجاهدين المتمركزين في أعالي التلال استطاعوا بهذه الأسلحة الثقيلة إسقاط طائرتين ايطاليتين منذ بداية الهجوم، كما تم إعطاب طائرة ثالثة بعد وقت قصير من إسقاط الطائرتين مما أجبر الطائرات الثلاث الباقية على الفرار من أرض المعركة لأنهم اكتشفوا أن مجرى العمليات العسكرية ليس على الصورة التي كانوا يتوقعونها . أما الفرقة التي كان يقودها إبراهيم فقد تكبدت هي الأخرى خسائر ليست بسيطة، فقد دمر عدد من مواقع تمركزها ووقع عدد كبير من أفرادها بين شهيد وجريح .

عقد قادة مجموعات المجاهدين اجتماعا لتدارس الموقف، وتمخض هذا الاجتماع عن اتخاذ قرار بشن هجوم على القوات الايطالية خلال الليل لأن الموقف ليس في صالح المجاهدين، حيث أن القوات الايطالية تستطيع إرسال المزيد من الطائرات لقصف مواقعهم وإجبارهم على إطلاق النار بشكل غير مركز، وهو ما يعني إشغالهم في التعامل مع هذه الطائرات بدلا من فك الحصار عن إبراهيم ورجاله في منطقة الصخرة .

ورغم كل الخسائر التي لحقت بصفوف المجاهدين إلا أن أعدادا كبيرة لا تزال تواصل القتال بهمة عالية ،وبعد أن ألقى الليل بجناحيه على تلك التلال الرملية التي تملأ المكان بدأ المجاهدون في اتخاذ مواقعهم الإستراتيجية التي أقروها في الخطة التي وضعوها، حيث بدأت ست فرق تتكون كل واحدة منها من خمسين مجاهدا بإطلاق نار كثيف على القوات الايطالية في مواقع جانبية من أجل إشغالها عن الهجوم الرئيسي الذي أعد له المجاهدون، ومنعها من إرسال تعزيزات عسكرية إلى موقع الهجوم الفعلي .

وفي ذات الحين قاد مصطفى وحامد مجموعتين من المجاهدين تتكون كل واحدة منهما من أربعمائة مجاهد هجوما على القوات الايطالية عبر قاطع صغير في وسط الجبهة من أجل إعطاء الوقت والفرصة لرجال إبراهيم للالتحاق بهم . لم يكن الجنود الايطاليون متفاجئين بهذا الهجوم، لكنهم لم يتوقعوا حجم الهجوم من حيث عدد المقاتلين وكثافة إطلاق النار . أما مجموعة رمضان فقد تمركزت في وسط المحور القتالي بين قوات حامد ومصطفى، وهو ما جعلها تتكبد أكبر الخسائر مما أضطرها إلى أن تخوض المعركة بالسلاح الأبيض ضد القوات الايطالية لأن موقع تمركزها كان الأصعب والأهم .

وعندما استطاع المجاهدون القضاء على مقاومة القوات الايطالية في عدة محاور كان

خمسمائة مجاهد آخرون تحت قيادة رمضان شخصيا جاهزين لخوض المعركة ببسالة، وإزاء الهجوم الشرس الذي شنوه لم يكن بوسع القوات الايطالية إلا الانسحاب السريع . ووفقا لما تم الإبلاغ به إلى إبراهيم من خلال المبعوث الخاص الذي كان ينقل المعلومات والتعليمات بين رمضان وإبراهيم فقد كانت لحظة انسحاب القوات الايطالية الفرصة الذهبية لإبراهيم ومجموعته للانقضاض على القوات الايطالية المنسحبة وفك الحصار القاتل الذي فرضته قوات الاحتلال عليهم . وعلى اثر الهجوم الذي تعرضت له القوات الايطالية عبر عدة محاور اضطرت إلى أن تنكمش في ذعر نحو الوسط مما أدى إلى كسر الكماشة التي وضعتها حول منطقة الصخرة بعد تلقيها خسائر فادحة، وبدأت الاتصال بقادة مختلف الوحدات عبر اللاسلكي من أجل تجميع قدراتها في جسم واحد متماسك قادر على إبداء أكبر قدر ممكن من المقاومة حيث استمر القتال بينها وبين قوات المجاهدين طوال الليل ولكن ليس من خلال السلاح الأبيض بل عبر إطلاق النار الكثيف المتبادل . وقبل أن يحل الفجر أعطى رمضان أوامره لقوات المجاهدين بالانسحاب خارج مدى نيران الأسلحة الايطالية تاركا في ميدان المعركة حوالي مائتي مجاهد فقط لإطلاق النار بين الفينة والأخرى تجاه موقع تواجد القوات الايطالية لإبقائها منشغلة ومتوترة .

وبعد أن أصبحت قوات المجاهدين على مسافة بعيدة نسبيا من موقع المعركة عقد رمضان اجتماعا مع قادة فرق المجاهدين حيث كان عدد كبير من الذين التحقوا مؤخرا بالمعركة لا يعرفون رمضان شخصيا وان سمعوا الكثير عنه وعن مناقبه المثلى، ولم يكونوا قد أقسموا يمين الولاء له بعد، وهم الذين كانوا يريدون أن يسمعوا منه مباشرة الأسباب التي دعته إلى الانسحاب بعد أن أصبحت قوات المجاهدين قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر النهائي على القوات الايطالية في هذه المعركة، بل وإبادتها تماما .

وقف رمضان وسط هؤلاء الرجال الذين كانوا جميعا جالسين يستمعون وأخذ يشرح لهم الموقف بشكل عام موضحا لهم أنه قام باتخاذ قرار الانسحاب بشكل سليم وذلك من أجل تفادي وقوع كارثة . كان رمضان يتحدث اليهم ونبرات صوته تعكس رجاحة الرأي في كلامه، ونظرات عينيه التي تحدق في عيون الحاضرين تعبر عن الصدق والصراحة التي اتسم بها دائما . كانت كلماته واضحة معبرة حيث لاقت وقعا مؤثرا لدى سامعيه حيث قال : إنني لا أزال شابا صغير السن، وليس لدي من قريب أو بعيد الخبرة التي تتوفر لدى عدد منكم، ولم تكن لدي خبرة في القتال ولا خوض المعارك لكنني قضيت أغلب سنوات عمري في مدينة بنغازي، وفي الآونة الأخيرة زرت طرابلس وهما أبرز مدينتين في وطننا ليبيا كما

تعلمون . أريد أن أسألكم : هل تعلمون عدد الجنود الايطاليين الذين قاتلنا ضد بعض من وحداتهم ؟ أعتقد أنكم لا تعلمون ؛ بيد أنني أعلم هذا العدد تقريبيا لأنني وصلتني معلومات سرية حول هذا العدد وهو ما دفعني إلى اتخاذ قرار الانسحاب .

يوجد في ليبيا أكثر من مائة ألف جندي إيطالي مسلحين بأفضل الأسلحة، ومجهزين بأفضل المعدات، وتقف ورائهم دولة قادرة على إرسال عشرين ضعفا من هذا العدد إلى ليبيا إذا كان ذلك ضروريا . أريد أن أسأل حضراتكم : ما الذي سوف ينجم عن إبادة كتيبة من القوات الايطالية ؟ أول ما في الأمر هو احتمال فقداننا لخمسمائة أو ثمانمائة من رجالنا بين شهيد وجريح، لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد لأن إبادتنا لكتيبة ايطالية يعني أننا رفعنا سقف المواجهة بيننا وبينهم ووفرنا الفرصة التي ينتظرها كثير من القادة العسكريين الايطاليين من أجل أن يجعلوا من ليبيا جسر عبور نحو المجد الشخصي والرتب العسكرية العالية، وهذا لا يتحقق إلا بمحو آثار الهزيمة الماحقة التي تعرضوا لها على يد مجاهدينا من خلال تحقيق انتصارات قادمة علينا يتم فيها حشد هائل للقوات البرية والجوية حيث يكون الهدف هو إبادتنا بالكامل لكي ينعم القادة العسكريون الايطاليون بالافتخار بأنهم استطاعوا أخيرا إبادة مجاهدينا .

لقد كان المرحوم أستاذنا العميد على حق عندما قال أنه يتوجب علينا إذكاء روح المقاومة باستمرار لدى شعبنا لكي يعيش فينا أبدا حبنا للوطن ولحرية هذا الوطن، ولكن لا يجب علينا أن نستدرج إلى معارك ذات نطاق كبير جدا تكون احتمالات هزيمتنا فيها أكبر من النصر . هذا هو بالتحديد رأيي : أن نرسخ في أنفسنا دوما حبنا لوطننا وحرية هذا الوطن من خلال المقاومة المسلحة عبر حرب العصابات انتظارا لمجيء الفرصة السانحة لتحقيق حلمنا في الحرية والاستقلال، لكن إذا ما كنتم لا تقبلون أوامري فأنا مستعد للاستقالة كرئيس أعلى لحركة الجهاد وعليكم اختيار شخص آخر بديل يكون أكثر قدرة على الاضطلاع بأعباء هذا الموقع .

خيم على الحاضرين صمت مطبق بعد الاستماع إلى كلام رمضان، حيث كان إبراهيم أول من عمد إلى كسر هذا الصمت حين هب واقفا ثم تحدث فقال : يعلم أغلبكم أنني إنسان مقاتل أمضيت ثلاثين عاما من عمري في معارك الجهاد ضد الأتراك أولا والآن ضد الإيطاليين . ما أريد أن أقوله هو أنني لست خطيبا بارعا ممن يحسن ترتيب الكلمات والعبارات والخطب الطويلة، ولكنني أمتلك القدرة على تمييز الصالح من الطالح من الأمور، ولذا أقول لكم إننا جميعا ليس لدينا حتى النذر اليسير من الحكمة التي وهبها

الله لرئيسنا الأعلى الشاب، كما أن كلماته تبدو وكأنها جاءت بمباركة إلهية من أجل إلهامنا طريق الخلاص بالنسبة لنا كأفراد ولشعبنا ووطننا إجمالا . إنها كلمات صادقة تلك التي أسعدنا الحظ بالاستماع اليها منذ قليل . ومرة أخرى فإنني أنحني إجلالا لرئيسنا الأعلى وأقبل يده تعبيرا عن الاحترام والإخلاص له والإيمان برجاحة رأيه وصدق رؤيته بخصوص جميع ما تناوله من مسائل .

قال إبراهيم هذا الكلام ثم أمسك بيد رمضان وقبل الخاتم الذي يحمله رمضان في أصبعه كتعبير عن انتقال قيادة حركة الجهاد اليه، ثم وقف بجواره وعيناه تتقدان حماسا وافتخارا ثم أشهر سيفه إلى أعلى، ونظر إلى الحاضرين وقال بصوت صارخ وواثق : أنا إبراهيم أعلن أنني سأسير خلف رمضان الرئيس الأعلى لحركتنا ما حييت والى أن ألاقي وجه ربي . وتبع ذلك تهليل وتكبير من قبل كل الحاضرين، لكن مصطفى وحامد كانا في مقدمة من جددوا الولاء لرمضان وتبعهما جميع الحاضرين واحدا تلو الآخر وقد ترك كلام إبراهيم في نفوسهم أعظم الأثر .

وبعد أن أقر الجميع مسألة خوض حرب العصابات ضد قوات الاحتلال الايطالي كما أمر به رمضان بدأ كل الأفراد والمجموعات والقبائل باستلام ما يحتاجونه من أسلحة وذخيرة ومؤن وأعلاف من المخازن التي توجد بمنطقة الصخرة غادر بعض المجاهدين على إثرها بينما انضم البعض الآخر إلى فرق المجاهدين التي بقيت تطلق النار بشكل متقطع على القوات الايطالية المنسحبة، مثلما تم الاتفاق بشأنه من قبل حول هذا الموضوع.



الاختفاء

غـادرت جميع فـرق المجاهدين لتنفيذ مهامها التحريرية، وبقي رمضان وسليمة والمستشارون الثلاثة مصحوبين بحوالي خمسين رجلا من خيرة المجاهدين الذين لا يعرفون الخوف ولا الاستسلام والذين خاضوا آلاف المعارك ضد قوات الاحتلال الايطالي . وبناءً على أوامـر رمضان تم اتخاذ كافة الإجـراءات اللازمة لمحو آثار تواجد قوات المجاهدين خارج الكهف بحيث تقتصر الحركة من الآن فصاعدا داخله حيث يمكن للعدد القليل الذي تبقى في مركز القيادة إشعال النار في الداخل لطهي الطعام، أما خارج الكهف فأصبح كل شيء الآن يوحي وكأن المكان خالٍ تماما من البشر . كما تم إخفاء المدخلين المؤديين إلى الكهف بحيث لا يستطيع الاهتداء اليهما إلا من يعرف ذلك المكان لأن أي مطلع على الكهف من الخارج لن يستطيع إدراك الامتداد الداخلي له لأن فرق المجاهدين عملت على إعادته إلى الوضعية التي كان عليها قبل اكتشاف رمضان للتجاويف الداخلية للكهف ومنابع المياه، وإذا ما اضطرت أي مجموعة للخروج فيجب أن يتم ذلك ليلا وبكل حذر تفاديا لأية مفاجآت غير محمودة .

أما من الخارج فقد بدا الكهف مقفرا وكأنه امتداد للصحراء المحيطة به، لا مصدر به للحياة على الإطلاق . وهكذا أكد رمضان أن هذا الكهف في منطقة الصخرة سوف يستخدم من الآن فصاعدا كمخبأ للمجاهدين ومخزن للمؤن والماء والسلاح والذخيرة، ولذا تم إبلاغ الجميع بأنه بإمكانهم القدوم إلى هذه المنطقة ليلا وفي حالات الضرورة القصوى فقط بحيث يكون لحركة الجهاد مكان آمن غير معروف للآخرين يمكن من خلاله التزود باحتياجات المجاهدين وقضاء فترة من الراحة به .

وفي إحدى الليالي خرج رمضان وسليمة من الكهف لقضاء بعض من الوقت في الهواء الطلق حيث كانت حرارة الجو قد انخفضت إلى درجة معقولة، بيد أن سليمة أثناء تلك الفترة القصيرة من التجوال تعرضت للدغ أفعى سامة، حيث كانت الأفاعي قليلة في تلك المنطقة ولكنها ذات وجود خطر . هرع رمضان في الحال إلى سليمة من أجل مساعدتها وهو مدرك للمخاطر الجمة التي تنجم عن لدغ هذا النوع من الأفاعي . أسرع رمضان

إلى تناول الخنجر الذي أهداه له مصطفى وأصبح يحمله دائما في حزامه، وقطع فتحة في الجلد في مكان اللدغ الذي وقع بالساق اليسرى، ثم أخذ يمتص بفمه الدم المخلوط بالسم الذي كان يخرج من مكان اللدغ ثم يقذف به في التراب، مكررا هذه العملية عدة مرات لكي يستطيع استخراج أكبر كمية ممكنة من السم الذي حقنت به تلك الأفعى ساق سليمة التي كانت قد شحب لون جسمها، وأخذت ترتعد وهي تدرك حجم الخطر الداهم الذي أحل بها فجأة .

كان مصطفى قد خرج مقتفيا آثار رمضان حيث هُرع اليه للمساعدة عندما انتبه للخطر الذي تعرضت له سليمة لأن مخاطر الأفاعي السامة من الأمور المألوفة لديه وهو ثعلب الصحراء الخبير بشئونها، وهكذا بدأ هو الآخر يمتص الدم المخلوط بالسم من مكان اللدغ ويقذف به في الرمال . وعند الانتهاء من هذه العملية العلاجية البدائية والمهمة في آن واحد قام بحمل سليمة بين ذراعيه القويتين، حيث كانت قد أغمي عليها بفعل الخوف الشديد من خطر لدغ الأفعى السامة، ونقلها وكأنها ريشة إلى داخل الخيمة المنصوبة وسط الكهف ووضعها على فراش مريح . أما رمضان فقد انتابه خوف شديد على حياة سليمة وشحب لون وجهه ولم يكن يمتلك الجرأة على طرح السؤال على مصطفى لمعرفة تقييمه لحالتها الصحية . أما سليمة - وقد استعادت بعض الوعي - فقد أمسكت بيد رمضان بقوة كي يبقى إلى جوارها ولا يغادر إلى أي مكان .

بيد أن مصطفى عندما لاحظ القلق والخوف الشديدين اللذين انتابا الشابين أكد لهما أن سليمة رغم كل الألم الذي تشعر به فإن الخطر على حياتها قد زال وذلك بسبب سرعة رمضان في إسعافها بامتصاص الدم المخلوط بالسم من مكان اللدغ في ساقها، وهذا أمر حيوي في أي حالة لدغ مماثلة، ثم قال مصطفى : أرجو ألا تقلقي يا سليمة . لئن كنت قد فقدت الوعي لفترة قصيرة وانتابتك قشعريرة فهذا بسبب كمية السم القليلة التي بقيت في جسمك، ولهذا يجب أن تلتزمي الفراش وتخلدي إلى الراحة لبعض الوقت . وخلال يومين أو ثلاثة سوف تستعيدين عافيتك ولن يبقى سوى مكان اللدغ والجرح الذي أحدثه رمضان في ساقك تذكارا أبديا لك طيلة حياتك. قال مصطفى ذلك وهو يوجه حديثه إلى سليمة ولكنه كان يريد طمأنة رمضان بالدرجة الأولى لأنه بدا متخوفا جدا من النتائج المحتملة لهذا الموقف .

غادر مصطفى خيمة رمضان بعد أن طمأن الشابين قائلا لهما أنه يمكنهما أن يطلباه في أي وقت إذا ما احتاجا إلى مساعدته . وبعد فترة قصيرة توزع باقي السم الذي مكث

في مكان اللدغ إلى أطراف الجسم المختلفة مما أدى إلى أن تفقد سليمة الوعي من جديد مثلما أكد مصطفى وأصبحت تهذي بشكل ملحوظ، لكن رمضان ظل بجانبها حزينا بسبب هذا المصاب الذي ألم بصديقته العزيزة التي يكن لها كل مودة وتقدير، بل إنه كان يبكي سرا في بعض الأحيان، رغم أنه كان حريصا على ألا يرى أحد دموعه المنهمرة، وأن يظهر بمظهر الرجل الجلد إلا أن العبرات ظلت تخنقه وتحبس الكلمات في صدره .

كانت سليمة تتصبب عرقا، ولم تشأ أن تتناول أي طعام، لكن رمضان ظل إلى جوارها ممسكا بيدها من أجل إعطائها عزما أكبر ثم قال لها بصوت خافت : يا صديقتي العزيزة سليمة ! أرجو ألا تتركيني وحيدا الآن بعد أن قدر الله لنا أن نلتقي من جديد، لأنني لن أستطيع تحمل آلام فراقك لي . كان هذا جزءا من الكلام الذي كان يتلفظ به رمضان من آن لآخر وهو يهمس به في أذنها، لكنها ظلت غارقة في اللاوعي .

كان الألم لا يزال يعتصر جسمها، وبقيت تعاني قشعريرة طوال الليل، وكانت تنهض بشكل لا شعوري أحيانا من مرقدها وعيناها مفتوحتان، لكن وعيها غائب، بيد أن رمضان أصر على عدم مفارقتها وهي في تلك الحال مهما كانت الأمور . وبقيت سليمة تعتريها أحيانا حالة من الهذيان وهي تنادي رمضان باستمرار، حيث كان من ضمن ما كانت تتلفظ به من كلام متقطع قولها : يا رمضان، يا صديقي الكبير والوحيد، أرجو ألا تتركني . أرجوك ألا تتركني رغم أنني لا أستحق أن أكون بجوارك، وأن أعكر صفو نقائك وعز شبابك . إنني لا أستطيع أن أتغلب على قلبي وعقلي اللذين يعتبرانك أهم عندي من حياتي كلها . أرجوك أن تعتبرني خادمتك المطيعة لأنني أعرف أنني لا أستطيع أن أكون في أكثر من هذا الوضع بالنسبة اليك. أنت مجدي الوحيد، ما أريده منك فقط ألا تتركني، ألا تفارقني لأنني أشعر بالسعادة التامة بقربك وأنت تعمل على تحقيق أحلامك الكبرى . أما أنا فلم يبق مني في هذه الحياة إلا الجسد لأن روحي أصبحت معلقة بك، وإذا كان جسدي لا يتشرف بقربه منك فإن روحي أصبحت جزءا من روحك . لقد عبثت نزوات بعض الأشرار بجسدي فجعلته متعفنا، لكن روحي بقيت نقية صافية، وهي ملك يديك لأنها تستحق فعلا أن تكون لك وحدك .

وهكذا بقيت سليمة تردد مثل هذا الكلام بشكل مبعثر وبصيغ مختلفة وبنبرة مكسرة لأنها كانت تشعر أن كلامها ذاك قادر على أن يحلق بها في سماء عالية أسمى من المحبة وأعظم من الموت . أما رمضان فقد لمست هذه الكلمات شغاف قلبه وهو يرى نفسه من خلالها محورا لكل هذه المحبة وكل إنكار الذات من طرف سليمة . بكى طويلا ولم يعد

يكترث لما كان يحمله في عقله من أن البكاء ليس من شيم الرجال الأشداء . وحين لاح فجر اليوم التالي كان رمضان وسليمة غارقين في نوم عميق عله يساعد على إعادة بعض الهدوء إلى روحيهما الممتزجتين . وفي الصباح حضر مصطفى لكي يطمئن على حال سليمة، وعندما رآها هادئة وادعة اقترب من رمضان وأكد له أن سليمة اجتازت مرحلة الخطر، وخلال وقت قصير ستُشفى تماما، ثم وضع يده على ظهر رمضان وقال : يا رئيسي الشاب، ويا صديقي ! يمكنك أن تطمئن لأن سليمة لن تموت هذه المرة، وستستعيد شعورها كاملا خلال ساعات قليلة، وستبدو تلك الحادثة وكأنها جزء من حلم مزعج . لا أريد أن أصر على ضرورة أن تتناول بسرعة الكميات اللازمة من الطعام لأن وضعها النفسي والعصبي وانشغالها بحالتها الصحية في مستوى صعب قد يجعل تناولها السريع للطعام مكرسا للمرض أكثر منه طريقا للشفاء .

وفي وقت متأخر من المساء استيقظت سليمة ووجهها شاحب ولكنه يقظ، وكانت عيناها تبدوان متعبتين ولكنهما واعيتان . نظرت أول ما نظرت نحو رمضان الذي كان جالسا باستمرار إلى جوارها وهو يمسك بيدها وينحني نحوها ليعرف ما إذا كانت تحتاج إلى أي مساعدة ؛ لكنها بادرته بالكلام قائلة له : يا صديقي العزيز رمضان، لقد أتعبتك كثيرا وجعلتك تتألم من أجلي، لكن الذي أريده دوما هو أن يمنحك الله السعادة، كل السعادة . قالت ذلك وقد كانت نظراتها وملامح وجهها تعبر عن مودتها ومحبتها لرمضان أكثر من أي كلام، وقد كان ذلك مدعاة لأن تملأ الغبطة والسرور قلب رمضان حين وجدها سليمة معافاة من جديد فأمسك بيدها وقبلها شاكرا لله على سلامتها، وقد كان هذا كافيا لطمأنة سليمة بأن رمضان يبادلها مشاعر المحبة والمودة، وهي التي ظلت تعتبره دائما أعز عليها من نفسها . كان رمضان بالنسبة اليها كل شيء وبدونه تصبح عدما بلا روح ولا حياة . وحين أحست بشفتي رمضان تقبلان يدها استشعرت روحها من جديد الحياة والمحبة والأمان .

حضر مصطفى بعد قليل حيث وجد الشابين رمضان وسليمة في حالة جديدة من السرور والرضا وهما يتبادلان التهاني بشفاء سليمة . لم يشأ مصطفى أن يعكر صفو هذا الجو السعيد، ولذلك قرر أن يتراجع ويؤجل مسألة تزويد الرئيس الأعلى بآخر المستجدات إلى اليوم التالي خاصة وأنه لا توجد أمور عاجلة تستحق الإبلاغ السريع عنها . وفي اليوم التالي عندما لاحظ مصطفى أن سليمة قامت بإشعال مصباح داخل الكهف اقترب منها وحياها بحرارة وسألها عن وضعها الصحي فردت عليه قائلة : لقد

مررت بأوقات عصيبة، لكنني الآن وبحمد الله أشعر أني بخير وعافية . ثم سألته إن كان يريد شيئا من رمضان فأجابها قائلا : نعم، أريد أن أتحدث اليه لأن رسولا أتى الينا ليلة البارحة مخبرا عن توفر شحنة جديدة من الأسلحة وبأسعار معقولة، وأريد أن أعرف منه ماذا يجب أن نعمل بشأن هذا الموضوع .

كان رمضان مستيقظا وقد استمع وهو يتثائب إلى كل ما قاله مصطفى، حيث خرج من الخيمة على وجه السرعة وعلامات النوم لا تزال مرتسمة على وجهه ثم قال : إذا كان السعر مناسبا كما تقول فإننا سنشتري تلك الأسلحة . لكن ما يجب علينا تذكره دائما هو أنه من الأفضل لنا أن نحتفظ بالنقود التي لا تزال متوفرة لدينا لحالات الطوارئ . وفي كل الأحوال فإنه من الأنسب أن نذهب إلى بنغازي لاستلام ما توفر لدى يوسف ورفاقه من أموال .

وهكذا تقرر تجهيز مجموعة صغيرة مكونة من خمسة عشر رجلا مسلحين تسليحا ممتازا، ولديهم كافة الأوراق الثبوتية حيث قال رمضان : وعندما نصل إلى مقربة من بنغازي أفترق أنا وسليمة عنكم لمواصلة السفر إلى بنغازي باستخدام أية وسيلة مواصلات عامة متوفرة، وبعد حوالي أسبوع من وصولنا إلى بنغازي نعود ومعنا النقود الضرورية لشراء تلك الأسلحة، وكذلك شراء ما نحتاجه من مؤن وأعلاف لكي تكون جاهزة يتزود بها إخواننا في حركة الجهاد . وهكذا علينا أن نستعد للسفر هذه الليلة كي لا تثير قافلتنا شكوكا لدى الآخرين . كما سأل رمضان مصطفى إن كان ينصح بأن تسافر سليمة ضمن هذه القافلة الصغيرة أخذا في الاعتبار وضعها الصحي حيث أفاد مصطفى بالإيجاب قائلا : إن الوعكة الصحية التي تعرضت لها سليمة ليست خطيرة بدرجة تمنعها من السفر وذلك بفعل المعالجة السريعة للدغ الذي أصاب ساقها لأن أي تأخير في التعامل مع لدغ الأفعى السامة يكون كفيلا بأن يقود إلى مضاعفات صحية خطيرة . لكن سليمة الآن تتحرك بسهولة وعدم إنشغال بما حدث لها وتمارس مهامها المنزلية بكل اقتدار، ولذا لا نرى ما يمنع من أن تسافر ضمن القافلة المعدة لهذه الرحلة .

وهكذا ما إن غابت شمس النهار وأطل الليل باسطا معطفه الأسود على كل الموجودات حتى كانت تلك القافلة الصغيرة تغادر الكهف الواقع في منطقة الصخرة يتقدمها حامد ومصطفى ويليهما رمضان وسليمة رفقة خمسة عشر مجاهدا يمتشقون أفضل الأسلحة . كان حامد الدليل المرشد للقافلة يسير بها في ذلك الليل الذي تتلألأ نجوم السماء وسط ظلامه الحالك، مستعينا بخبرته الطويلة في السفر الشاق وسط الصحراء القاحلة .

استمرت القافلة تشق طريقها طوال الليل وسط الكثبان الرملية البيضاء التي تشبه كل واحدة منها الأخرى، وقد كان سفر الليل مفيدا جدا في تجنب تعرض القافلة لشمس النهار الحارقة .

وعندما لاح شفق شمس النهار يبدد بألوانه الزاهية جحافل الظلام أعطى مصطفى أوامره بالتوقف في ظل تلة عالية للاستراحة بضع ساعات من لهب شعاع الشمس. نصبوا الخيمة بسرعة وهم الخبراء في مثل تلك الأمور وبدأوا إعداد طعام الإفطار بما يكفي لتزويدهم بالطاقة الجسمية الضرورية بعد ليلة من السفر المتواصل في تلك الرحلة المتعبة . وكالعادة وزعوا واجبات الحراسة بين الرجال الذين تمركزوا في مواقع هامة لحماية القافلة من أي طارئ بينما خلد الباقون إلى راحة مطلوبة بعد عناء السفر .

أمضى رمضان وسليمة فترة الراحة سويا والعواطف الجياشة تملأ قلبيهما . إنها عواطف المحبة والصدق والصفاء التي كانت تدفعهما نحو تمازج روحيهما سواء أدركا ذلك الأمر أم لم يدركاه، أراداه أم لم يريداه ؛ ذلك أن قوة المحبة الصادقة تقهر كل ما عداها في هذا الكون، وهي القادرة على إزالة كل الحواجز المصطنعة أمام بركان العواطف الجياشة . كان وقتا لراحة الجسد مثلما كان وقتا لراحة النفس في ظل سلطان المحبة التي ستظل محفورة في نفسيهما إلى الأبد .

وقبل حلول الليل حينما كانت بقايا أشعة الشمس تصارع يائسة جحافل الظلام استأنفت القافلة الصغيرة رحلتها بهدوء وشوق كبير يهزها نحو وجهتها القادمة في مدينة بنغازي، حيث استمرت تسير ليلتين إضافيتين دون أن تواجهها أية عقبات أو مصاعب . وفي صباح اليوم الثالث كانت القافلة تستعد لأخذ فترة استراحة عندما تفاجأت بتقدم حثيث لجنود ايطاليين نحوها ربما بغرض الإطلاع على تصريح السفر الخاص بها . كانت الصدفة القاتلة تتمثل في أن الضابط المسئول عن مجموعة الجنود الايطاليين في تلك الدورية يعرف مصطفى وحامد شخصيا، ويعلم أنهما من ضمن حركة المجاهدين، ولذا فقد أعطى أوامر صارمة للقافلة بالاستسلام فورا، كما أن مصطفى وحامد كانا يعرفان هذا الضابط من خلال المعارك التي خاضاها ضد الوحدة التي يقودها من قبل .

كان مصطفى وحامد يدركان أبعاد ما يمكن أن يحدث، ولذا أعطيا الأوامر لرجال القافلة بإطلاق النار بكثافة من رشاشاتهم الأوتوماتيكية التي يحملونها معهم دائما باتجاه الجنود الايطاليين، لكنهما لاحظا أن عدد هؤلاء الجنود كبير جدا يجعل من الصعب تحقيق انتصار حقيقي عليهم من قبل العدد القليل من المجاهدين الذين تتكون منهم القافلة، وهو ما

حدا بمصطفى أن يقترح على رمضان وسليمة أن يعمدا إلى الخروج من المواجهة ويواصلا السير برفقتهما حامد، في حين يقوم هو ورجاله بمشاغلة الجنود في تبادل إطلاق النار من أجل إعطاء الوقت الكافي لرمضان وسليمة وحامد لكي يبتعدوا عن مكمن الخطر .

كان رمضان مترددا إزاء هذا الأقتراح لمواجهة الموقف غير المتوقع، لكن حامد أمسك برسن الجمل الذي تركبه سليمة وأسرع بالمغادرة مما أجبر رمضان على عدم إضاعة الوقت في التفكير أو طرح الأسئلة واضطر إلى السير في الوجهة التي اختارها حامد . وخلال دقائق قليلة كانت المعركة تدور على أشدها وبضراوة بالغة بين العدوين اللدودين مصطفى والضابط الايطالي . كان مصطفى ورجاله قد سدوا تماما الوادي الصغير الذي يقع بين تلتين رمليتين من أجل إعطاء الفرصة لرمضان وسليمة وحامد للنجاة . كان مصطفى، ذلك الشيخ المجاهد الذي خاض مختلف أنواع المواجهات ضد جيش الاحتلال الايطالي يدرك تماما أنه لن ينجو هذه المرة من هذه المعركة القاتلة، ولذلك كان همه منصبا على أن يتمكن هو ورجاله الخمسة عشر من صون حياة الرئيس الأعلى الشاب لحركة الجهاد الليبية من أجل أن يستمر في إدارة الصراع ضد المحتلين وتحقيق الطموحات المشروعة للشعب الليبي .

كان رمضان يمتطي صهوة الجواد الأصيل الذي أهداه له صديقه المجاهد إبراهيم، واضطر رغما عنه إلى السير في الوجهة التي اختارها حامد الذي بقي ممسكا برسن الجمل الذي تركبه سليمة محاولا الإسراع ما أمكن في الابتعاد عن ذلك المكان الذي تنبعث منه رائحة الموت من كل جانب، حيث كانت المعركة الدائرة خلفهم قد ازدادت ضراوة، وكان الجانبان يديرانها بأقصى قوة ممكنة وهما يدركان أنها معركة فاصلة يتساوى فيها الموت مع الحياة . استمر القتال الشديد لمدة عشر دقائق تقريبا دون أي توقف، ثم ما لبث الايطاليون أن نصبوا آلية ثقيلة خلف تمركز جنودهم وأصبحت تطلق النار بكثافة مدمرة نحو مواقع المجاهدين .

ورغم المقاومة الشديدة الباسلة التي أبداها المجاهدون فقد أخفقوا في كسب النصر في تلك المعركة . لم تسعفهم البطولات النادرة التي أبدوها في المعركة، ولا وضعهم أرواحهم على أكفهم وتقديم المهج رخيصة في سبيل الله والوطن، حيث أدركوا أن آمالهم في تحقيق النصر هذه المرة أضحت تتبدد . استشهد أغلب هؤلاء المجاهدين، ومن بقي منهم على قيد الحياة استمر يطلق النار نحو الجنود الايطاليين باستخدام الرشاشات الأوتوماتيكية مما أوقع في صفوف المحتلين خسائر جمة، إلا أن الآلية الايطالية الثقيلة التي استمرت

تقصف المجاهدين من موقع مختار بعناية استطاعت إفشال آخر هجوم شنوه على الجنود الايطاليين .

كان مصطفى آخر الباقين على قيد الحياة من مجموعة المجاهدين . ورغم الجروح البليغة التي أصيب بها فقد استمر يطلق النار على الجنود الايطاليين من رشاشته الأوتوماتيكية . وفي آخر عمل بطولي منقطع النظير له أخرج حربته وأنقض على الضابط الايطالي الذي يقود تلك الدورية وغرسها في جسده في طعنة نجلاء لم يتمكن ذلك الضابط إزاءها إلا أن غرس هو الآخر حربته في جسد مصطفى .

بدا جسدا مصطفى والضابط الايطالي وهما ميتان . ويا لسخرية الأقدار ! . وكأنهما يتعانقان، وقد سقطت من يد كل منهما قطعة السلاح الأبيض التي لم تعد بعد الموت تقوى على حملها . كان كل واحد منهما في البداية جاثيا على ركبتيه، لكن وابل الرصاص الهائل الذي وجهه الجنود الايطاليون إلى جسد مصطفى طرحهما أرضا وكأنهما تنينان ضخمان يتصارعان . لم تكن رمال الصحراء تفرق بين دم ليبي أو ايطالي لأنها ظلت تمتص الدماء المتدفقة من هاذين الجسدين .

تولى قيادة الجنود الايطاليين بعد مقتل هذا الضابط نائب ضابط، وعلى وجه السرعة قام باختيار مجموعة تتكون من عشرين جنديا يقودهم عريف كبير في السن، وكلفهم بملاحقة المجاهدين الثلاثة الآخرين الذين انطلقوا منذ حوالي ربع ساعة يسيرون في الصحراء متنقلين بين الكثبان الرملية . استمرت الملاحقة الحثيثة دون توقف ولا انقطاع، وبعد ساعتين تقريبا استطاع الجنود الايطاليون الذين يركبون جمال المهاري السريعة أن يرصدوا مكان تواجد المجاهدين الثلاثة لا لأن جمالهم كانت أسرع فحسب بل لأنها كانت غير متعبة مقارنة بجمال القافلة التي ظلت تشق عباب الصحراء لعدة أيام .

وعندما لاحظ حامد أن العدو أصبح على مقربة منهم أشار على رمضان وسليمة بكل إصرار أن يستمرا في السير حثيثا وأنه سيقوم بإعاقة تقدم الجنود الايطاليين نحوهما . وعندما لاحظ أن رمضان كان يعترض على هذا القرار ابتسم حامد ابتسامة الشجعان وهم يزفون إلى الشهادة لأنه عندما تحين ساعة الحق فليس هناك وقت للجدال . لقد أدرك حامد أن اقتراب الجنود الايطاليين منهم يعني حتما أن مصطفى ورجاله قد استشهدوا من أجل الله والوطن ومن أجل إعطاء زملائهم فرصة النجاة، والآن حان دوره في نيل الشهادة داعيا الله أن يحفظ الرئيس الأعلى الشاب لحركة المجاهدين لمواصلة الكفاح العادل من أجل قضية الوطن .

نطق حامد بدعائه هذا بصوت جهور، ثم أعطى تحية إكرام وإعزاز لرمضان وتراجع إلى الخلف لمواجهة الموت . اختفى حامد عن أنظار الجنود الايطاليين بين الكثبان الرملية، وعند اقترابهم منه خرج من مخبئه فاتحا النار الكثيفة عليهم من سلاحه الفتاك في موقف كفاحي بطولي لا يقبل بغير الشهادة بديلا . كانت شجاعة حامد منقطعة النظير، وهو ما أدركه أعداؤه الايطاليون حين استقبلوا منه وابلين كثيفين من الرصاص، ولكنه في المقابل أصيب هو الآخر بجروح عديدة لم يكن يحس بها في تلك اللحظة لأن المهم عنده كان شعوره بأنه لا يزال حيا، ولا يزال قادرا على إطلاق النار على أعدائه . هكذا كانت العزيمة قوية لدى هذا الرجل ذي القلب الكبير الذي سرعان ما انطلق يشق صفوف الجنود الايطاليين بسلاحه الأبيض محاولا قدر ما يستطيع إلحاق الخسائر بالفرقة الايطالية التي كانت مشدوهة إزاء بطولة هذا الأسد الصحراوي، وهو ما حدا بالجنود الايطاليين إلى إبداء كل الاحترام نحو جثمانه بعد ما استشهد .

كانت لحظات القتال بين حامد والجنود الايطاليين قد أعطت قليلا من الوقت لرمضان للإبتعاد عن مكمن الخطر، وظل يمتطي صهوة جواده العربي الأصيل ويمسك برسن الجمل الذي كانت تركبه سليمة محاولا هو وسليمة الإسراع قدر الإمكان بعيدا عن الخطر المحدق، حيث أصبح العساكر الايطاليون يقتربون أكثر فأكثر منهما على ظهور جمال المهاري السريعة ؛ لكنهما لفترة ساعتين تقريبا استطاعا أن يحافظا على وجود مسافة معتدلة تبعدهم عن الجنود الايطاليين الذين استمروا يلاحقونهما بإصرار وعناد . وحين نال التعب والإرهاق الكثير من الحصان والجمل اللذين كانا بحوزتهما أصبحت المسافة التي تفصلهم عن الجنود الايطاليين تتقلص شيئا فشيئا إلى أن أصبحا في مرمى الأسلحة النارية للجنود الايطاليين الذين اخذوا يمطرونهم بوابل من الرصاص .

أصابت إحدى الطلقات النارية للجنود الايطاليين الجمل الذي كانت تركبه سليمة فسقط يلفظ أنفاسه الأخيرة، ووقعت سليمة فوق رمال الصحراء على مقربة منه وكانت في شبه حالة إغماء . ترجل رمضان من على صهوة جواده، والتقط قربة صغيرة من الماء كانت على ظهر الجمل وأخذ يساعد سليمة على الوقوف وأركبها معه على ظهر الجواد، وانطلق مسرعا في محاولة للابتعاد قدر الإمكان عن خطر أعدائه ، حيث كان يمسك بلجام الحصان بيد ويمسك باليد الأخرى المسدس الذي شده نحو معصمه بحبل كي يكون مقتدرا دائما على الدفاع عن نفسه إلى آخر رمق .

استطاع حصان رمضان الأصيل رغم الإرهاق والحمل الثقيل على ظهره أن يركض

بعيدا عن ملاحقي الفارس الذي يركبه ؛ بيد أن ذلك الجواد العربي الذي كان دوما طوع يد رمضان وقدمه توقفت يداه فجأة في عز الركض عن الحركة وكأنهما قد شلتا، وأصدر صهيلا يعبر عن الإحساس بالخوف والخطر . وخلال هذا التوقف المفاجئ للحصان وقعت سليمة على الأرض وكانت في شبه حالة إغماء . أما رمضان فسقط بقوة على ظهره أمام الجواد في مكان مجوف تحيط به الرمال من كل جانب، وكانت قوة وقوعه على الأرض قد حبست أنفاسه للحظات وكادت تفقده الوعي . وعندما استعاد رشده بعد لحظات قليلة أدرك السبب الذي جعل جواده الأصيل يتوقف فجأة في عز الركض مذعورا بشكل أدى إلى أن يسقط رمضان من على سرج جواده بتلك القوة والحدة . أدرك رمضان أن عليه الآن أن يتمالك نفسه.وأن يتعامل مع الموقف بالحكمة والشجاعة التي تحلى بها دائما .

كان رمضان قد سقط وسط بالوعة من الرمال المتحركة، وهي قادرة خلال لحظات قليلة على التهامه في جوفها . شعر أنه هبط وسطها إلى إبطيه، وأن جسده أصبح يهوى شيئا فشيئا نحو قاعها المظلم . لقد كان التوقف المفاجئ للحصان رد فعل طبيعي عندما وقعت عيناه على ذلك التجويف، واستشعرت حواسه خطرها الكامن . أما الآن وقد أصبح الحصان الذي تملكه الخوف الشديد من هذا المكان ومن الطلقات النارية التي استمر الجنود الايطاليون يطلقونها بلا انقطاع حرا طليقا فقد انطلق يركض بأقصى سرعته بعيدا عن ذلك المكان يلاحقه الجنود الايطاليون الذين مروا قريبا من رمضان حيث رآهم دون أن يروه ظانين أن الفارس الذي كان يركب الحصان ظل متعلقا بجنب الحصان لكي يستعمل الحصان كدرع ضد العيارات النارية التي يطلقونها .

كان رمضان في تلك الآونة ينزلق أكثر فأكثر داخل تلك البالوعة الرملية حيث غرق فيها حتى العنق . وعندما لاحظ سليمة ملقاة على وجهها فوق الرمال دونما حراك أخذ يناديها بصوت متقطع . لقد كانت سليمة شبه فاقدة للوعي، وكانت تستمع إلى صوت النداء القادم من رمضان وكأنه آت من مكان بعيد، لكنها بفعل قوة السقوط على الأرض التي عطلت جزئيا حواس جسمها لم تستطع أن تجيب النداء .

استمر جسم رمضان ينزلق أكثر فأكثر داخل تلك البالوعة الرملية، وحين وصلت الرمال إلى لحيته فكر في أن يطلق النار من مسدسه لعل شخصا قريبا يستطيع أن ينقذه، لكنه عندما كان أصبعه على الزناد استعدادا لإطلاق النار من مسدسه تذكر أن الجنود الايطاليين على مقربة منه، وجالت في ذهنه صور الشهداء الذين أعدمهم جنود الاحتلال الايطالي شنقا في منطقة الصابري في بنغازي، ولاحت أمامه المشاهد المؤلمة

للموت الفضيع الذي لاقاه جميع المجاهدين الذين وقعوا في قبضة الايطاليين، حيث كانت تلك الصور والمشاهد الحزينة المؤلمة قد عطلت حركة أصبعه في الضغط على الزناد . ولكي يبعد عن ذهنه التفكير في هذا الخيار قام بقذف المسدس الذي كان مشدودا بحبل إلى رسغه بأقصى قوة لديه، وكان يدرك أنه لا يلفظ المسدس بعيدا عنه فحسب بل على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . وفجأة استعاد شعوره حينما أحس بأنه يستمع للمرة الثانية إلى تلك النغمة السعيدة التي استمع اليها في المنام عندما رأى نفسه محاطا بأمه مريم وبالسيدة الايطالية ماريا سارا وهما تحتضنانه وتقبلانه من أجل إضفاء السعادة على ابنهما المحبوب .

انتفش شعر رمضان بفعل هذه الهزة العاطفية المفاجئة، ورفع يديه إلى السماء تعبيرا عن الإيمان بقضاء الله وقدره، وبما يختاره الله للمرء من مصير أثناء الحياة وأثناء الممات، وارتسمت على شفتيه الشاحبتين ابتسامة سخرية من الموت الذي تتعدد أسبابه وطرقه ولكنه ذو طعم واحد سواء كان على يد الجلاد الايطالي فوق منصة المشنقة أم في بالوعة رملية وسط الصحراء . ابتسم رمضان ساخرا من أعدائه الذين استمروا يلاحقون حصانا علهم يجدون مجاهدا جديدا عنيدا يعلقونه على خشبة المشنقة ظنا منهم أن هذا كفيل بإخضاع شعب قرر أن ينتصر لنفسه بنفسه ضد جحافل الطغيان والاستبداد .

أجل، كانت ابتسامته تعبيرا عن الانتصار ؛ إنه انتصار الإرادة البشرية على حالات الضعف والخنوع والارتعاش عندما تحين ساعة الموت . إنه الانتصار الذي تحقق للمجاهدين في معارك كثيرة ضد المحتلين الغزاة والتي كان له شرف الإسهام الفاعل في تحقيقه .

وهكذا كانت اللحظات الأخيرة من حياة رمضان لحظات الوعي بأن قيمة المرء ليست فيما يملكه لنفسه، بل فيما يفعله من أجل قضايا شعبه ووطنه، ووفقا لكل هذه المعايير كان رمضان رجلا بكل ما تحمله الرجولة من معان .

أما سليمة فقد استطاعت بعد لحظات أن تستفيق من غيبوبتها . وحينما غرست ذراعيها في الرمال ونهضت ونظرت حولها وقعت عيناها على عيني رمضان المفتوحتين وهما تنظران اليها . رأت رمضان وقد ابتلعت الأرض أغلب جسده ولم يبق سوى أعلى رأسه ويداه المرتفعتان نحو السماء . كان مشهدا مروعا جعلها تتحجر في مكانها وقد سيطر الرعب على كل حواسها، وكيف لا وهي ترى أعز الناس لديها يختنق وسط تلك البالوعة الرملية التي بدت أشبه ما تكون بوحش كاسر جائع لا يشبع .

لم يكن رمضان حينها قادرا على أن يقول شيئا لسليمة، لكن نظراته اليها كانت أبلغ من أي كلام . كان مشهدا أقرب ما يكون إلى خيال منتجي الأشرطة السينمائية . كانت نظرات رمضان تعبر عن الوداع الأخير لكل شيء ولكل شخص . تذكر في تلك الآونة أمه مريم والسيدة الايطالية ماريا سارا، كما تذكر السيد بيبيه صاحب القلب العطوف مثلما تذكر معلومة وأبناءها وكل الأشخاص الذين قدر له أن يعرفهم ويعرفوه خلال رحلة النضال من أجل الشعب والوطن . أما اللحظات الأخيرة من حياته فقد كرسها لسليمة من خلال نظراته المشعة نحوها وهو يوشك على الاختفاء نهائيا والتي أراد من خلالها أن يعبر لها عن محبته ومودته لشخصها الكريم .

نهضت سليمة واقفة عندما رأت أعز إنسان لديها في مثل هذه الظروف . لم تفكر في إنقاذ حياته لأن ذلك لم يعد ممكنا وكان كلاهما يدرك ذلك جيدا . أطلقت سليمة صرخة قوية مدوية أقوى من أي صراخ يستطيع إطلاقه أي إنسان، ثم قذفت بنفسها فوق رمضان وأمسكت بيديه بكل ما تملك من قوة، ووضعت وجهها على رأس رمضان وأطلقت العنان لوحش الصحراء أن يبتلعهما معا بكل رضا واستسلام، وبقيت تنادي عليه باسمه إلى أن غمرت الرمال فمها وكتمت أنفاسها إلى الأبد . كانت مصرة على أن تقول للأقدار أنها ورمضان جسم واحد وروح واحدة لا يمكن لهما أن ينفصلا سواء في الحياة أو الممات .

وبعد بضع دقائق غاب رمضان وسليمة داخل الحضن الدافئ لرمال الصحراء الليبية. لقد ابتلع الوحش الكاسر ضحاياه، وعاد يبدو للناظر من جديد وكأنه جزء طبيعي بريء من تلك الصحراء الممتدة الأطراف مغريا آخرين بالاقتراب منه لكي يجبرهم على الولوج إلى جوفه والنوم الأبدي في أحشائه .

هبت رياح الصحراء من جديد تنقل الرمال من كثيب رملي إلى آخر مما ساعد على حجب هول هذه البالوعة القاتلة عن الأنظار واختفاء مظاهر الخطر المحدق عن هذا المكان . استمر هبوب الرياح مثلما كان ديدنها دائما . ورغم أن هبوبها لا يعبر عن وجودها المطلق أو الأبدي، لكنها بدون شك جزء لا يتجزأ من هذا الوجود .





محمد أبو يوسف الكويتي

محتويات الكتاب

نشر النص الأصلي لهذا الكتاب باللغة الأسبانية
تحت الرقم الدولي ISBN980-327-008-7
من قبل دار النشر EDITORIAL MIRANDA
بمدينة ماراكاي MARACAY
في فنزويلا بتاريخ 1992

رمضان

رواية تاريخية تتناول أحداثا واقعية وقصصية جرت
خلال فترة الاحتلال الايطالي لليبيا

سلفادور جيار اتانا

نقلها إلى العربية :

د. علي المنتصر فرفر

● لنتجاوز بفكرنا كل الحدود ، ولتسموا عقولنا حرة تحطم كل القيود .

● لقد ولدنا سواسية على وجه البسيطة .

● نحن نعي ذلك، مثلما نعي أن أساليب حياتنا هي وحدها التي تميز كلا منا عن الآخر .

■ هذا الكتاب هو أغنية حب :

حب الأم وحب الوطن وحب الحرية

وهذا الحب بعناصره الثلاثة هو الذي يجسد كرامة الإنسان .

